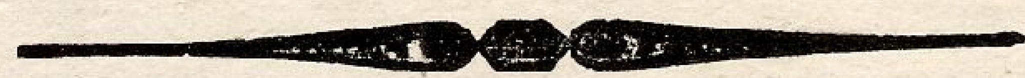
# مصـــر البطليمية



تأليف

زكي عــلي

١٩٨٠

# مصـــــر البطليمية

تأليف

زكى عــلى

١٩٨٠

"د/ اليمنزكي علي"

## لمحات في حضارة مصر البطلمية (١)

## ٣٠٥ ق.م - ٣٠ ق.م

هناك جوانب كثيرة في حضارة مصر البطلمية ، ولكنها اتسمت في مجموعها بطابع معين ، لا يمكن لمن يتصدى لهذا الموضوع الا ان يعرض له ويتناوله بشيء من التفصيل وذلك ان البطالمة جاءوا الى مصر في ركب غزوة الاسكندر الاكبر ( الثالث ) وفتحه لابواب هذه البلاد . واثر احد قواد الاسكندر واركان حربه وهو بطلميوس بن لاجوس ان يستأثر بمصر ويخص نفسه بها بعد موت الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م. وعمل منذ البداية على أن يحتفظ بها لتكون ملكا خالصا له ولاسرته من بعده . فأثبت بذلك انه كان رجلا حصيفا وبعيد النظر وهو الرزين الذي كان قد بلغ على الاربعين من عمره عندما قدم الى البلاد وكان يعرف على حد قولهم " من اين تؤكل الكتف " ويعرف كيف يصيب بحجر واحد اكثر من عصفورين ثم انه كان يؤثر ويفضل الاحتفاظ بعصفور في اليد خير من الجري والتطلع الى العديد من العصافير على الشجرة - تلك هي صورة ذلك الرجل الالمعي الذي وطد اقدامه في مصر وحكمها بوصفه " ساترابا " او مرزبانا ، نائبا عن ورثة الاسكندر بعد موته ٣٢٣ ق.م. حتى ٣٠٤ عندما اعلن نفسه ملكا مستقلا على مصر "باسيليوس".

ومنذ ذلك الحين حتى ٣٠ ق.م. بقيت مصر في حوزة عدد من ابنائه واسلافه عددهم استرابون في كتابه الجغرافي السابع عشر في عجالة وسماهم جميعا باسم بطلميوس وخص كل واحد منهم بكنية او صفة تضفي عليهم القداسة فوصف الثلاثة الاولين منهم بالكفاية والمقدرة اذ هم المؤسسون الحقيقيون لهذه الحضارة البطلمية التي استرعت انظار العالم بما وضعته لمصر في الحكم من نظم اتسمت بالبيروقراطية الشديدة وبما طبقوه من نظام اقتصادي بديع كان رائدا في العالم الهللينستي ومصدرا لثراء ضخم ، ملأ الخزانة البطلمية ( باسيليكون ) بثروات عينية ونقدية هائلة مكنتهم من السيطرة وبسط النفوذ في الحوض الشرقي من البحر المتوسط والمحافظة لفترة او لحين ما على امبراطورية بحرية

(١) البطالمة ( Ptolemies ) نسبة الى بطلميوس الاول ( Ptolemaeus ) ويطلق عليهم بالفرنسية ( Lagides ) او باللاتينية Lagidae نسبة الى الجد Lagos

تشمل عدة جزر منها قبرص وبعض اجزاء من آسيا الصغرى وبرقة وسوريا الخالية ( سهل البقاع ) وفلسطين ، وبهذا كانت لملوك البطالمة الاولين سيادة بحرية تسمى باليونانية " ثالاسوكراسي " ، ولكنها لم تدم طويلا واول هؤلاء الملوك الثلاثة هو بطلميوس الملقب سوتير او المخلص ٣٠٤ حتى ٢٨٥ ق ، م ، ثم بطلميوس الثاني ( ٢٨٥ ـ ٢٤٦ ) ق ، م ، ) الملقب فيلادلفوس اي المحب لاخته وكان هذا اللقب اصلا يسبغ على اخته وزوجته الثانية المسماة ارسينوي الثانية فيلادلفيا ( Philadelphos ) وكان قد تزوجها بعد ان طلق زوجته ارسينوي الاولى وترك لاخته مقاليد الامور وكانت تكبره سنا ، فلما توفيت ، رفعت الى مصاف الالهة والالهات وفرضت لها اموال تتوفر من ضريبة الابوموريا ( Apomoira ) او الجزء Hekté ـ Dekaté المقتطع وهو السدس او العشر على الكروم والبساتين ، للصرف من حصيلتها على مراسم هذه العبادة الجديدة ، اما ثالثهم فهو بطلميوس الثالث الملقب يورجتيس ( ٢٤٦ ـ ٢٢١ ) ق ، م ، اي فاعل الخير ، فكان محاربا مغوارا خاض في السنين الخمس الاولى حروبا في الشام وبلاد ما بين النهرين وما وراء الفرات واولى بنفسه [illegible] وانتقم لاخته برنيقه المتوفاة وكانت زوجة لانطيوخوس ملك الشام التي ورثتها عن ابيه وجدته [illegible] وهؤلاء الملوك البطالمة الثلاثة كانوا في نظر استرابون اولياء الشكيمة ودعامة قوية لمصر وعظمة مصر حريصين على سمعتها ومجدها ، الدولي ، وقد افاض استرابون في مدحهم والاشادة بذكرهم ، اما من جاءوا بعدهم فكانوا اما ابناء لهم على التوالي او اخوة لهم سردهم استرابون في سلسلة متصلة ولكنه لم يعدهم من الكرام فذكر منهم بطلميوس الرابع بن بطلميوس الثالث بالذات وكان هذا الملك يلقب بلقب المحب هو الذي عرف به على مر السنين وهو بطلميوس فيلوباتور اي المحب لابيه وكان من عشاق عبادة الاله ديونيسوس والداعين للاحتفال بطقوسه ومراسم عبادته سنويا وكان يقيم المواكب التي يسير فيها حملة القربات من الخمر ويحرص على تسجيل اسماء المنخرطين في هذه العبادة في ديوان بالاسكندرية ، وفي عهده انغمس في الملذات والشهوات واعمال المجون وارتمى في احضان ثالوث ماجن [illegible] وزير ماكر هو المسمى سوسيبيوس ثم كان هذا الثالوث عبارة

عن ام فاجرة تسمى أوينانثى وابنتها الجميلة " أجاثوكليا " عشيقة الملك واخوها أجاثوكليس احد وزراء الملك ومعاونيه • وعلى الرغم من انغماس الملك فى مجونه واهتمامه البالـــغ بعبادة الاله ديونيسوس اله الخمر والكرم واشتراكه فى الحفلات الماجنة وتكتيل قوى هؤلاء العباد واتباع ذلك الاله ودعوته لهم للحضور للاسكندرية وتسجيل اسمائهم واهتمامه البالغ بحصر اولئك الذين تلقوا اسرار هذه العبادة ،فان عهده اشتهر فى تاريخ البطالمة بما وقع فيه من احداث (١) ذلك ان ملك سوريا انطيوخوس شن غزوة على البلاد فى حوالـــى ٢٢٠ ــ ٢١٨ ق٠م • فانبرى له سوسيبيوس الماكر واخذ يفاوض سوريا ويتظاهر بالرغبة فـــى المسالمـــة وهو فى الحقيقة يستعد لخوض معركة هائلة ــ تلك هى معركة رفح ٢١٧ ق٠م التى غيرت من سياسة البطالمة فى مصر ومن الاتجاهات التى كانت تسير نحوها • ذلك ان فيلقا مصريا تألف وتدرب على اساليب القتال اليونانية وبعد ان كان هيرودوت يسخر من الجنـــود المصريين ويصفهم بأنهم جماعة من القوات المحاربة المسماة " بالماخيموى " لايعرفون النظام ولايلبسون الا السراويل ولايحملون سوى البلط والعصى ، اثبتوا فى معركة رفح انهم أكفاء وابلوا بلاءا حسنا وصدوا العدو فكانوا بذلك اصحاب فضل على اسرة البطالمة والمؤيديـــن لعرشهم بعد ان كان قد اهتز تحت اقدام هذا الملك المفتون • ولذلك تعتبر معركة رفح ٢١٧ فى حضارة مصر البطلمية بمثابة " مفترق طرق " لما كان لها من آثار بعيدة المدى فى السياسة الخارجية والداخلية فبينما هى حفظت عرش البطالمة من الانهيار والسقوط اذ بها رفعت من معنويات الشعب المصرى وجماهيره وجماعات " اللاوى " اخذت تطالب منذ ذلك الحين بثمن هذا النصر الذى كسبوه وتلح فى ان تشارك فى الحكم وان يكون المصريون على قدم المساواة مع اليونانيين • وبعد ان كان اليونان ينظرون شذرا الى المصريين وينزلونهم منزلة دنيا فى السلّم الاجتماعى ويشيرون اليهم بشئ كثير من الاحتقار ،اصبحوا يعملون للمصريين الف حساب وحساب • وعلى ذلك لاينبغى ان نغفل اثر معركة رفح فى حضـــارة مصر البطلمية •

(١) انظر ماكتبه المؤرخ اليونانى بوليبيوس ( Polybius ) عن هذا الملك المفتون •

جاء بعد ذلك ملك هو بطليموس الخامس الملقب " ابيفانيس " أي المتجلي او الظاهر وفي عهده سطر عام ١٩٦ ق.م ؛ لوح اشتهر على مر السنين وكان له اهمية في حياة مصر القديمة ذلك هو حجر رشيد عثر عليه اثناء الحملة الفرنسية على مصر في رشيد ثم نقل الى المتحف البريطاني ؛ وقد كتب عليه قرار اصدره الكهنة المصريون يشيدون فيه بما قدمه هذا الملك الشاب من اعفاءات " فيلانثروبا " وسماحات والعطايا وتكريم لعمرانات

ولما كان هذا القرار مكتوبا باللغة المصرية القديمة بالهيروغليفية ثم بالخط الديموطيقي ثم ترجمة هذا كله باللغة اليونانية وجاء في ثنايا هذا القرار كلمتان مهمتان باليونانية هما بطليموس ثم زوجته كليوباترة والمقابل لهما مكتوب داخل اطار او خرطوش بالهيروغليفية فقد توفر عالم فرنسي هو شامبليون على حل رموز اللغة المصرية القديمة عن طريق التعرف على حروف منها حرف الباء والتاء واللام ، والسين ، والميم ، والحروف المتحركة بينها ثم الكاف واللام والباء والتاء والراء والحروف المتحركة في كلمة كليوباترة .

واخذ هذا العالم يعمل الفكر حتى استنبط آخر الامر حروفا هجائية اخرى وتوصل الى كشفه العظيم وبذلك فك طلاسم هذه اللغة الهيروغليفية واسدى بذلك جميلا الى علماء الحضارات المصرية او علم الاجيبتولوجي المصريات ، واتى بعد الكشف العلمي عن هذا الوثيقة بتاريخ الامة المصرية في العصر الفرعوني ثم في العصر البطلمي الروماني على مدى حقب طويلة تعد بالآلاف من السنين ولاثرا لـ يا كل طلاسم ما يكشف من آثار .

ويقرأ ما سطر على الحوائط والحجارة والتوابيت والالواح والبردي والشقافة باللغة المصرية القديمة وبالخط الديموطيقي وبالاكثر ما سطر بهذا الخط .

ولا يزال راقدا ومكدسا بالمتاحف الاوربية ينتظر ايدي العلماء من المصريين والاجانب جاء بعد ذلك في قائمة الطالمة ملكان هما بطليموس السادس الملقب فيلوميتور اي المحب لامه ، وقد اشترك معه لفترة من الزمان اخوه بطليموس الثامن الملقب فيما بعد

يورجيتيس الثاني واقتسما الملك فكان بطلميوس السابق يحكم امارة في قبرص واخرى في برقة ولم يكن عهدهما يعهد استقرار اذ قامت الفتن والحروب وقد مات الاخ الاكبر عام ١٤٥ ق.م. وانفرد بالملك اخوه يورجيتيس الثاني وحكم من ١٤٥ ق.م. حتى ١١٧ ق.م. وقد تزوج هذا الاخير من ارملة اخيه وكانت تسمى كليوباترة الثانية ثم تزوج من ابنتها في الوقت نفسه وكانت تسمى كليوباترة الثالثة ونشب خلاف اسرى وانقسمت البلاد وكان الصعيد في حزب زوجته الاولى وكان الوجه البحري مشايعا له .

ويبدو انه كان ملكا شريرا وكانت علاقته بالسكندريين على غير مايرام فلقبوه بالشرير "كاكرجيتيس" على النقيض من معنى اللقب الذى كان يدعى به وهو " فاعل الخير " اى " يورجيتيس " واشتهر حكمه بتلك الحرب الاهلية التى نشبت بينه وبين اخته وزوجته الاولى وانقسمت فيها البلاد على نفسها ، الوجه القبلى يناصر الملكة والوجه البحرى يناصر الملك وزوجته الثانية كليوباترة الثالثة وانتهت تلك الحرب الاهلية سنة ١١٨ ق.م. بقرار اعلن فيه الطرفان هدنة وعفوا عاما سلم فيه كل جانب للآخر ببعض الترضيات وعرف هذا بكلمة " فيلانثيروبا " ( Philanthropa ) ، حفظتها لنا وثيقة بردية مشهورة ، ومنشورة في مجموعة بردى تبتونيس ( ام البريجات بجنوب اقليم الفيوم ) تحت رقم (٥) وجاءت هذه البردية حاوية لكثير من الاحكام المتبادلة بين الطرفين ، يسلم كل منهما للآخر بحقوق يحافظ بها على مصالح المؤيدين له ومن كانوا يناصرونه بين الطوائف المختلفة من رجال الدين والعمال والصناع واصحاب الحرف المختلفة وبعض المحاربين من كثير من الاعباء وحقوق الاسكان للجند وهى التى كانت تثقل كاهل الناس والاهليين .

ويأتى فى آخر المطاف فى سلسلة ملوك هذه الاسرة البطلمية ملك مفتون آخر هو بطلميوس الملقب أوليتيس ( Auletes ) اى الزمار وكان يهوى الزمر على الناى وكان يلقب بديونيسوس الجديد ( Neos Dionysus ) واشتهر بأنه كان والد كليوباترة الاخيرة وهى السابعة وكان عهده غير مستقر وكان لهوه وعبثه قد كلف البلاد اعباء كثيرة وترتب على ذلك بيعه لاملاك واراضى كثيرة وتوسع فى الملكية الخاصة للافراد لانه كان فى حاجة

التي الأموال الطائلة وكانت روما اذ ذاك قد تدخلت في شئون مصر بدرجة سافرة وخاصة بعد ان طرد الملك من مصر من ٥٩ – ٥٨ ق.م. حتى ٥٥ ق.م. بعد ان ضاق به السكندريون ذرعا فتخلصوا منه وعندئذ ذهب الى روما يطلب العون والتأييد . وهناك ارتمى في احضان قائد روماني مشهور هو "بومبي العظيم" وكان ثاني رجل في روما بعد يوليوس قيصر وكانا يتنافسان على الانفراد بسلطة في حكم دولتي عرف بنظام الثالوث الحكومي الاول بين يوليوس قيصر وبومبي وكراسوس في روما "ترياموريت Triumvirate"

قدم بومبي هذا الملك المخلوع الى مجلس الشيوخ الروماني فمنحه لقبا كان يعتز به هو الصديق والحليف لروما = "اميكوس ات سوكيوس" ( Amicus et Socius )
وكبده هذا كله اموالا طائلة جمعها من مصر واغدقها على زعماء الرومان كيما يكسب صداقتهم وتأييدهم . وعلى ذلك استطاع بومبي ان يوحي الى صديقه "جابينيوس ( gabinius ) وكان الحاكم الروماني في سوريا اذ ذاك في ان يعيد هذا الملك الى عرشه بقوة السلاح الروماني . وقد تم هذا بالفعل وجاءت حامية من سوريا الى مصر يقودها انطونيوس قوة الفرسان ودخلت مصر من الفرما واستقرت في الاسكندرية واعادت الملك الى عرشه عام ٥٥ ق.م. وبقي جنود الاحتلال الروماني يؤيدون عرش البطالمة . ومات هذا الملك عام ٥١ ق.م. فخلفه ابنته كليوباترة السابعة بحسب الوصية التي كان والدها قد اودعها في روما لدى العذارى في معبد روماني ( Vestal Virgins ) وطلب الى الرومان ان يكونوا شهداء على تنفيذ هذه الوصية التي قضت بأن تتزوج كليوباترة من اخيها بطليموس الصغير وان يشتركا في الحكم ولكن مالبث ان دب الخلاف بين الاخ والاخت وامتشق كل منهما السلاح في وجه الآخر من ٥٠ حتى ٤٩ – ٤٨ ق.م.

وعندئذ حدث ان وقعت الموقعة الهائلة بين يوليوس قيصر وبومبي في "فارساليا" ( Pharsalia ) في بلاد اليونان ٤٩ – ٤٨ ق.م. انتصر فيها الاول على بومبي الذي فر الى مصر مؤملا ان يلقى الامان فيها بعد الهزيمة المنكرة ولكن الاغتيال كان نصيبه وهو يرسو على الشاطئ في الفرما ( بلوزيوم ) اغتاله احد رجال الملك البطلمي الصغير ظنا منه ان هذا الاغتيال سيكون خير قربان يقدمه الى القائد المظفر "يوليوس قيصر"

وقد عاد هذا القائد بالنصر في اعقاب بومبي ودخل مصر وبكى زميله في القتال بعد أن خر صريع الخيانة الدنيئة وتصرف على خلاف تقاليد يوليوس قيصر على ناصية الموقف في الاسكندرية وحضرت اليه كليوباترة من معسكرها في شرقي الدلتا بطريقة فيها شيء كثير من الروائية والروعة التي تأخذ بلب الشعراء واصحاب الخيال وقد نصح القائد الروماني كلا من الاخ والاخت بأن يعيشا في وئام ، وانجب من كليوباترة ابنا عرف على مدى الايام باسم يختلف عن والده وهو قيصر فسمي بقيصر الصغير " قيصرون " وكان هذا الابن يشبه اباه في مشيته وفي سحنته وكان موضع اعزاز من والدته التي اشركته معها في الحكم بعد موت زوجها واخيها وكان مستقبله السياسي هو الشغل الشاغل لهذه الملكة المصرية الطموحة فهل كان في هذا في واقع الامر مقتلها ونكبتها — كان كل همها كامرأة ان تكسب الى جانبها قائدا رومانيا عظيما ينفذ لها برنامجها السياسي او تحقق عن طريقه شيئا من مطامعها الواسعة وهي مطامع مصرية صميمة ، لاغبار عليها ، فهي تريد العظمة لمصر وتريد للاسكندرية ان تكون عاصمة العالم الهيللينستي وتستعيد الامبراطورية المصرية التي كانت على عهد فيلادلفوس وتبسط السيطرة على روما ، واتصال يوليوس قيصر بها لبضع سنين اثار عليه حفيظة الرومان من امثال شيشرون الخطيب والاديب والكاتب السياسي العظيم فاغتاله فريق من الديموقراطيين هما بروتس وكاسيوس وهو خارج من مجلس الشيوخ الروماني عام (٤٤) ق.م. يوم مشئوم هو الخامس عشر من شهر مارس ( ايديس من شهر مارس ) بسبب ولاءه لهذا المجلس والتأهب لشن حملة مختلفة على دولة الفرس وعندئذ انهار امل كليوباترة وعادت الملكة الى مصر ، فــارة كما قيل ( فوجا ريجيناي = Fuga regi-nae باللاتينية ) ، وعندئذ عكفت على اعادة التفكير في خططها ومن عام ٤٣ حتى ٣٠ ق.م. وهي تتخبط وتحاول ان تصلح ما افسده الدهر فاتصلت بانطونيوس او بالاحرى هو الذي اتصل بها عام ٤٣ ق.م. واحبها وانجب منها توأم وتزوجها آخر الامر عام ٣٧ ق.م. بعد ان كانت زوجته الاولى فولفيا ( Fulvia ) توفيت بالاكراه من اكتافيا ( Octavia ) شقيقة حليفه ، اكتافيوس الوريث والمتبنى ليوليوس قيصر بحسب الوصية التي تركها القائد العظيم يوليوس قيصر ولكن العلاقة الزوجية بين انطونيوس وزوجته

اكتافيا لم تدم طويلا بسبب اختلاف الامزجة وعدم التكافوء بين الاثنين فما لبث ان طلقها وتقضي الاتفاق النهائي من اخيها وهو الحكم الثلاثي الثاني ( ترايمفيريت Triumvirate بين اكتافيوس وانطونيوس وليبيدوس ، فلما تزوج انطونيوس من كليوباترة بدأ العداء السافر بين الاثنين الاولين وقضي العالم الروماني فترة سنتين من سنة ٣٣ - ٣١ ق.م • فـــي حالة انشقاق وتأهب بين الطرفين الشرق والغرب ، وكان الغرب يناصر اكتافيوس بينما كان الشرق يؤيد انطونيوس ومعه كليوباترة ملكة مصر •

ووقفت مصر كلها الى جانب هذه الملكة مؤيدة لها في كفاحها ضد اكتافيوس والغرب بعد ان اعلن اكتافيوس الحرب على ملكة مصر واعتبر زوجها عدوا ( hostis ) تخلى عن رومانيته وارتمى في احضان ملكة مصرية • وهنا وقعت موقعتان حاسمتان فـــي سنتين متتاليتين اولاهما في بلاد [illegible] في اكتيوم ( Actium ) عند مدخل بحر الادرياتيك على الشاطئ الغربي من بلاد اليونان في خليج امبراشيا حيث وقف الاسطول المصري والقوات المعبأة من جميع ارجاء الشرق تؤيد انطونيوس ضد قوى الغرب ( ايطاليا واسبانيا وبلاد الغال ) وكان النصر للغرب بعد فرار اسطول كليوباترة وزوجها انطونيوس من [illegible] الى مصر اما المعركة الثانية فكانت في ظاهر الاسكندرية في ابريل عـــام ٣٠ • خاضها انطونيوس بعد ان فشل في مرسى مطروح ضد القائد كورنيليوس جالـــوس الذي انبرى لانطونيوس وخدعه حتى وقع هو واسطوله في كمين داخل الميناء ورده على اعقابه ولم يجد انطونيوس وكليوباترة غير الانتحار فرارا من الاسر وتركا مصر فريســـة وضحية تخر تحت وطأة الحكم الروماني وتدخل في زمرة الاملاك الرومانية في حوض البحر المتوسط وكانت مصر صاحبة الشرف الرفيع الذي يراق على جوانبه الدم الفريد [illegible] آخر دولة في هذا الحوض •

هذه المادة عابرة في عرض سريع للاحداث السياسية ، وفي الاطار العـــام لحكم بيروقراطي ساد مصر طوال حقبة ثلاثة قرون شهدت فيه البلاد تطورا اقتصاديا جديدا وعلميا واستغلالا لموارد هذا البلد على نحو لم تشهده من قبل •

## لمحة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى فى مصر البطلمية

ننتقل الآن الى ذكر لمحة عن الشئون الاقتصادية باعتبارها الركيزة الاولى في الحكم البطلمي فنقول كان الحافز الرئيسي في ذلك النظام الاقتصادى الذى اقامه ملوك البطالمة الاولون هو الرغبة الملحة في تنظيم الانتاج واسلوبهم في ذلك رعايته وتنسيقه في سلسلة من القوانين اهمها تلك التي اصدرها بطلميوس فيلادلفوس سنة ٢٥٨ ق.م ، ثم أعيد تنسيقها فى عهد ابولونيوس وزير المالية وعرفت تلك القوانين باسم يونانى هو ( Nomoi Telonikoi ) اى القوانين الضريبية والالتزام بجباية مختلف الضرائب وهى تمثل اعظم وثيقة بردية محفوظة الآن بمكتبة البودليان بجامعة اكسفورد وهى الاساس فى اى دراسة جادة عن نظام الحكم البطلمى كله وفيها تنظيم لجباية الضرائب وتحصيل المكوس ونظام الاحتكارات وتسوية الحسابات بين الحكومة والملتزمين ونظام المصارف واعمال النسيج ومنها يلم الانسان بالوان من الحياة ويعرف اوضاع العمال فى المصانع الخاصة بعصر الزيوت والنبيذ ومشاركتهم فى الارباح والفائض وبالاختصار جمعت هذه الوثيقة البردية واقعا ولا غرابة من ان يطالع الباحث فى الحضارة البطلمية بعض صفحاتها ويتأمل فى التشريعات التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس وكان فيها مقتبسا من نظم سائدة فى اثينا ومستعينا بجهود فيلسوف آثينى هو ديمتريوس الفاليرى ( اى من اهل مرفأ اثينا القديم وهو الفاليرى ) ، ولا مجال هنا للدخول فى اى تفصيلات ( ) فهذه مهمة الباحث المتخصص ونقتصر هنا على الاشارة اليها بين حين وآخر .

وكان الغرض الاساسى من وراء ذلك كله هو ان تصير الدولة — او بالاحرى الملك — غنية وقوية ويهابها العالم اليونانى . وكانت كل جهود الشعب موجهة نحو تحقيق هذا الغرض الاسمى فكان يطلب الى كل فرد ان يكد ويشقى من اجل الدولة وفق برنامج موضوع وضع بعناية شديدة بواسطة السلطات والهيئات الادارية وكانت الحكومة تسهر على تنفيذه بدقة ولم تكن تتردد فى فرض العقوبات والغرامات واخذ الضمانات والمواثيق المغلظة من قسم وخلافه حتى تطمئن الى ان كل شئ يسير على مايرام .

اما دور المواطنين من المصريين وهم جماعة تعرف باسم ( laoi ) فكان بعيدا عن القيادة والتوجيه وامله محصور في الكد والشقاء ونصيبه في المكاسب والغنائم ضئيل اذ لم تكن الحكومة تترك للطبقات المختلفة من الشعب سوى القليل من الحرية ولم تتح لهم من الفرص الا ما ندر ليسهروا على مصالحهم الخاصة فكان نصيب الفرد الواحد من الربح او الفائض وهو ما يسمى ( epigenéma ) الا قدرا ضئيلا جدا بل يكاد هذا يكون معدوما بالنسبة للمواطنين المصريين الذين كانت تقع على كواهلهم اثقل الاعباء فالكثرة الفقيرة منهم كانت ملزمة او مكرهة على ان تعمل من اجل الحكومة والملك في هذا او ذاك سواء في الحقل او المزرعة او في مختلف المصانع والمناجم او المعابد ويستوي في ذلك الفلاحون الملكيون ( georgoi Basilikoi ) او غيرهم من الفلاحين في الاراضي والضياع الاخرى التابعة لبعض الافراد من المحظوظين او للمعابد او في الاراضي التي كانت في حيازة الجنود مشاة كانوا ام فرسانا ضباطا ام جنودا في جيش مرابط بمصر من المرتزقة اليونان ومن على شاكلتهم من العناصر المتأغرقة التي هبطت الى مصر سعيا وراء الكسب او لاستغلال موارد بلد غني بخيراته فجاءوا اليها كالسيل المنهمر متكالبين على خدمة ملك بطلمي سخي اعتبر في رأي الشاعر اليوناني ثيوقريطس ( Theocritus ) بطلا وحاكما كريما . وكان يشتري بفضل المال [illegible] ولاء الجنود ويحض الناس على الانخراط في الخدمة العسكرية من اجله باعتباره احسن من يجزل العطاء للجنود .

وهناك غير المزارعين فئات اخرى من المصريين كانوا يمثلون جماعات مختلفة من دافعي الضرائب ( hypoteleis ) وكل من لهم علاقة ايا كانت بالايرادات ويطلق على هؤلاء ذلك الاصطلاح اليوناني المشهور ( epipeplegmenoi Tais prosodois ) ومعناه المرتبطون بموارد الدخل وبعض هؤلاء كانوا اما من العمال في المصانع او تجار التجزئة والبدالين او رعاة اغنام وماشية او من الصيادين البريين او صيادي الاسماك او الحرفيين والنجار او عمال المناجم والمحاجر في الاماكن النائية او على حواف الصحراء الشرقية او الغربية . وبخلاف الاعباء العادية لكل هؤلاء فانهم كانوا معرضين للقيام باعمال كثيرة تدخل في نطاق السخرة ( leaturgia ) في حفر القنوات واقامة

السخرة ومن وقت لآخر في المناجم والمحاجر وربما كذلك في صيد الاسماك واعمال القنص او في تشجير جوانب الجسور وجوانب الطرق وشتى اعمال نقل المحاصيل على ظهور الحمير والبغال والجمال – كل هذه الاعمال واضرابها – كانت في الكثير الغالب تعوق الناس عن القيام باعمالهم المعتادة من اجل كسب قوت يومهم . ولسنا نعرف على وجه الدقة أي صلة ووضع قانوني تدخل تحت طائلته مثل هذه الخدمات الاجبارية ، ويبدو انها كانت في كثير من الاحوال تتخذ طابع التعاقد المبرم وكانت تبذل المحاولات احيانا في الحصول على تنازل عن هذه العقود متى ساءت العلاقات بين صاحب العمل والاجراء وتستخدم وسائل الاكراه للضغط حتى يتنازل اصحاب العقود هذه . ولكن العقود بين الحكومة والاشخاص الذين كانوا يعملون في خدمتها كانت من نوع فذ اذ انها كانت في العادة تحتوي على بند هام خاص بحق التنفيذ في حالة العجز عن الوفاء بسداد المطلوب من الدين فيذكر ان التنفيذ يجب ان يتم على نحو ما هو متبع في سداد الحقوق والمطلوبات الملكية ( he praxis esto hos pros ta basilika or kathaperek dikes ) ولدينا الكثير من الوثائق البردية الدالة على ان هذه الصيغة كانت مستعملة كثيرا وتتضمن حق الحكومة في تحصيل المستحق بالتالي بالتنفيذ على شخص المدين العاجز عن الوفاء بالمطلوب ومعنى هذا مصادرة كل املاكه للوفاء بالدين او القاء القبض عليه وعلى ضامنيه والزج بهم في غياهب السجون فيصبحون رقيقا مسلوبي الحرية حتى توفى الديون .

وهناك فريق آخر من المواطنين المصريين جعل اعتمادهم على الحكومة او على الملك وكان هذا الفريق يشغل مناصب تجعله من المسئوليات الجسيمة وهؤلاء كان سوء طالعهم هو الذي زج بهم في خدمة الحكومة البطلمية . وكان هؤلاء يساقون في المناطق التي يؤدون فيها اعمالهم . ترقبهم عيون الحكومة الساهرة فلا تأخذها سنة من النوم ولا تغفل ابدا من مراقبة اعمالهم وبث العيون والمخبرين من الوشاة ( sykophantae ) لرصد حركات الناس والابلاغ عن المتهربين من الضرائب او من العمل من اجل الحكومة وعلى الاخص في ميدان الزراعة واستصلاح الاراضي . ذلك ان مسئولية هؤلاء بصفتهم الشخصية

والمادية جسيمة وعملهم كان كريها بغيضا ، يبعث احيانا على الملل والفتور ، فلا عجب اذا ، انهم كانوا يحاولون بشدة ان يفروا من أداء هذا الواجب . وهناك مسئولية اكبر من احتمال الحصول على كسب او نفع مادى فى هذا المجال ، فلدينا بعض الوظائف فى السلك الادارى ، تجىء فى اسفل الدرج ، وهذه كانت مباحة للمصريين يتولونها ، ومن هذه وظيفة رئيس القرية او شياختها وعموديتها واصحاب هذه الوظائف كان يطلق عليهم ( komarchae ) وهناك كتبة القرى وهم اشبه بالصيارف حاليا وهؤلاء كانوا يسمون komogrammateis وهذا باعتبار ان القرية كانت تسمى عند اليونان Kome وهى اصغر وحدة فى النظام الادارى وكان شاغلوا هذه الوظائف القروية يتمتعون بالطبع بمركز مرموق فى دائرة نفوذهم ولكن عملهم كان مضنيا ومعقدا وهناك احتمال بسيط للحصول على نوع من الكسب من وراء هذه الوظائف القروية ولكنه يغلب عن الظن ان تولى هذه الوظائف كان يمثل عبئا باهظا او غرما مؤكدا وليس فيه شرف او مغنم وقد تجر هذه الوظائف على اصحابها الوقوع فى اخطاء ومسئوليات تفوق ماقد يجلبه من نفع او كسب ومايتمتع به شاغلوها من نفوذ وجاه عريض ونفع جزيل .

وليس هناك بالطبع اى أساس للقول بان الطبقات العاملة فى مصر البطلمية كانت اشبه ماتكون بالعبيد او الاقنان ، ذلك ان افراد الشعب المصرى ممن كانوا يكنون بالاسم الاتى :

( laoi ) لم تكن ايديهم مغلولة الى اعناقهم تماما وانما كانوا يتمتعون بقسط وافر من الحرية الاجتماعية والاقتصادية بوجه عام ولهم حرية التنقل بصفة خاصة . اما علاقاتهم العادية بالحكومة فيما يختص بمجالات النشاط الاقتصادى فكانت ذات طابع تعاقدى والسخرة الاجبارية التى كانت تكلفهم الحكومة بأدائها كانت تكافئهم او تجزيهم عليها ولو ان هذا الجزاء كان تافها ويصل فى احيان كثيرة الى قدر ضئيل . ومع كل هذا وذاك فانهم لم يكونوا احرارا بكل معانى الكلمة فارتباطهم مع الحكومة كان رباطا وثيقا ولا سبيل لهم الى الفكاك منه او التخلص من هذه الاغلال التى فرضتها عليهم الحكومة فأصبحت امرا واقعا ، لا مجال فيه لاى صورية . فضلا عن ذلك فانهم كانوا يعتمدون فى الحصول على رزقهم وكسب عيشهم على الحكومة . وهناك رهط كبير من الموظفين الملكيين وجباة الضرائب على مختلف انواعهم ،

تحصيهم فصائل من الجند والخفر والحراس والكتبة والمفتشين ميحومون في كل مكان وينقبون ويفتشون ويتجسسون شيء لا يتورعون عن التدخل في الشئون الخاصة لملوك البطالمة وخاصة في شئون اولئك الذين كانوا يعملون من اجل الحكومة في الحقل او في المصنع وذلك على اساس ان كل عمل يقوم به هؤلاء العمال والفلاحون قد يؤثر بصورة او بالسالب او بالموجب في ايرادات الملك البطلمي ، وهذه الايرادات تأتي في المقام الاول ولها قداستها وحرمتها في نظر رجال الحكومة فهي الغاية القصوى التي يجب ان تصوب اليها عيون جميع الناس في مصر البطلمية والتي يجب ان تتضافر جميع الجهود لتحقيق اكبر ايراد ودخل على اتم وجه . وهؤلاء العمال والفلاحون كانوا يعلمون علم اليقين ان عناية الحكومة بشئونهم سببها راجع بصفة خاصة الى حرصها على سلامة ايراداتها وان هذا كله يتوقف على عملهم . وعلى ذلك كانوا اذا ارفعوا عرائض وملتمسات الى الملك ـ [illegible] هذه الملتمسات في مصر البطلمية ففي كتاب فرنسي نشره عالم فرنسي يسمى " اكتاف جيرو " ( Ootape guéraud ) ، العديد من هذه الملتمسات والكتاب يسمى Enteuxeis اي الشكاوى ( نشر في مصر عام ١٩٣١ من عهد كل من بطليموس الثالث وبطليموس الرابع - كان الناس دائما في هذه الملتمسات يلوحون من طرف خفي او بصراحة الى ضرورة رفع الظلم عنهم حتى يستطيعوا ان يؤدوا للملك الخدمات المطلوبة ولا تضار ايرادات الملك فهم عندما يشكون لا يتوسلون فقط بالتوجه الى ساحة الملك واللجوء الى عطفه ورغبته في احقاق الحق ونشر العدالة بين الناس بقدر ما يلوحون في ملتمساتهم بقولهم ان المعاملة الظالمة تحيق بهم سوءا قد يحول دون قيامهم بأعمالهم مما قد ينجم عنه خسارة مؤكدة في ايرادات الملك . فلا عجب اذا ان كان الشعب المصري في مثل هذه الظروف القاسية لا يظهر سوى القدر الضئيل من الحماس والغيرة ولا يبدي شيئا كثيرا من النشاط والقدرة على الابتكار في عمله الذي كان يضيق به ذرعا ويعتبره قرضا ثقيلا عليه ، مما سبب عدم الاكتراث احيانا وعدم المبالاة .

ولسنا نعرف على وجه اليقين عدد المواطنين من المصريين الذين لم ينضووا في خدمة عمل من اعمال الملك وظلوا بمنأى عن اولئك الذين ارتبطوا مع الحكومة بعقد او بالتزام معين او

حتى بالتزام ضمني ، فالذي نعرفه ان الافا بل شرات الالاف من المصريين كانوا يعملون في خدمة الملك ولصالحه . ولا بأس ان كان الكهنة ونفر من الموظفين التابعين للتاج الملكي وبعضهم من ذوي المراتب العاليـة ولهم حظوة لدى الملك ثم ملاك الاراضي الخاصة وهم بالطبع قلة في مصر البطلمية ـ كل هؤلاء كانوا بصورة ما خارج نطاق تلك الاغلال المباشرة الا كان يرسف فيها سائر افراد الشعب ، وذلك اسوة بما كان عليه ذوو المهن الحرة ـ اذا صح ان وجد مثل هؤلاء في مصر ـ ونحن نرتاب كثيرا فيما يقال من انه كان يوجد لمصر في العصر البطلمي عدد كبير من المصريين ممن اتيحت لهم الفرص الحرة كيما يكسبوا قوتهم ( بعرق جبينهم ) بوصفهم الاجراء الاحرار دون ان يكون لديهم حرفة اخرى في نفس الوقت اما النساء والاطفال فهم بالطبع خارج هذا النطاق وليس هناك من سبيل لان تجري الحكومة معهم اى تعاقد بصفة مباشرة .

العبيـــد ـ هؤلاء يطلق عليهم الكلمة اليونانية ( douloi ) ويمثلون شقا كبيرا ـ وقد افرد عالم امريكي ضليع هو وليام لين وسترمان ( W.L.Westerman ) الاستاذ الراحل بجامعة كولومبيا بنيويورك ـ عن العبيد والرق بصفة عامة دراسة مستفيضة في كتاب صدر عام ١٩٥٦ عنوانه ( SlaveSystem ) تناول فيه مركز العبيد في مصر البطلمية وتجارة العبيد واوضاعهم القانونية . ويجب ان نعترف بادئ ذي بدء ان النقص والقصـور يعتور معرفتنا بدور الرق في معترك الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر . وعلينا ان نميز بين نوعين من الرق هما الرقيق المصري والرقيق اليوناني او الاغريقي فالاول كان نتيجـة نوع او شكل من اشكال الاستعباد والاسترقاق ولسنا نعرف سوى النذر القليل عن اصل هذا النوع . اما النوع الثاني فكان مجلوبا الى مصر اصطحبه اليونان معهم عندما وفدوا الـى البلاد واعتمدوا عليه كثيرا في حياتهم وعملوا على اقتنائهم بالشراء وسجلوا اوصاف هؤلاء العبيـد في وثائقهم وتابعوهم وتربصوا للآبقين او الهاربين [illegible] وما اكثر حوادث فرار العبيـد في مصر البطلمية واصداء هذا كله نسمعها من [illegible]

[illegible]

والشكل المصري للرق والعبيد كما نعرفه من تلك الوثائق هو ذلك الذي نجده في المعابد المصرية وكان يسمى بالعبيد المقدسين ( heiro-douloi ) ونظامهم يطلق عليه ( heirodoulia ) وهم فئة لها كيانها ، تمثل رقيق المعابد الذين التصقوا بالمعابد واصبحوا ملتزمين بالبقاء هناك بروابط مقدسة . وكان هذا النظام قوام الاشتراط العبودي في شتى المعابد وبقي على كاهلهم عبء العمل اليومي واليدوي . ومما لا ريب فيه ان رقيق المعابد ظلوا دون وجود العبيد المجلوبين ومن تسرب النوع الآخر من الرقيق اليوناني الى نظام المعابد او التفاضل في كيانها . ويبدو من المحقق انه لامجال للرق في حياة الجماهير الغفيرة من الشعب المصري وانه لا يمكن ان يقوم للرق على اي صورة من صوره واي قائمة او يكون له شأن هام في معترك الحياة المصرية العادية لسبب واحد وهو رخص العمل اليدوي في مصر في العصور القديمة ثم ان الفلاح الملكي او العامل في احد المصانع الخاصة بنوع من انواع الاحتكارات من زيت او ملح او زيوت او عصير نبيذ او جعة او نسيج او تعدين او صيد او دباغة الخ من قائمة الاحتكارات الهائلة ، التي كانت تشتهر بها مصر البطلمية وجند لها جيش متين من الضباط تسخر في عملها البوليس او النظام جموعا هائلة من العمال وتراقبهم مراقبة شديدة خشية ان يحاولوا تعطيلهم او يتهربوا - نقول ان هذا الفلاح او العامل المصري لم يكن على قدر من الغنى والثراء بحيث يمكنه ان يقتني عبيدا يشتريهم من اسواق النخاسة بمصر او من الخارج سواء أكان شراء لاء عبيدا من المصريين او الاعراب مثل عبيد الشيخ طوبيا فيما وراء شرق الاردن وكان هذا الشيخ العربي يتاجر بهؤلاء العبيد ويقدم منهم هدايا الى الملك البطلمي بطليموس فيلادلفوس ثم الى وزير ماليته المشهور " أبولونيوس ( Apollonios ) وكان الاخير يشغل وظيفة مرموقة هي وزير المالية ( dioecetes ) طوال خمسة عشر عاما هي الفترة الاخيرة من حكم بطليموس فيلادلفوس الذي امتد الى سبعة وثلاثين عاما حتى ٢٤٦ ق.م . ( توفي في يناير من عام ٢٤٦ ق.م . ) ان هذا الفلاح كان بالتطبيق رقيق الحال معوزه دائما اليد ، ولا نكون مخطئين اذا قلنا انه كان يعيش من اليد للفم ، فهو قانع يكسب قوت يومه ، ولذلك كان الطابع المميز له هو الرضا والقناعة ولا يتعقل ان درجة الفقر والعوز التي كان عليها تمكنه من شراء او اقتناء

عبيد حوله عين انه هو نفسه كان يسعى الى العمل نظير اجر زهيد ليسمح لاولئك الراغبين في الانتفاع بخدماته والمحتاجين الى جهده الجثماني - كل هذا جعل تطور نظام الرق بشكل على اى نطاق واسع امرا مستحيلا فى مصر البطلمية . اما العناصر الثرية في مصر ذات الجاه والنفوذ فهى القادرة على شراء العبيد واقتنائهم سواء أكان هؤلاء من كبار الموظفين اومن الاعيان ، يستوى فى هذا اليونان والعناصر المتأغرقه والعناصر المصرية التي سايرت الحكام وكانت على معرفة بلغتهم واساليبهم وهؤلاء عرفوا بانهم كانوا يعرفون او يجيدون لغتين الديموطيقية او المصرية القديمة واليونانية فهم bilingual ومن هؤلاء الكاهن مانيتون السمنودى وبيتوزيريس ( Pebosiris ) من الاشمونين ، او هرموبوليس ماجنا ( ملوى ) بالصعيد ( تونه الجبل حيث كانت في وقت ما لجامعة القاهرة ( كلية الآداب) حفائر اثرية هناك وهى منطقة ذات اهمية بالغة بالنسبة لهذه الدراسة لانها كانت ملتقى الحضارة اليونانية او البطلمية مع الحضارة المصرية وموطن عبادة الاله توت ( Thoth ) الذى كان يرمز له بالقرد فى الاشمونين وبطائر الايبس ( Ibis ) فى تونه الجبل غربى النيل وله مدافن هناك عبارة عن سراديب تمتد لالاف الكيلومترات تمثل كل واحدة منها Ibeum وتحكى لنا قصة هذه العبادة ، وعلى جدران السراديب كتابات ونقوش باللغة المصرية المتأخرة وعلى توابيت هذا الاله كتابات بالخط الديموطيقى تعد بالالاف ، وهكذا كان اقتناء العبيد مقصورا على طوائف معينة ، هى تلك التى كانت قادرة على جلبه من الخارج او شرائه من الداخل ، فسادة البلاد الجدد وحكامها وكبار الموظفين فى تلك البيروقراطية والحكومة المركزية من الملك ورجال بلاطه والبيوتات الكبيرة وكبار رجال الدولة والضباط ورجال الجيش والجنود - كل هؤلاء كانوا يفاخرون بالاستحواذ على اعداد هائلة من العبيد وغالبا ماكانت قبورهم يسطر على جدرانها وشواهد قبورهم موتاهم ويصحبتهم رهط من العبيد ، ثم ان اغنياء العائلات المتوسطة سواء من الاغريق اومن المصريين والاجانب المتأغرقين وهؤلاء الاخيرون كانت اعدادهم فى تزايد مستمر - كل هؤلاء كانوا وهم الممثلين للبورجوازية القديمة ، قد تعودوا على استخدام العبيد ، بل ان الكثيرين

منهم اصبحوا لا يقومون على الحياه بدون العبيد من حولهم اما كلاعبات على القيثاره او محظيات او فلتنات او مرضعات والذكور منهم كانوا يؤدون مات عامه ، كمند ماريين او كانوميجسين من جو . سيد هم للسر وللترفيه على سنه (      ) في البلاد اليهوديه وقد وجدت في مصر سوق رائجه لهؤلاء العبيد اذ هربت اثناء الحروب الخارجيه المستمره التي شنها بطلميوس الاول في سوريا وفلسطين وغزه وسهل البقاع (      ) اي لبنان في اسيا الصغرى وفي برقه وجزر الارخبتين وتابع ابنه بطلميوس فيلادلفوس الشوط في مضمار الحروب وكان يشنها بواسطه قواده وضباطه وبين بنفسه اما الملك البطلمي الثالث وهو بطلميوس يوجنيس الاول فكان بطلا مغوارا سارع في سنة الاولى من توليته الى الشام وماوراء الفرات محاولا استعاده الاملاك التي كانت قد بدأت تتقلص من مصر — ومن نتائج فتره الحروب هذه ان راجت سوق العبيد في مصر بفضل تواجد الاعداد الهائله من الاسرى ومن هؤلاء.

اي العبيد المجلوبون من سوريا وقد تحدثت عنهم الفائق والاوامر الملكيه التي اصدرها الملك بطلميوس فيلادلفوس بشأن اطلاق سراح بعض هؤلاء الاسرى من قبيل التسامح ، فلما تواجد في مصر سوق هائلة للرق مزوده بجميع العناصر لهذه السلعه البشريه البغيضه نجحت فكره افتنان العبيد لدى الكثيرين ، اما من باب الماهله المفاخره وليس من باب الحاجه الماسه فالعمل كلما قلنا رخيص في مصر ولا يدعو بحال من الاحوال لاستخدام العبيد ، على العبيد ، على ان هذه العناصر الثريه وذات الجاه والنفوذ عرفت كيف تتخذ رقيقا من بين بعض المصريين بسبب الديون والعجز عن الوفاء بها وهذا في حد ذاته كفل يتضخم اعداد العبيد تنفيذا لشروط الدين واهمها حق التنفيذ على اشخاص المدينين العاجزين عن السداد وعلى الضامنين لهم وهكذا كانت الروابط تتفكك بين الناس فلا يلبث الانسان ان يجد نفسه قد تحول بين يوم وليله الى عبد مستخدم ومسخر على الاخص في مثل الاعمال المنزليه ، ومصر البطلميه حاولت بالتاكيد ادخال نظام العمل بواسطه الرقيق في الاعمال الصناعيه والتجاريه وبذلت المحاولات الجاهده في هذا السبيل وبخاصه في الاسكندريه ولكنها لم تتم وباءت بالفشل للاسباب التي ذكرناها انفا واهمها رخص الايدي

العاملة بدرجة ملحوظة وماكان ينطوي عليه الرق من مبادئ ليس فيها انسانية ولاكرامة وليس هناك مايحمل على الظن بأنه في مثل تلك المنشآت والاعمال الواسعة التي كانت تجري في ضيعة كبرى هي هبة مساحتها عشرة آلاف من الأرورات وتساوي ستة آلاف من الافدنة المصرية في نطاق بلدة مشهورة هي قرية فيلادلفيا الواقعة بشرقي اقليم الفيوم والاقليم الارسينويتي كما اسماه فيلادلفوس بعد موت اخته وزوجته ارسينوي الثانية وكان الملك البطلمي قد وهبها الى كبير وزرائه ابوللونيوس، قابلة للاسترداد واستردت بالفعل بعد موت او اختفاء ابوللونيوس في صدر حكم بطليموس يورجتيس الاول مباشرة — في هذه الضيعة كان استخدام الرق في العمل يجري على قدم وساق ، يمثل ظاهرة فريدة ، جنبا الى جنب الاعمال الاخرى التي كان يستخدم فيها الاحرار • وعلى اي حال لاينبغي ان نغالي في تقدير اعداد العبيد المستخدمين في منازل وبيوتات اعيان البلاد وحكامها وكبار موظفيها ، ذلك ان الملوك البطالمة لم يكونوا من المشجعين على زيادة اعداد العبيد وانما فرضوا الضرائب والقيود الكثيرة على بيعها وتداولها واوجبوا تسجيلها وحاولوا جهد استطاعتهم منع انتشار هذا الداء الوبيل والحيلولة دون استرقاق العناصر الوطنية وتحديد اعداد العبيد المجلوبين من الخارج ، والمصدرين من مصر الى خارج البلاد وفرضوا الضرائب والمكوس العالية على التجارة الخارجية في هذه السلعة البشرية • وخلاصة الرأي ان الرق كعامل اقتصادي كان اقل اهمية في مصر البطلمية منه في اي جزء من العالم الهيللينستي ( اي العالم اليوناني عقب مقدم الاسكندر وهو الاسم الذي اطلق على هذه الحضارة الهيلنية تمييزا لها عن الحضارة الهيلينية الاصيلة — حضارة القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد حضارة سقراط والشعراء يوربيديس وارسطو و[illegible] والمفكرين والكتاب مثل هيرودت وثوسيديدس وبركليس • اما حضارة مابعد الاسكندر فكانت شبيهة من تلك ولاتداني الحضارة الاولى في اصالتها لاصطباغها بصبغة شرقية ارادها الاسكندر ان تكون خليطة وان يمزج الشرق بالغرب وان يزوج اوربا من آسيا وافريقيا ونجح الى حد ما في افكاره التقدمية هذه •

الكهنه في مصر البطلميه (          ) والكهنه (          )

الف الكهنه في مصر طبقه متميزه وكانوا بالطبع من العناصر الوطنيه وكانت معابدهم بمثابه معاقل للوطنيه المتأججه ضد الحكم الاجنبي ولكنهم سايروا الملوك البطالمه الى حين وتباروا في اصدار القرارات التي تشيد ببعض ملوك البطالمه وما اسبغوه على المعابد من انعامات وحقوق للايواء والاستجاره لبعض الطوائف من حقوق وامتيازات ومن عفو عام عن المتأخر من الديوان والخراج للمساجين التي ولدينا من هذا القبيل نقوش مسطره على الحجاره منها حجر كانوبوس بطلميوس الثالث ( ٢٣٧ ق٠م٠) (          ) وحجر رشيد لبطلميوس الخامس ( ١٩٦ ق٠م٠) وكان رجال الدين يحظون بمنزله خاصه ويتمتعون ببعض المميزات الهامه مثل الاعفاء من العمل بالاكراه ولكن في واقع الامر لم يكن الموظفون الاداريون في مصر البطلميه يرعون لهم هذه الميزات بالاستمرار وانما كانوا يتجاهلونها ٠ على انه من المؤكد ان الكهنه كان مسموحا لهم ان يتمتعوا بقسط وافر من الحكم الذاتي في داخل معابدهم فكانوا يباشرون طقوسهم ومراسمهم الدينيه دون اي تدخل من جانب الحكومه وفوق هذا ولذلك فانهم كانوا يحصلون على ايراد من الزراعه بوصفهم ملاكا لمساحات ضخمه من اراضي المعابد المرصوده على هذه المعابد للصرف على الاغراض الدينيه (          )

وكانوا كذلك يستفيدون من الناحيه الماديه من وراء الاشراف على الصناعات التي كانوا يزاولونها في المعابد مثل اعمال نسج الكتان الرفيع المعروف باسم (          ) وعصر الزيوت لفترات مؤقته من كل عام وعصر النبيذ للاستهلاك الخاص بهذه المعابد وليس للمتاجره بحال من الاحوال والا اعتبروا مخالفين ومنافسين للحكومه البطلميه التي لا تطيق احتمال وجود اي منافس لها في مضمار التجاره والصناعه الداخليه في هذه السلع الحيويه وكان مسموحا لهم بالمتاجره في بعض السلع الاخرى والحرف التي تغافلت عنها عين الحكومه كأعمال التحنيط وبيع سلع لها ارتباط باعمالهم الدينيه ٠ ولكن جزءا كبيرا من موارد رجال الدين بل لعل هو الجزء الاكبر من هذه الموارد كان يذهب الى خزانه الملك او الى بيت المال ويطلق عليه كما قلنا من قبل (

وهنا يجدر بنا ان نحاول الكرة الي التنويه بوجود طائفة مهمة في داخل المعابد المصرية لها كيانها الاقتصادى والاجتماعى ولاغنى عنها تلك هي رقيق المعابد ( Heirodaulоi ) وقد يكون من الشائق ان نعرف شيئا عن هذا النوع من الرقيق الملتصق بالمعابد والذى لم يكن ينتمي بالطبع لاى مرتبة من مراتب رجال الدين ، فلاهم كهان Beireus, Beireis ولاهم كهان عرافون propheteis ولاهم حملة الاردية المقدسة Stolistae ولاهم سدنة المعابد ( neokoroi ) وانما كانوا يعملون من اجل المعابد في فلاحة الارض المقدسة ( ge heira ) او يعملون كصناع في المصانع الصغيرة الملحقة بالمعابد ومنهم من اشتغل برعي الاغنام والماشية او المحافظة على الاوز المقدسة ( chenoboskoi ) وهناك فريق ثالث ( من الذكور والاناث ) كان يقوم بالاعمال اليدوية على مختلف انواعها مما كان يتصل بادارة المباني الخاصة بتلك المعابد والسقاية واعداد الوقود وشتى الواجبات الدنيا في هذا المحيط الديني ، ولو اطلقنا على هؤلاء اسم الرقيق كما يفهمه الاغريقي من مدلول كلمة رقيق ( douloi ) لكان في هذا الشيء الكثير من خطل الرأى ، ولعل حقيقة مركز هؤلاء العبيد المقدسين تتكشف لنا شيئا فشيئا بعد نشر الوثائق الديموطيقية التي تجرى دراستها بعناية فائقة وتنشر تباعا ويكفينا الآن هذا القدر ولا داعي للخوض في اسئلة قد نحار في الاجابة عليها .

## العناصر الاجنبية في خدمة مصر البطلمية

يطلق على هؤلاء الاجانب كلمة ( ΞEVOI ) باليونانية وكان هيرودوت اول من اطلق على المصريين انهم يخشون الاجانب بصفة عامة وينفرون منهم وصار وصفه للمصريين على انهم ( xenophoboi ) لاصقا بالشعب المصرى على مدى الزمان ، وكان المصريون فيما عدا موظفي الحكومة وقلة من ملاك الاراضى والكهنة وبعض ذوى الحرف والمهن ، لايجدون سوى المجال الضيق يكسبون من ورائه ثروات طائلة اما عن طريق الادخار او بفضل نشاطهم وقدرتهم على العمل وهم في هذا المجال كانوا يختلفون اختلافا بينا عن مركز الطبقات الممتازة من الاجانب والوافدين الي مصر وهم الذين تفتحت امامهم الابواب واصبحوا باستقرارهم

وسكنـــاهم في ارض مصر وهم رعية ( subjecti ) لملوك البطالمة على الرغم مما كان لبعضهم من التمتع بحقوق مضى بنهن المواطنة ( politeia ) وهي المنزلة التي كان يحظى بها نفر من سكان الاسكندرية وسكان مدينة نقراطيس ثم سكان مدينة بطلمية ( Ptolemais ) او المنشأة في محافظة سوهاج باقاصي الصعيد • ولا ريب ان مركز هؤلاء الاجانب المستقرين في مصر كان اسعد بكثير من هؤلاء الاجانب • ونجم عن هذه التفرقة في المعاملة حساسية شديدة واحتكاكات مستمرة •

وليس هنا مجال مناقشة المركز السياسي والقانوني لاولئك الاجانب في النصف الاول من القرن الثالث وهو صدر عصر البطالمة فالموضوع شائك وطويل • تستقي بعض مصادره من لمحات واشارات ترد في الاوامر والتشريعات الملكية او في ثنايا الخطابات والمظالم التي كانت تصدر عن كل فريق ازاء الآخر بسبب سوء المعاملة وزيغ الاثرة • وقد وضعت النوارق في شتى المجالات وافترضت الاحتمالات لتفسير لهذه الظواهر بهدف الوصول الى رأي قاطع • وانتهى بنا ذلك والموضوع معقد ومتشعب • ومما لا ريب فيه ان الانسان يستطيع التحدث باقاضة عن احوال اولئك الاجانب من يونان خلص او عناصر اسيوية مختلطة بصبغة يونانية من انحاء كثيرة في آسيا الصغرى مثل ... كيلكيا وكاريا ... وبيثينيا • وكانت الالوف المؤلفة من هؤلاء جميعا بشتى ... قد انسابوا الى مصر ورحبت بهم البــــلاد لانها كانت في حاجة ماسة الى خدماتهم وجهودهم العسكرية والفنية وخبرتهم وعلمهم فـي شتى المجالات من زراعة المحاصيل التقليدية واستنبات نباتات كثيرة وجلب اخرى مثل الكرومب والسمسم والبنجر والقلقاس وانواع شتى من التمر والتوابل والقمح الذي كان ينضج في ثلاثــة اشهر وعرف في عهد فيلادلفوس باسمه الدال عليه ( Trismenos sitos ) ثم الفاكهة على مختلف انواعها ولهم فيها باع طويل فاشجار الزيتون والتفاح والكرم كانت محببة اليهم • اصبح جل هؤلاء ينتسبون الى شعوب وسلالات ويؤلفون في مجموعهم فريقا منفصلا ومتميزا عن باقي السكان ويشاهون ... او طائفة خارجيا في مبنى مكسو بهذا الغشاء وقد نأى افرادها بجانبهم عن باقي المصريين كلما امكن ولذلك • ونشأ ... في الجوهر اكثر منه في المبـــنى

او الخورا ( Chora ) حيث كان الاختلاط اشد والزم فى الحقول والاجران والشون حيث كان يجرى التصرف فى المحاصيل بعد تقديرها واحتساب الضرائب المقررة عليها وترك الفائض ( epigenema = bonus ) منها للمصريين وقد حرص الاجانب على اقامة الحواجز والفواصل بينهم وبين المصريين كلما امكن ذلك خشية ان تطغى عليهم الجموع الغفيرة او الكثيرة من المصريين فيذوبون فيها كما تذوب حبات الملح او نقطة العسل فى بحر خضم اللجى • وقد قسموا انفسهم الى سلالات وشيع حسب الجهة التى وفدوا منها وكان الاساس فيها يقوم على قاعدة اثنولوجية اساسها السلالة وتسمى الواحدة بولتيوما ( Politeuma ) لها حقوق وضمانات سياسية واجتماعية ونظم مرعية • وكان انتقال فرد من جموع المصريين الى صفوف اولئك الاجانب او بالعكس او من شيعة من الاجانب الى سلالة اخرى امرا محرما تماما • على ان الاجانب الذين استقروا فى البلاد بصفة دائمة كانوا • مثلهم مثل المصريين • عرضة للدفع الضرائب ولا سبيل لاعفائهم من قيود الاحتكارات • كما كان عليهم واجب الوفاء بنصيبهم فى تلك الاعباء المالية الجسيمة المفروضة على الشعب وكان ينتظر منهم بالطبع اداء جميع مايفرض عليهم من اعباء من قبل الحكومة •

والاجانب كانوا على اى حال فى نظم معيشتهم ومركزهم سواء الواقعى ( de facto ) او القانونى ( de iure ) ـ يحظون ببعض الخصائص والمميزات التى فرقت بينهم وبين المصريين ويحق لنا ان نسمى هذه الخصائص امتيازات • وكانت اكبر الجماعات واكثرها تنظيما هى الجيش البطلمى وحامياته فكان رجاله وضباطه ( stratiotae ) يعيشون حياتهم الخاصة ويتمتعون بكثير من الامتيازات وتسود بين صفوفهم تقاليد قديمة متوارثة وتطبق عليهم لوائح وضعها الملك لضباطه ورجال جيشه • ثم يلى الجيش فى الاهمية تلك الجماعات الكبيرة من المستوطنين الاجانب من عصر ما قبل البطالمة وجلهم من المهاجرين الذين كانوا يكونون الهيئات المدنية فى المدن الاغريقية القديمة واولاها واقدمها نقراطيس ( فى مركز ايتاى البارود فى محافظة البحيرة )

ومحلها الآن تقرأ شروكم جهيف ونبيرة وكانت منذ أيام الفرعون ابسماتيك في الأسرة السادسة والعشرين مؤسسة يونانية خالصة جاء سكانها من أهل ميليتوس بآسيا الصغرى وعناصر يونانية أخرى أخذت تسود فيها المقومات اليونانية والمجالس التي تتميز بها المدن اليونانية الخالصة ولكن هناك مدينة أخرى هي بارايتونيوم ( Paraetonium ) ومحلها الآن مرسى مطروح حرفها العرب الى البريتون ثم الى مارق مرسى ثم استقر التحريف أخيرا الى مرسى مطروح ولما جاء الاسكندر اسس بنفسه مدينة الاسكندرية واختار موقعها الحالي وكان موفقا في اختياره وارادها ان تكون مركز اشعاع حضاري وقد اتم بطليموس الاول وابنه بطليموس الثاني بناءها وظلت البيئة العاصمة من ... ان اكتمل البناء واسس بطليموس الاول مدينة أخرى كانت آخر المؤسسات الحضرية من هذا النسق وتلك هي بطلمية ptolemais وكان محلها قديما قرية مصرية تسمى " ابسوي " ( psoi ) وتعرف الآن باسم المنشاة في محافظة سوهاج ، قصد بها كذلك ان تكون مركز اشعاع حضاري في الصعيد ولم يشأ البطالمة التوسع في هذا المجال واقتصروا على هذا المنهج المتواضع ولم يجاروا السلوقيين في الشام وهم خلفاء الاسكندر ولعل ... عنهم التوسع في انشاء المدن في الشام ايضا البطالمة خشوا ان تتفتت اوصال البلاد بتأسيس المدن ذات الكيان الذاتي ومما لا ريب فيه ان هذه المدن كانت تتمتع بقسط موفور من الحكم الذاتي ولم يكن نظامها الداخلي من حيث توافر مجلس الشيوخ او البولي ( boule ) ومجلس الاحرار او الاكليسيا Ecclesia والانقسام الى قبائل وديمات ( phylee demes ) ووجود مجالس ... Prytaneis واصدار قرارات ( psephismata ) من مجالس الاحرار تبلغ للسلطات البطلمية الخ — لم يكن الجو السياسي في هذه المدن يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في المدن الحرة الاغريقية مثل أثينا (كبوليس) ( poleis ) وجمعها ( polis ) بوجه عام .

ويظهر ان الحكومة البطلمية لم تكن تعترف لمعظم الاغريق الذين انتشروا في ريف البلاد او ما يعرف بالخورا ( Chora ) وعاشوا بين ظهراني المصريين واختلطوا بهم في الحقول.

ومواطن الجماعات المختلفة ، بأى نصيب ولو بقسط محقوق من الحكم الذاتي - فهذا الامر كان بعيد المنال ، وانما كانت لهم نظمهم وهيئاتهم التعليمية فى المعاهد والنوادى الثقافية المعروفة بالجمنازيوم ( جمع gymnaseum ( gymnasia ) والمتمتعة ببعض الميزات مثل حق تملك الارض والاستيلاء على ايرادها • وكانت هذه المدن تحرص على تكوين هذه النوادى وغيرها من مختلف الجمعيات والمؤسسات ( synodoi ) ذات الطابع الدينى والقومى او الاجتماعى • وان اكثر هذه الهيئات اهمية واعرقها من الناحية السياسية هى تلك الجماعات القومية او الجاليات ( politeumata ) واغلبها كان وثيق الصلة بالجيش ولربما كانت كل جماعة منها تتمتع بمنحة او حق من الحقوق المدنية او بميزة من الميزات لا نعرف كنهها • ونسوق على سبيل المثال جالية الليكيين lycians او جالية الكيريين ( Carians ) ويبدو ان اليهود الساكنين فى الاسكندرية كان لهم حق العبادة فى بيعهم على النحو الذى شرعه لهم سيدنا موسى وليس للدولة حق الاعتراض على مباشرتهم طقوسهم الدينية ولربما كان لهم كذلك حق التشريع والقضاء فى شئونهم الخاصة وقد فصل لنا ذلك الفيلسوف السكندرى اليهودى فيلون فيما كتبه عن القوانين الخاصة de specialibus legibus وكان يلى هذه الهيئات من حيث الاهمية طائفة من خريجى هذه المؤسسات الثقافية او الجيمناسيات وهى اشبه مايكون بخريجى الجامعات فى العصر الحديث فكان هؤلاء يطلق عليهم بالخريجين (Hoi apo tou gymnas-iou) وهم فئة متفقة يشار اليها بالبنان ، تقوم على تبرعات اعضائها وتشرف على تطبيق النظم الاساسية الكفيلة ببقاء الحياة الاغريقية ومراعاة اصولها فى مصر • وكانت هذه الجماعات على اتصال وثيق بجيش البطالمة المرابط وكانت تنظم محاكم خاصة للتقاضى بين صفوف الافراد من الاغريق ويعترف الملك البطلمى بشرعية القانون المدنى الاغريقى ويوافق على تطبيقه على اليونان وقد حفظت لنا اوراق البردى مجموعة من تلك القوانين ، نشرتها جامعة " هالى ( Halle ) الالمانية عام ١٩١٣ تحت عنوان Dikaeomata اى الاحكام

وعرفت ببيبردية هالنسيس ( PapyrusHalensis ) فكشفت لنا عن القوانين الجنائية والمدنية والقسم القانونى ومحاكمة المزورين وشهود الزور وكيفية التقاضى بين هذه

الطوائف اليونانية المقيمة بالاسكندرية . ومن المحتمل انها كانت تخص المدن الاغريقية الاخرى بمصر ومطبقة فيها ايضا وايضا كذلك المجموعات القومية التى تحدثنا عنها وهذه القوانين تعرف بالاسم الدال على كنهها ومجالها وهو ( hoi politikoi Nomoi ) ولو انه لابد لنا ان نقول فى شىء من التأكيد ان الاستعانة بهذه القوانين والتشريعات الخاصة بالمدن وتطبيق المحاكم اليونانية المعروفة باسم الخريماتستاى ( Chrematistae ) واعتراف الموظفين الملكيين الذين كانوا يقومون فى بعض الاحيان بدور القضاة المناسب ، كانت لاتحصل الا فى الاحوال والظروف التى لايوجد فيها نص صريح عليها فى القانون العام ولم يرد بشأنها امر ملكى سواء اكان هذا الامر من قبيل ما يسمى بـ ( prostagmata , diatagmata, diagrammata ) وهناك قضاء اهلى خاص بالمصريين عندما تكون الوثائق المحررة ديموطيقية فعندئذ يذهب المتقاضون الى محكمة مصرية تسمى محكمة ( Laocritae ) او ما تسمى Knbt بالمصرية القديمة وهذه تستند فى احكامها على القانون المدنى المصرى فى حالة عدم وجود اوامر ملكية او لوائح يمكن تطبيقها . والآن نعرض لمظهر آخر وهو من جانب الحكومة البطلمية ازاء اولئك الاجانب او بالاحرى ازاء بعض العناصر غير الوطنية من رعايا الملك ، فهؤلاء الاجانب وسلالاتهم كانوا معفيين فى اغلب الظن من اداء اى عمل من الاعباء التى كان يكلف بها غيرهم ويدخل فى نطاق اعمال السخرة ( leiturgia ) او ما يشبه اسمه بالتكون بها ، كما كانت بعض الطبقات من بين هؤلاء ، ... فى ذلك عن الافتراء ... متمتعة بامتيازات واعفاءات خاصة فيما يتصل بالضرائب مثال ذلك ضريبة الملح halike telos tout thalis التى قال بطليموس وزير المالية على عهد فيلادلفوس ... وهو مدير الشئون الاقتصادية فيها يسمى زينون ان الملك امر باعفاء المعلمين والمدربين والفائزين لقصب السبق فى المباريات والالعاب التى تعقد فى الاعياد الملكية وعيد الاسرة البطلمية وعيد الخمس سنوات من ضريبة الملح هم وسلالتهم او بالاحرى هم واتباعهم من الساكنين معهم ( pikroi ) ( انظر بردية مجموعة زينون ١٦٦ ، ص ١٧٠ ) ، ولكن كل هذه الامتيازات والاعفاءات تقدم لنا الدليل على ان فيلادلفوس كان يتبع سياسة متباينة

الهيلينية اذ خص المعلمين للغة اليونانية والحائزين لقصب السبق فى الالعاب والمباريات اليونانية بهذه المنحة وخص الاعفاء دون غيرهم من المصريين الذين يقومون بتعليم الكتابة الديموطيقية للناس وقد اخذ الكتاب والمعلقون عليه هذا الانحياز ليبني جلدته ورموه بالتحيز السافر •

على ان كل هذه الامتيازات والمنح التى اسبغها الملوك البطالمة المتعاقبون على طوائف من الاجانب ومصريين ، كانت مجرد منح قابلة للاسترداد فى اى وقت وللنقض والابرام حسب هوى الملك ،فلم تكن حقوقا مكتسبة ووراثية لها سندها من القانون • ولا ينهض تورثها ، ولو اننا عثرنا على وثيقة بردية نشرها مؤخرا عالم بريطانى اسمه اسكيت Skeat تفيد ان يونانيا من العاملين على نصيب من الارض قوامه مائة وعشرين من الارورات ( الافدنة اليونانية كتب وثيقة يورث فيها هذا القدر بعد موته لآخرين ( الوثيقة رقم ٢٠١٥ من بردى المتحف البريطانى وتاريخ الوثيقة ١٣ يونية ٢٤١ ق•م•

وفى هذا الصدد يجب ان نذكر ان فريقا كبيرا من الاجانب الذين استوطنوا فى مصر ،كان يحسن بشكل او بآخر فى خدمة الملك ،فالجيش الذى كان يمثل العنصر الاجنبى المجلوب والمرتزق احسن تمثيل ،كان يعتبر جيش الملك ولا تربطه اية التزامات جوهرية نحو البلاد ،بل ان الوطنية او القومية كانت بعيدة عن البعد عن تفكير قادته ورجاله ، فهو ليس بجيش البلاد المصرية الذى يذود عن حوضها ويرد كيد الاعداء وانما هو جيش ملك من ملوك البطالمة المقدونى الاصل ، يغدق عليه الملك ويحركه كيفما شاء •

اما عن باقى الاجانب ممن ليست لهم صفة عسكرية فكانت الغالبية العظمى منهم من المدنيين والكثرة الغفيرة التى وصلت الينا معلومات عنهم كانوا ينتمون الى حاشية الملك وبلاطه فهم اتباعه وزبانيته يخدمون السرات الملكية وتعج بهم دهاليزها واروقتها — هذا هو شأن بيت الملك ( oikos ) الخاص به فى الحى الملكي برأس لوخياس lochias او البراخيم bracheum على شاطئ البحر بالاسكندرية ( فى حى الشاطبى حاليا ، فى منطقة السلسلة ) ، يطوف من حوله رهط من الاتباع وكل من يلوذ بالاسرة

المالكية المقدونية وهؤلاء جميعا كانوا بمثابة خدام الملك الخصوصيين ، وكان لكل واحـــد من هؤلاء بيوره : أسرته وبيته الخاص ( oikos ) الذي يضم أهل أتباعه ، فكـــان لأبولونيوس ( Apollonios ) وزير مالية بطليموس dioecetes ومن أتباعه رجاله وأعوانه التابعون له ممن يحيطون به ويخضعون لأوامره ، فهم Apolloniou

= ( hoi papa Apolloni/tou, hoi peri Apollonion, hoi hypoApor-llonion

وكان لمدير أراضيه وضياعه الواسعة في منف وفي الفيوم وهو المسمى زينون ( Zenon ) وهو سكرتيره الخاص ورفيقه في زياراته ورحلاته في خارج القطر في فلسطين والأردن ثم منزله وبيته المقيم والمستقر في فيلادلفيا ( Philadelphia ) بالشق الهراقليدي الواقع شرقي الفيوم بعد عزل بانكسطور – كان لهذا الوكيل " الكاوني " ( من أهل كاونوس ) بكاريا بآسيا الصغرى ديوانه وحاشيته وقلم الكتاب وحفظة السجلات وقد ترك لنا أرشيفا من البردي حاويا لمدونات مكاتباته ورسائله من سيده وزير المالية ومن أفراد عديدين ممـــن يقيمون بالإسكندرية وشتى أنحاء البلاد ويرتبط بهم عمله اليومي والمعاملات العامة والخاصة ، كل هذا مبوب ومحفوظ بتواريخه وعناوينه عثر عليه حوالي عام ١٩١٧ بقرية الجرزا ( محل فيلادلفيا ) بالفيوم بواسطة العمال الذين كانوا يبحثون عن السباخ فوجدوا بين الأنقاض هذا الكنز الذي يحكي لنا أحوال مصر في هذه الحقبة والجهود المبذولة لتأسيس الإصلاح والنشاط المستمر الذي كان لحكومة بطليموس فيلادلفوس من أجل التهذيب وتعمير واستصلاح أراضيها والتوسع الرأسي والأفقي ، فكانت منطقة فيلادلفيا والقرى من حولها عبارة عن بساتين وحقول زيتون وكروم وأحواض بها الخلال والفول والعدس والخضروات والرياحين ، تفوح منها رائحة زكية ويعتبر هذا السجل الذي يتألف من أكثر من ألفين من القصاصات البردية ، معظمها باللغة اليونانية والقليل منها بالديموطيقية ، وقد نشرت عشرات مـــن الكتب والآلاف من المقالات عن هذا التراث العلمي الذي يحكي لنا تاريخ مصر ويصور لنا من ألوان الحضارة السائدة فيها في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاما من ٢٦١ ق.م حتى ٢٣٦ ق.م ، وليس هنا مجال الإفاضة في الشرح التفصيلي ويكفي أن نقول أن هذه الصفحة من تاريخ مصر البطلمية هي صفحة حضارية .

تزهو بها على العالم فبهوده الملك البطلمي وكبير وزرائه والخبراء الاجانب على مختلف انواعهم ساهمت بقسط وافر فى تغيير معالم الحياة كلها فى مصر فأثرى الكثيرون وعكفوا على البحث واقتباس الاساليب المستحدثة فى الزراعة واستنباط البذور المنتقاة واستخدام الميكنة فى الزراعة كالطنبور والساقية بدلا من الشادوف ثم النورج والمدراة وادخال الجمل فى حمل الاثقال واستخدام الفيل فى القتال — هذا وغيره كثير كان من وسائل النهوض بمصر حتى اصبحت اذ ذاك قبلة الانظار ، ومزارًا لملوك آسيا وامراء الهند والسفور ، وسفراء من ارجوس ببلاد اليونان يخطب ودها وود مليكها وكبير وزرائه امراء اسيويون كملك الهند يقدمون لهم الهبات والعطايا استرضاءا لهم •

وفيما عدا ماكان يجرى فى المدائن والحواضر وبخاصة فى المدن اليونانية الثلاث او الاربع ، فانه كان من العسير العثور فى ريف البلاد وقراها على عدد يذكر من الاجانب ممن لم يكونوا ينتمون الى بيت او دوار من البيوتات التى كانت لاحد من عظماء الاسكندرية فى بلاط الملك او احد وزرائه او يقعون تحت حماية صاحب العمل الذى كانوا يعملون فى خدمته ، يسبغها عليهم ويؤمنهم على مستقبلهم ويدفع عنهم شر المعتدين وكيدهم •

كان مركز الاجانب من الوجهة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يختلف فى الواقع عن مركز المصريين فمركز الاولين كان اكثر نفعا وجدوى من اهل البلاد ، ذلك ان الطبقة العليا من الموظفين المدنيين كانت مقصورة على الاجانب القادرين على التفاهم مع الملك المقدونى بلغته اليونانية كما كان كذلك ضباط الجيش وقادة من المقدونيين واليونان ، جاءوا طائعين مختارين بواسطة زعماء لهم ( Condottieri ) لخدمة المليك كجند مرتزقة اغراهم المال والكسب المادى والفرص الذهبية فسارعوا الى اقتناصها اما سكان مدينة الاسكندرية فجلهم من الاجانب الذين جاءوا من كل صوب وفج والاحرار منهم قلة بالطبع ولكن الاجانب بوجه عام كانوا يتمتعون بمركز سياسى خاص وقد تهيأت لهم الفرص السانحة كيما يضاعفوا من تقدمهم ويؤكدوا نجاحهم فى شتى المجالات فى التجارة والصناعة ثم فى الزراعة فكان من اليسير عليهم الحصول على الاراضى والاستحواذ عليها من

الملك على سبيل الكيروكيات (          ) وهى اقطاعات من الاراضى الصالحـه للزراعه او القابله للاستصلاح تبدأ من خمسه اروات ويطلق على صاحبها من صغار الجنـد (          ) الى صاحب الخمسه والعشرون اروات ويطلق عليها الى صاحب الستين والسبعين والثمانين والتسعين والمائه اروات

اى صاحب المائه او المائه والعشرون — كل بحسب رتبته العسكريه من الضباط والفرسان وكان كل هؤلاء يحصلون بفضل هذه الاقطاعات على دخل كبير من الارض التى كانوا يتركونها بدورهم للفلاحين المصريين ليزرعوها لهم من الباطن اما فى مجال الصناعه فكانوا هم اصحاب العمل والمقاولون والمتعهدون والمهندسون والخبراء وغيرهم هم العمال لتنفيذ ما يؤمرون به ولاصحاب العمل بالطبع الغنه ولغيرهم من العمال الفتات والغرم . اما فى موضوع جبايه الضرائب فكان الاجانب هم الملتزمون والمشرفون المتعهدون بجبايتها ومنهم الضامنون والموقعون على صكوك الالتزام باعتبارهم اصحاب اكبر عطاء مقدم فى مزاد بيع الضرائب وكان يعقد سنويا بواسطه مندوب وزير الماليه وهو الموظف المقيم فى حاضره كل اقليم ويعرف بمدير الشئون الماليه اى الـ (          ) ، يجرى هذا المزاد تحت اشرافه ويراقب هذه العمليه الدقيقه والمتباين فيها وينحى المشكوك فى امرهم وذوى السمعه السيئه والمذنبين ويمنع الموظفين من الاشتراك فى هذه المزادات لا بالذات ولا بالواسطه اى من الباطن وبذا يضمن ان تجرى هذه المزادات على اسس سليمه ثم تطالب الضامنين بتقديم الضمان الكافى على مدى ثلاثين يوما مقسمه الى سته اقسام كل منها خمسه ايام يوفى الضامن جزءا من الضمان يساوى سدس المطلوب فاذا عجز الضامن او الملتزم عن ذلك اعيد المزاد من جديد . وكانت هذه المزادات السنويه وحساباتها الشهريه وعمليه التسويه الشهريه (          ) بين الملتزم ومدير الشئون الاقتصاديه تمثل عبئا دقيقا توليه الدوله كل عنايتها عليه ميزانيه الدوله السنويه .

وكان الاشراف على معظم المصاريف الملكيه والخصوصيه فى ايدى اولئك الاجانب من اليونانيين ومن على شاكلتهم فهم الذين يعرفون كيف يمسكون الدفاتر والحسابات المصرفيه

ويسددون ما يحصل من ضرائب وما يدفعه اصحاب الالتزام والملتزمون من المستحقات عليهم شهريا ويدرجون الاصول والخصوم فى قوائم وحسابات مفصلة - يتم كل ذلك بدرجة من الاتقان منقطعة النظير فى هذا العهد القديم بواسطة هؤلاء اليونانيين •

ومع ان هؤلاء الاجانب كانوا قانونا رعية الملك سواء بسواء مع المصريين ، فانهم كانوا من الناحية العملية رفقاء الملك واعوانه الذين شاركوه الحكم ، والسيطرة على المصريين فخصهم بجل عنايته وغض الطرف عنهم فى كثير من الامور • وعلى ذلك فان نظام الحكم فى عهد البطالمة الاولين او فى صدر هذه الدولة البطلمية اتسم بطابع يذكرنا الى حد كبير بذلك النظام الذى كان سائدا فى مطلع القرن العشرين فى المستعمرات التابعة للدول الاوربية الحديثة فى الهند وشمال افريقيا وآسيا الغربية وعلى الاخص فى العصر الاول من فترة التقدم الاستعمارى الاوربى وعندئذ كانت العلاقة بين الاوربيين والوطنيين تنم عن روح السيطرة والتعالى وليس فيها اى اثر او بادرة تكشف عن الزمالة والرعاية الواجبة • وكان غرض المستعمرين يهدف دائما الى استغلال موارد تلك البلاد لصالحهم وفائدتهم المادية - هكذا كان الحال الى حد ما فى عصر البطالمة الاولين • ومهما قيل عن حكم البطالمة ورغبتهم فى العمل على اسعاد شعبهم وان حكمهم كان مشوبا بحبهم للخير وميلهم للافكار التى من شأنها الاخذ بيد الناس والترفيه عن احوال الشعب وسعيهم لرفعة شأنه الى غير ذلك من الاقوال التى ضمنها عالم امريكى راحل هو " وليام لين وسترمان " (W.linn Westermann) فى مقال مشهور له عنوانه

" The Ptolemies and the Welfare of Their Subjests "

" اى البطالمة ورفاهية شعوبهم " فان هذا الدفاع المجيد يفتقر الى تأييد من مصادر اخرى • ولعل وسترمان بالغ بعض الشىء فى استخراج المعانى واستنباط الرأى السليم فكون الملك البطلمى الاول لقب سوتير اى المخلص المنجى وكون الملك بطليموس الثالث لقب بفاعل الخير او يورجتيس ضمانا كافيا بأنه كان يهدف الى فعل الخير وليس استنجاد اللاجئين والمظلومين بالملك دليلا على انه كان دائما فى نصرة المظلومين فهذه

كلما ادوات واما لارات لا تنم عن شوء الا لحكم البطلمى اتسم بالقسوة والشده واخذ الناس بغير المعروف . وقوانين الاسره البطلميه واوامرها عن فى عدم التهاون فى اى شىء وفرض الغرامات الباهظه على المخالفين من الناس الى المالكون فى الاغلال ليلقوا العقاب اذا ما تواتر الى سمع الملك ان تاجرا من تجار البيعه مثلا فى قريه دائريه فيلادلفيا قد دلس فى الحساب او تفوه بعبارات اخذ عليها — تقوم عليه البينه فى الوثائق البرديه وتحصيل الغرامات كانت يصل الى عشره امثال والى الاف من الدراخمات وعشرات الفئات لا يسع الانسان وهو يطالع صفحات من قوانين الالتزام فى جبايه الضرائب لفيلادلفوس الا ان يشفق على افراد الشعب المصرى ويأسى لحالهم وبؤسهم فخيرات البلاد تذهب تحت سمعهم وبصرهم الى خزائن الملك وشونه ولا يبقى لهم منها الا الفتات والنزد اليسير .

على اننا لا يجب ان نبالغ فى تقدير هؤلاء الاجانب فكبار الموظفين كان لهم بالطبع نفوذ كبير فى تسيير دفه الشئون فى البلاد ولكنهم كانوا يعتمدون كليه على الملك او على رؤسائهم ، فمسئوليتهم الماديه والشخصيه كانت جسيمه ومع ذلك فان هؤلاء الموظفين الكبار الذين كان ينظر اليهم كما لو كانوا انصاف الهه قد يصبحون بين عشيه وضحاها ، وقد حلت عليهم نقمة الملك وغضبه فيعزلهم او يقتلهم او ينج بهم فى غياهب السجون ثم يصادروا املاكهم وثرواتهم الطائله . ولدينا من الوثائق البرديه ما يدل على وقوع مثل هذا بالنسبه لا بوللونيوس نفسه وزير الماليه المشهور الذى توارى نجاه وقيل عزل او مات بعد وفاه فيلادلفوس واعتلاء ابنه بطلميوس يورجتيس الاول عرش البلاد . وقد يلقى الموظفون من الدرجه الثالثه مثل هذا الجزاء مثلما حدث لقطار الجمعه فى فيلادلفيا ( انظر المقال الذى دبجه العالم البريطانى ايريك تيرنر بجامعه لندن بعنوانه *

وهناك امثلة اخري عديدة فى الوثائق البردية وارشيفات زينون بصفة خاصة ، فالملك كان يعتبر كل هؤلاء بمثابة الوكلاء عنه فاذا ماتبين له وجود خيانة من احدهم او عجزا وعدم مقدرة وكفاية في اى مهم ، لم يتردد فى الحصول على مايعوضه عن الخسارة التى لحقت به بمصادرة مالدى هؤلاء الموظفين الصغار او الكبار من ممتلكات — وبالطبع لسنا على بينة من عدد المرات التى كان يحدث فيها مثل هذا التقصير والعقاب ولكن الذى نعرفه على سبيل اليقين هو ان هذا من الجائز حدوثه فى اى وقت ولاى موظف فى البيروقراطية المصرية على عهد البطالمة .

الضباط والجنود :

كان امام الضباط وجنود الجيش من الفرص السانحة للاثراء الشيء الكثير ، فالخدمة فى الحرس الملكى كانت تصبو اليها نفوس الكثيرين وكذلك كانت الخدمة فى [illegible] المختلفة على حدود البلاد والمناطق الاستراتيجية تجلب اجزل العطاء ويثاب عليها من يؤدونها على خير مايرام . ثم ان الانتصار فى الحروب قد يجلب معه الغنم الوفير للجيش المنتصر . ولسنا نعرف كيف كان البطالمة يعالجون مسألة اسلاب الحرب ولو اننا نعرف ان الملك بطلميوس الرابع ( فيلوباتور ) بعد احرازه النصر [illegible] معركة [illegible] المشهورة عام ٢١٧ ق.م . قدم لجنوده مكافآت سخية . وكان ضباط كل من الملكين بطلميوس الثالث ( يورجتيس الاول ) وبطلميوس الرابع ( فيلوباتور ) يفخرون بما حصلوا عليه من منح وعطايا وهبات كان بعضها من الذهب الخالص . وعندما كانت تنتهى الحروب ويعم السلم كان الجنود والضباط يكافئون بتهيئة حياة فيها الاستقرار والسكينة بعد الصخب والجلاد ، وفيها الضمان لعيش كريم هادىء فيرتبطون بالبلاد برباط وثيق وتستفيد البلاد من خبراتهم ومعرفتهم باصول الزراعة كما هى مدونة فى الكتب المتداولة مثل Theophrastus, Historia plantarum [illegible] النباتات لثيوفراستوس احد علماء المدرسة الارستطاليسية ، كان الملك يقدم لهم على سبيل الهبة القابلة للاسترداد رقعا من الاراضى الزراعية تتناسب فى مساحتها مع رتبهم

العسكريه كما سبق ان اوضحنا وكل قطعه منها هى كليروس (          ) وصاحبها يسمى كليروك (          ) اى الحائز للكليروس وبهذا تهيأت لهولاء الضباط والجند من الفرسان او المشاه (          ) الفرص المؤاتيه لتحسين احوالهم المعيشية بتحسين رقع الاراضى التى منحوا اياها كما كانوا يحصلون على تكنات او بيوت يسكونها تسمى ولما نظم مستنبه وقواعد وضعها الملك وراقب تنفيذها وهذه تدخل تحت نظام اسكان الجند

وعلى اعتبار ان هذه المساكن خولت للجند والضباط الاستيلاء عليها اما بواسطه مديرى الشئون الماليه (          ) او انهم ابتنوها لانفسهم ولاحق لهم فى تأجيرها من الباطن او بيعها او رهنها ولا حبسها لانفسهم ووضع الاختام عليها عندما يستدعون لاداء التدريبات الدوريه او الخدمه العسكريه كما لو كانت ملكا خاصا لهم وما يتركونها وهى فى الحاله التى كانت عليها عندما تسلموها .

وكان فى مكنه هولاء الضباط والجنود ان يضيفوا لتلك القطاعات من الاراضى التى يحوزونها من قبل الحكومه اراضى خاصه يتملكونها وتسمى هذه          وذلك بفضل ما يزرعونه فيها من كروم وزيتون ونخيل وشتى انواع الفاكهه . اما عن الضرائب التى كان على هولاء الجند والضباط الكليروكيين (          ) دفعها . فانها لم تكن عاليه بالقدر الذى كان يدفعه الفلاحون الملكيون ففى البند الخاص بالضريبه المشهوره وهى الابومويرا (          ) ومعناها النصيب او الجزء المقتطع فكانوا يدفعون نصيبهم فيها عشرا (          ) بدلا من السدس (          ) مما يستخرجون من النبيذ على ما يزرعونه من كروم وفضلا عن ذلك كان قسطهم من الحريه الاقتصاديه اعظم بكثير من شركائهم . وقد صادف بعض هولاء الجنود المستوطنين فى اقطاعاتهم العسكريه شيئا من النجاح فى هذا المضمار بوصفهم ملاكا للاراضى . ومع انه من العسير ان نقدر بنسبه هولاء . الا ان هذه النسبه تكن قليله بحال ما . وكان هولاء الجند المستوطنون اغلبهم من المقدونيين والاغريق ومن التراقيين والسوريين وسكان الاناضول والمعنى المستفاد من هذا انهم كانوا ينتمون لشعوب واصول وسلالات عريقه اختيرت على مدى الزمان اناسا

عرفوا بالجدية والنشاط فى العمل والقدرة على الابتكار • ومع ذلك فقد نشأت ظروف ،نجم عنها وجود عوائق كثيرة كانت تحد من ذلك النجاح الاقتصادى الذى صادفوه ،فاحتراف الجندية فى عصر عصر بطلميوس فيلادلفوس لم تكن بالمهمة السهلة التى تدر الارباح على اصحابها دون عمل • ذلك ان الجنود كانوا بين حين وآخر يطلبون لاداء الخدمة العسكرية والاضطلاع بهذه الاعباء يتطلب وجودهم فى اقطار نائية ولمدد طويلة وفي اثناء غيابهم كانت انصبتهم ترد في بعض الاحيان للحكومة او يديرها اناس لا يمتون اليهم بصلة وتعوزهم الكفاية والمقدرة ثم الحماس ،ثم ان هؤلاء الجنود والضباط لم تكفل لهم الحرية التامة فى مباشرة اعمالهم الزراعية التى كانت تخضع لدورات زراعية سنوية تحددها الحكومة لتعيين المحاصيل والمساحات التى تزرع من كل نوع وتراقب تنفيذ هذه الدورة ( diagraphe tou sporou ) بعناية شديدة وتعاقب المخالف لهذه الدورة •

وهناك صعوبة اخرى كان الناس يشكون منها ويشترك فى ذلك الصناع الجنود والضباط والمصريون على السواء ، فالشكوى عامة من عدم امانة الموظفين وقلة كفايتهم واستغلالهم لنفوذهم ومناصبهم وضاعف من هذا كله تلك الصعوبات التى كان يسببها لهم ذلك الاقتصاد الموجه ( economie= dirigée ) الذى فرضه عليهم ملوك البطالمة وكان عنوانا بارزا على حكم ملوك البطالمة ،فلكم اضطروا الى ان يبيعوا محاصيلهم والحبوب التى تجود بها اراضيهم ،لا فى السوق العامة الحرة ، وانما للحكومة وبالسعر المقرر فى تعريفة محدد

ملاك الاراضى واصحاب المساكن ، هناك من الادلة مايثبت وجود طبقة من ملاك الاراضى واصحاب البيوت والمساكن على درجة مرموقة من الغنى والثراء وذلك بخلاف اولئك الضباط وموظفى التاج والجنود المستوطنين الذين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش • ويمكن استنباط هذا كله من بعض مظاهر النظام الاقتصادى السائد فى مصر البطلمية ولعل المصدر المهم الذى نستقى منه اهم معلوماتنا عن ذلك هو تلك الوثيقة البردية الشائقة المعروفة بالقوانين الضريبية ( Nomoi Telonikoi ) التى صدرت فى منتصف حكم بطلميوس فيلادلفوس ٢٥٩ ــ ٢٥٨ ق.م • والجزء التمهيدى فيها يمثل اكمل القوانين المنظمة لجباية الضرائب

على الاطلاق وهو القانون المسمى ( Nomos telonikos ) وهو يوضح كيف كانت تطرح الضرائب فى مزادات سنوية وكيف كان يجرى فحص الراغبين فى الاشتراك فى هذا المزاد بواسطة مدير الشئون الاقتصادية او ( oikonomos ) وكيف كانت تبرم العقود مع من يرسو عليه اكبر عطاء وكيف كان يتم الحصول على الضامنين ذوى العقار وكيف كان المتزايدون افرادا كانوا ام جماعات تضم شركاء ( metochoi ) يمثلهم مفوض ( archones ) وهكذا اتخذت الحكومة فى ظل هذا القانون جميع الضمانات التى تكفل الحصول على المبالغ التى تعاقدت عليها وهناك وثيقة بردية اخرى شبيهة ، تنتمى لمصر تحت عصر الملك بطلميوس الخامس ( ابيفانيس ) او المتجلى صدرت فى عام ٢٠٣ — ٢٠٢ ق.م . وهى تحتوى على مجموعة من اللوائح الخاصة بجباية الضرائب بواسطة اولئك الملتزمين فى زمام اقليم اكسيرنخوس او البهنسا وقد نشرت هذه الوثيقة بواسطة العالم الالمانى فلكن وعرفت بالاسم الاتى ( Wilcken, U. p.Z. 112 )

ومن المعلومات التى نستمدها من هاتين الوثيقتين بالاضافة الى ما وصل الى علمنا من المعلومات المستمدة من وثائق اخرى عديدة متصلة بموضوع نظام العقود فى جباية الضرائب ( Wnai ) نرى كيف نظمت الحياة الاقتصادية فى مصر على هذه الركيزة باعتبار ان نظام الالتزام هذا كان يمثل احد الركائز الاساسية فى كيان الحكم البطلمى .

ويود فى هذا المقام ان نفرد له فصلا قائما بذاته لما له من اهمية بالغة فى كيان الجهاز الادارى وفى مستقبل الحكم البطلمى وتلونت به مظاهر هذا الحكم وكان عنوانا بارزا فى الحضارة السائدة فى مصر البطلمية .

## نظام الالتــــــزام

سبق ان قلنا ان نظام الحكم البطلمى فى مصر كان يقوم على اسس ثابتة ودعائم قوية وهذه كان من اهمها الوضع الاقتصادي والعمل على استغلال موارد البلاد بطرق منظمة واساليب محسنة . وكان من اهم الركائز التى كان يعتمد عليها اقتصاد البلاد بالدرجة الاولى والتى يمثلها اتم تمثيل خير تمثيل نظام الالتزام ( tax - farming system )

الذى جلبه البطالمة من بلاد اليونان ثم ادخلوا عليه الكثير من التحسينات وضموا اصحاب الضمانات مليكا لى له النجاح وحال دون اى عبث او استغلال ، لا من قبل الموظفين ولا من الملتزمين انفسهم او حتى طوائف الاهالى الذين كان عبء الضرائب يلقى على كاهلهم .

ولما كان نظام الالتزام هذا يمثل شقا مهما فى حياة الناس فقد حرص المؤلفون على ان يفردوا له فصولا وصفحات مطولة فى كتبهم ، وكان من السباقين فى هذا المضمار الانسة " كلير بريو فى كتابها البطالمة الاقتصاد الملكى صفحات ٤٥ حتى ٥٩

Claire Preaux , Economie royale des lagides ( 1939)

ثم م . روستوفتزف فى كتبه ومؤلفاته العديدة ومنها الكتابان الاتيان

M.Rostowtzeff , Social & Economic History of Hellenistic World

الصفحات من ٢٢٧ حتى ٢٣٣ ثم الضيعة الكبرى فى مصر ص ٤٣ ومابعدها A large Estate in Egypt

حيث قال : أما انه كانت توجد طبقة من ذوى اليسار ، تمثل اصحاب الاراضى والعقار ، بخلاف الضباط وموظفى التاج والجنود الحائزين لأنصبة من الاراضى ، تتفاوت رقعتها بحسب الرتبة العسكرية التى كانوا يشغلونها وقد عملت الحكومة على توطينهم واسكانهم فى انحاء البلاد ، بما هيأته لهم من مكنات ، فهذا امر قامت الادلة والبينة على صحته . ولم يكن هذا المعنى مستمدا من الادلة التى سقناها من قبل ، وانما كذلك من الطابع الخاص الذى اتسمت به الحياة الاقتصادية فى مصر . والمصدر الذى نستقى منه معلوماتنا عن ذلك هو وثيقة بنالية او بالاحرى بمقدمة تلك الوثيقة التى عُرفت بقوانين الدخل لفيلادلفوس . وتحتوى هذه المقدمة على القواعد العامة الخاصة بنظام الالتزام المرعى فى جباية الضرائب ( Wnai ) وهذا القانون معروف بقانون الجباية . nomos telonikos وله الافضلية المطلقة والاسبقية فى التنفيذ ( protopraxia ) على غيره .

ثم هناك الوثيقة الاخرى التى سبق ان نوهنا عنها وهى تماثل هذا القانون فى انهما تعرض لنظام الالتزام ولكنها ترجع الى مابعد ذلك بنحو ستين عاما اى ( ٢٠٢ ق.م . ) اذ صدرت فى عهد بطليموس الخامس المعروف بالمتجلى او الظاهر اى ابيفانيس .

وتحتوى هذه الوثيقة على طائفة من التعليمات الخاصة بالتزام جباية الضرائب بوساطة نفر من الملتزمين كانوا قد تعاقدوا مع الدولة على جبايتها فى اقليم اكسيرنخوس (البهنسا) ( Wilcken, U P.Z.112 ) وحصيلة المعلومات التى يمكن ان نستشفها من هذه الوثيقة ينبغى استكمالها من عديد من البرديات الاخرى — التى جاءت بها اشارات واضحة متناثرة حينا وفى احيان كثيرة مفصلة عن نظام الالتزام فى صورته العامة بجميع جوانبه ومساوئه فى كل ما كان يكتنفه من صعاب . ولعل ارشيف زينون [illegible] اوراق البردى فى هذا الارشيف من اوجه النشاط التى يذللها زينون نفسه ورفاقه فى هذا المضمار وكيف انه عندما تقاعد فى صدر حكم بطلميوس يورجيتيس الاول اشتغل بهذه المهنة وبذل فيها جهودا مضنية ليحقق لنفسه ربحا هو وشركاؤه .

وانا لنعرف كيف كانت الحياة الاقتصادية فى مصر البطلمية منسقة وكيف كانت الحكومة البطلمية المسيطرة على عهد فيلادلفوس توليها جل عنايتها وتخصها بأكبر قسط من التنظيم والادارة . فكانت هناك الملايين العديدة التى تؤلف الكتلة البشرية من المصريين مواطنين واجانب يعملون جميعا فى تناسق اما كمنتجين ومستهلكين ودافعى ضرائب او موظفين وعسكريين وبعض الاخيرين كانت لهم صفة مزدوجة ومصالح مشتركة بين هذا او ذاك واسهام نفر من هؤلاء المنتجين تربطهم بالحكومة عقود من مقتضاها المساهمة بأكبر نصيب فى هذا الثراء العريض الذى توافر للملك وهذه الموارد التى كان يقدمها هؤلاء لخزينة الملك ( to basilikon ) ولبيوته المالية ومصارفه العديدة ( trapezai ) ولمستودعاته ومخازنه المنتشرة فى ارجاء البلاد ( Thesauroi ) وكان يكلف بجمعها والمساهمة فى تزويد الملك بها الاف مؤلفة من الموظفين على اختلاف مراتبهم . وادنى هؤلاء جميعا من حيث المنزلة اولئك الجباة الذين كانوا يقومون بعمل التحصيل الفعلى ويعرفون بالاسم الاتى ( logeutae ) واحيانا يطلق عليهم (praktores) وبجانب هؤلاء الموظفين كانوا مسئولين امام الدولة عن الوفاء بما عليهم من التزامات واردة فى العقود المبرمة التى كانت تحكم زراع الارض الخاضعين للضريبة ( hypoteleis )

وكذلك مختلف الطبقات الاخرى من عامة الناس ممن ارتبطوا بصورة او باخرى بايرادات الملك وموارد دخله. اما الملتزمون فيسمى هؤلاء باليونانية ( hoi Telonai ) ويمثلون طائفة مهمة للغاية وحلقة اتصال وثيق بين دافعي الضرائب والسلطة المشرفة على جباية الضرائب ، ولذلك ينبغى ان نخصها بشيء من العناية وان نتعرف على جهودها واوجه نشاطها وماكانت تتعرض فيه من صعاب ومشاكل فى هذا الخضم من مجتمع زاخر وخليط مؤلف من امشاج تمثل شتى العناصر وتتلاطم فيه المصالح . وفى هذا النظام الضريبي المتوازن ، الذى كان فى احدى كفتيه دافعوا الضرائب من ناحية ، بينما فى الكفة الاخرى كان الجباة ، استطاع البطالمة ان يدخلوا او بالاحرى ان يستخدموا طرفا ثالثا ، يتألف من اناس لهم صلة وارتباط وصالح بتحصيل الايرادات . وهؤلاء كانوا يعرفون بالوسطاء ، يعملون كأفراد او كجماعات ، ممثلة بعضها فى شركات ، لها دور مخصص وملحوظ فى تحصيل ايرادات الدولة وموارد دخلها . وهؤلاء جميعا كان يطلق عليهم الملتزمون ، تربطهم عقود مبرمة [illegible] اليهم قواعد ثابتة ، فأملاكهم وكذلك املاك ضامنيهم مرهونة بسداد ماعليهم من التزامات قبل الحكومة .

وفى بلاد اليونان كان امثال هؤلاء الوسطاء هم الذين يقومون بالفعل بتحصيل موارد الدخل والايرادات العامة ، فكانوا يدفعون للدولة ( اى للمدينة الدولة polis ) مبلغا اجماليا وهذا يخول لهم الحصول على حق تحصيل مورد معين من موارد الايرادات من دافعى الضرائب وغالبا مايشتطوا فى ذلك . اما فى مصر فالحال غير ذلك ، فمهمة التحصيل الفعلى لموارد الدخل كانت من الاعباء الملقاة على عاتق موظفى الدولة انفسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بتوريد مايصل الى ايديهم من مبالغ او ايرادات عينية الى المصارف الملكية او المخازن والمستودعات المنتشرة فى ارجاء البلاد . وعلى ذلك كان يقع على عاتق الملتزمين فى مصر والحالة هذه دور ضئيل جدا فى عملية الجباية الفعلية ، وانما كانت لهم فى الوقت نفسه مصالح حيوية فى عملية الجباية هذه ، ولهذا قاموا بدور فعال فى الرقابة على كل من المنتجين وانواع الذين يساهمون فى الايرادات

وعلى المحصلين المكلفين فعلا بجبايه الضرائب وذلك نظرا لانهم بمقتضى العقود التى ابرموها مع الملك قد ضمنوا له الوفاء بالتزاماتهم ووقعوا على تعهد بذلك ، مؤداه ضروره الوفاء بالمطلوب وهو التحصيل الكلى لاحد موارد الدخل ومعنى هذا تقديم قدر معين من السلع والبضائع او مبلغ معين من المال . وفى حاله العجز عن الوفاء بهذا الالتزام فانهم ومعهم شركاؤهم (              ) والضامنون لهم (              ) يطالبون بان يوفوا بالصفه كاملا غير منقوص من موارد هم الخاصه . وفى حاله الاعسار والعجز عن الدفع يصبح مال الاملاك الضامنه والمرتهنه من قبل الملتزمين المتعاقدين الضامنين ، الى الحكومه التى كانت تستولى عليها وتقوم ببيعها وفاء للمطلوب . اما اذا سارت الامور وفق ما كانوا يشتهون واسفر التحصيل الفعلى عن حصيله من المبالغ التى تحقق فائضا (              ) فان هذا الفائض يصبح من حقهم وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يتسلمون من الحكومه مكافأه او علاوه (              ) اوراتبا (              )

وهكذا كان النظام البطلمى الخاص بالتزام جبايه الضرائب يقوم فى اساسه على قواعد يونانيه مجلوبه من بلاد اليونان ، ويعتبر فى صورته التى طبق بها فى مصر مثلا رائعا ودليلا ايضا دليل على مبلغ الحذق والبراعه التى اوتيها ملوك البطالمه فهم حين استحدثوا هذا النظام باستخدام اولئك الوسطاء ليكونوا حجابا فاصلا بين دافعى الضرائب من ناحيه وبين الجباه الفعليين من ناحيه اخرى اقاموا سياجا يحمى مصالحهم على نحو دل على مقدره وكفايه فائقه فاصبح هناك فئتان هما الجباه والملتزمون — كلاهما مسئول بدوره امام الملك ولذا كان كل جانب يتفانى فى بذل الجهد فى سبيل الحصول على الدخل والايراد المطلوب من دافعى الضرائب ولما كانت مصالح الفئتين فى هذا الخصوص واحده ومتطابقه فان تعاون الطرفين جعل من المستحيل من الناحيه العمليه ان يفلت احد من دافعى الضرائب من الوفاء بما عليهم من التزامات ومن ناحيه اخرى فان اى تهاون او ايه محاوله للغش والتدليس من جانب الموظفين كان
من

مصيرها لن توثر تأثيرا بليغا على مصالح فئة الملتزمين — وعلى ذلك فهؤلاء الملتزمون الى ان يكونوا بمثابة الرقباء الذين وقفوا بالمرصاد ليكونوا عوائق فعالة لكبح جماح اولئك الموظفين • وكان الخاسرون بالطبع فى هذا التنظيم هم دافعوا الضرائب ، فكل جانب من الموظفين والملتزمين ، كان مرتبطا بالتزام لابد ان يوفيه حقه ، وان يتم تحصيل الدخل برمته ، والا تعرض لعقوبة شديدة توقع عليه • وسواء انجم عن ذلك فى نهاية تلك العملية ان دافعى الضرائب قد خروا صرعى ومحطمين تحت وطأة هذا العبء ، ام نجوا من ذلك الخراب ، فهذا امر لا يعنيهم فى كثير او قليل •

اما بالنسبة للملك ، فان هذه النتيجة كانت من الامور التى تشغل بال الملك ، ولذلك كان يصر دائما على الا تسوء معاملة دافعى الضرائب ولاتسلب منهم اموالهم ولايلقى شىء من الغش او التدليس فى معاملتهم (١) • ولكن كقاعدة عامة ، كان الموظفون والملتزمون اذا ما تكتلوا واتحدت جهودهم ، يصبحون اقوى من الملك ولاعاصم لدافعى الضرائب من بطشهم وطغيانهم •

وحرفة الملتزم ، مع كل ماكان يلازمها ويصاحبها من مخاطر ، كانت فى اغلب الظن مجزية بوجه عام • فكان هناك فى صدر مصر البطالمة كثيرون من الراغبين والمتهافتين على ابرام عقود الالتزام هذه • ولم يكونوا ليجدوا اية صعوبة فى الحصول على الضمانات والضامنين لالتزامهم هذا ، وكان عدد الملتزمين فيما يبدو كبيرا نسبيا ، وذلك لان موارد الدخل المعروضة فى سوق الالتزام ، كانت عديدة ، وان لم يكن من اليسير تحديد عددها • ومع ان رجلا ثريا كان بين الحين والاخر فى وسعه ان يتعاقد على عدد من تلك الالتزامات فى وقت واحد ، وبذلك يركز فى يديه شقا كبيرا من العمل ، مثلما فعل زينون فى اغلب الظن وبخاصة بعد اعتزاله العمل فى خدمة ابولونيوس وزير المالية المشهور وقضائه العيش فى اقليم الفيوم او فى قرية فيلادلفيا بالذات كفرد عادى ( parepidemos ) بوصفه احد الاعيان المحليين الغرباء — فالقاعدة العامة كانت تهدف الى تفتيت هذه العقود وتوزيعها بدلا من تركيزها فى نطاق ضيق • ولابد

ان نذكر ان هذه الحقوق الخاصة بنظام الالتزام ، كانت تطرح في المزاد للتعاقد عليها محليا في نطاق اقاليم ومناطق لاتزيد على رقعة " النوم " ( nomos ) او القسم الاداري ( المحافظة ) . ولا ريب ان المعرفة الوثيقة بالاحوال والاوضاع المحلية القائمة كان من المستلزمات التي يحرص عليها اى ملتزم حصيف ، طامع في ان يتحقق له شيء من النجاح في تقدير الصافي من اى ضريبة يتقدم لالتزام بها والتعاقد عليها ذلك ان عمله كان ينطوي على بذل جهد لابأس به ويتطلب وجوده بشخصه في عديد من العمليات التي لاحصر لها والتي لها ارتباط بمهمة التقييم للضرائب على الطبيعة وتحصيل المطلوبات المختلفة . وعلى ذلك كان اغلب الملتزمين من الرجال المحليين ، ممن توافرت فيهم المعرفة الوثيقة من ناحية بدافعي الضرائب ثم بالمحصلين لها . وفوق هذا وذاك كان هؤلاء الملتزمون جميعا من الشخصيات الثرية " المليئة " ومن رجال الاعمال الذين لهم ارتباطات واتصالات واسعة المدى وكانوا في المقام الاول مكلفين بالاشتراك مع الضامنين بتقديم مايلزم من الضمانات التي كانت في اغلب الاحوال تتخذ شكل عقارات واملاك من بيوت ومساكن وكروم وحدائق وبساتين واراضي .

وهكذا كان الالتزام في مصر يعتبر دعامة تمثل نظاما فيه من الكفالة والضمان للحقوق والوفاء للدولة على استحقاقها وليس نظاما للتحصيل حسبما وصفته الاستاذة كليربرو في كتابها المشهور في الاقتصاد الملكي للملوك اللاجيديين او البطلميين ص ٤٥ اذ قالت انه مجرد نظام لحفظ الضمانات وليس مقصورا على كونه اسلوبا للجباية والتحصيل .

" une institution de garantie, non une institution de perception"

وكان يعتبر محور ارتكاز مهم بل بالأحرى " ترسا " من تروس الجهاز الحكومي ودعامة اساسية في دولاب الاقتصاد البطلمي . ومع ذلك فالجهاز الاداري الموكل بتحصيل موارد الدخل كان تاما ومستكملا من غير نظام الالتزام هذا ولذا يمكن ان نقول ان نظام الالتزام البطلمي يمكن اعتباره جهازا اضافيا ودخيلا ، وحواشيه مايكون بقلم الكتاب في اى ديوان او مؤسسة ، ان صحت هذه التسمية . وهذا النظام كما قلنا مقتبس من بلاد اليونان

في عصرها الكلاسيكي واثر ديمتريوس فاليريوس ( Demetrius phalerius ) الاثينى والذى كان يعتبر المشرع الاول للملك بطليموس الاول بين ولذلك كان اشتقاقه راجعا الى اصل آثينى بالتقريب • ولم تكن مصر الفرعونية تعرف شيئا عن نظام الالتزام • نظرا لان الاقتصاد العينى والتبادل بالمقايضة كان هو السائد فيها ونظام الالتزام ليس له اى معنى او مقتضى فى بلد لايعرف شيئا عن النقد وتداول العملة فهو بطبيعته وجوهره مرتبط ايما ارتباط بالاقتصاد النقدى ووثيق الصلة به • وعلى ذلك فهذا النظام الذى كفل جميع الضمانات بتأصله وتأثيله فى الاقتصاد الملكى ،اصبح له معنى جديدا ولم يعد يحتفظ من اصله اليونانى سوى بالشكل والمظهر فقط • ونظام الالتزام فى صورته البطلمية له مبرراته وهو لاول وهلة لايعدو ان يكون جهازا يكفل جميع الضمانات ضد الاخطار المالية وهو من بعض النواحى والاعتبارات يتناول موضوع القروض ( daneia ) التى كانت الدولة تقدمها للمزارعين على مدى آجال قصيرة بضمانات وكفالات اورهون على الانتاج المرتقب ،فتضمن بذلك الدولة الوفاء بمطالبها • واحتياجاتها ومصروفاتها من الاموال السائلة • ونظام الالتزام فى مصر البطلمية يمكن تفسيره على انه كان ينطوى على البحث عن ضمان مالى اضافى وله سبب آخر يبرره كذلك وهو ان البحث عن ضمان هو فى الحقيقة مطلب عاجل وخاصة فى جميع الحالات التى كانت تؤدى فيها الضرائب نقدا ويستحق دفعها بالعملة وذلك فى بلد كان تداول العملة حديث العهد فيه وبخاصة ان الثروات الخاصة لدى دافعى الضرائب كانت فى اغلب الاحوال متواضعة ولاتتحقق عند التنفيذ الفعلى وتسديد الديون اى مكاسب يعتد بها •

والآن يجدر بنا ان نوجز العناصر الاساسية فى تلك القوانين الخاصة بنظام الالتزام حتى نتبين كنهها والاهداف الحقيقية التى كانت الحكومة البطلمية ترمى اليها

( ١ ) كان بين عقود الالتزام هذه يجرى باسم الملك صراحة وبلا مواربة اذ ان تلك العقود كانت تستهل بكلمة يونانية هى ( puloumen ) اى " نحن نبيع " فى صفة المتكلم

النجمى وهو على لسان الملك وذلك فى مزاد علنى .

(٢) كان الاعلان عن موعد البيع وما يرفق به من دفتر او " كراسة " شاملة لقواعد الالتزام باللغتين اليونانية والمصرية ( اى الديموطيقية ) لابد من تعليقه فى مكان عام لفترة زمنية محددة قبل اجراء المزاد بمدة بحيث يسمح للراغبين فى الدخول فى المزاد بأن يدرسوا موارد الدخل وما يمكنه ان يأتى به من ثمار ناجمة عن الموارد المعروضة للبيع فى المزاد . وعلى ذلك تكون البيانات الاحصائية ميسورة وفى متناول المتزايدين للاطلاع عليها .

(٣) كان يتعين على كل من يرغب فى الاشتراك فى هذا المزاد ، سواء أكان اصيلا ام شريكا فعليا . ان يسجل اسمه واسم شركائه لدى مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) وأن يذكر الجنسية التابع لها . واذا كانت الغالبية العظمى من اليونانيين هم الاشخاص الذين توافرت لديهم المقادير الكافية من رؤوس الاموال التى تخول لهم ان يصبحوا ملتزمين او شركاء فى احد المشروعات التى لها اتصال بنظام الالتزام ، فهناك فى الوقت نفسه مصريون ساهموا بقسط وافر فى هذا المضمار . ولسنا نعرف سوى طائفتين كان محرما عليهما القيام بعمل الملتزم وهما الموظفون والعبيد ، فكل من ينتمى لإحدى هاتين الطائفتين عليه أن يتنحى ويبتعد عن المشاركة فى هذا المضمار ، لعدم توافر الاهلية القانونية لدى اى منهما ، وعلى ذلك لم يكن الموظف او العبد يستطيع ان يتولى عمل الالتزام لا بالذات ولا بالواسطة وذلك بنص القانون الوارد فى وثيقة الالتزام وقانونه وانه لمن خطل الرأى ان يدهش الانسان ويستولى عليه الحيرة اذا ما وجد ان الاعتبار القومى والتحيز الطائفى لم يكن له شأن فى سير النظام الذى كان يجرى عليه الالتزام ، فليس هذا الا ظاهرة اخرى دالة على ان الافكار السلطوية على تفضيل البطالمة لبنى جلدتهم وايثارهم للنعرة القومية واخذها فى اعتبارهم ، كانت الرائد لهم فى توجيه السياسة البطلمية فى اضيق الحدود وبصورة ضئيلة .

والصك او العقد المكتوب كان يسبق المزاد ويكشف السبيل امام المشرفين على الجهاز الادارى فى تسيير عملية البيع . على ان نظام المزاد العلنى ثم ماكان يجرى احيانا من

اعادة فتح باب المزايدة مرة اخرى فهذا حق مكفول لمن يشاء - كل هذا تناوله بلاريب شيئ كثير من التغيير والتبديل على مدى القرون الثلاثة من عهد البطالمة . والدليل على ذلك ماجاء في وثيقة باريس في العمود الثالث الاسطر ١٤ حتى ١٦ ( انظر Wilcken, U.P.Z.112 ) اذ قيل انه عقب رسو المزاد على شخص ما ، استؤنف التزايد وفتح بابه من جديد في صالة المزاد نفسها ، وتقدم شخص آخر بعطاء اعلى ولكن هذا العطاء الجديد لم يكن يسمح به بأقل من زيادة ١٠٪ على السعر الذى رسا من قبل على صاحبه الاول . اما هذا الذى رسا عليه المزاد ، فكان مكلفا بأن يقدم الضامنين الكفيلين بضمان الثمن الذى استقر عليه المزاد . وكان على هؤلاء الضامنين ان يقدموا املاكهم لتكون رهنا للوفاء بهذا الالتزام . وكان يدعم هذا الارتباط ويقويه احيانا قسم ملكى (horkos basilikos ) يؤكد ان هذه الاملاك المرهونة خالية من اى التزام او حقوق عينية عليها .

ومنذ الوقت الذى كان يبرم فيه عقد الالتزام ، اصبح الملتزم مسئولا عن الوفاء بما استحق عليه من ثمن يدفعه الى الملك . وبالطبع كان الملك يتخذ من جانبه جميع الاحتياطات التى يخولها القانون قبل الضامنين الكفيلين بالوفاء بالضمان الاصلى ، هناك ضمان آخر الا وهو اجراء التحفظ والحجز على جميع المبالغ التى يقدمها دافعوا كان التنظيم البطلمى يختلف اختلافا بينا عن تلك التنظي الضرائب الى المصرف لحساب الالتزام القائم . وفى هذا الجانب بالذات ، نجدها فى بلاد اليونان فى العصر الكلاسيكى . ذلك ان طريقة دفع الضرائب لم تكن متروكة لحرية الاختيار ، فليس دافع الضريبة ولا الملتزم بحر فيما يتصرف فى هذا الصدد . وهذا الدور الاخير الذى كانت تقوم به المصارف ، باعتبارها اجهزة خاضعة لرقابة الدولة ، ذلك انه لما كانت جميع اوجه النشاط الاقتصادى فى مصر خاضعة لضرائب متنوعة تقوم الحكومة بجبايتها وكانت تلك الضرائب يجرى تحصيلها عن طريق نظام الالتزام ، فمصير جميع المبالغ التى كانت ترد من التجار العديدين او من الصناع والفلاحين كان حتما المآل الى ان تودع فى خزانة تلك المصارف ثم يتم التحفظ والحجز عليها لحساب الدولة

وبذلك يستطيع الانسان ان يتصور الى اى مدى كان هذا البحث عن الضمانات يصـــل بصاحبه ومبلغ ماكان يتورط به احيانا من مسلك والساوب يتبعه فى مثل هذه المعاملات ، هذا فضلا عما قد يطرأ من تعقيد وشلل تبعا لذلك فى الحياة الاقتصادية فى مثل تلك الاجراءات التى كانت تتخذ مبررا لفرض الرقابة المالية على اصغر الشرايين والاجهزة وهى المصارف والمستودعات التى كانت تتدفق اليها موارد الثروة والغنى كالسيل المنهمر باستمرار • وكان رؤساء المصارف يقدمون بيانات بحسابات الملتزمين كل شهر الى مدير الشئون الاقتصادية ( oikonomos ) المختص ، فيقوم هو بدوره بمراجعتها وعمل ميزانية تقريبية منها ، وتلك هى احدى العمليات التى كان يطلق عليها كلمة رهيبة هـــى " التسويات " ( dialogismos ) والاشارة هنا الى عملية مرتبطة بديوان المحاسبات الخاص بالدولة ومركزه الرئيسى فى الاسكندرية • ولعل هذا كان يمثل اهم واجب مفروض على مدير الشئون الاقتصادية الذى كان عليه ان يفرد حسابا لكل قرية ، ان امكـــن ، والا فلكل توبارخية او مركز ثم يبين فيه جميع موارد الدخل ، غير مقتصر على النقـــدى منه فحسب ، بل يضمنه الموارد العينية كذلك • وكان محرما عليه تحريما باتا وقاطعا ان يأخذ فى اعتباره عند عمل هذه التسوية الشهرية لاعتماد اى مبالغ أخرى خلاف ماهو مدون فى سجلات المصارف • وجاء هذا التحذير فى وثيقة بردية مشهورة هى بردية تبتونس رقم ٧٠٣ ( السطران ١٢٤ ـ ١٢٥ ) وكان ينبغى ان ترسل الى الاسكندرية نسخ من الميزانية الشهرية ، ممهورة بالخاتم فترسل صورة منها الى وزير المالية واخرى الى المحاسب الاعظم ( eklogistes ) وهو رئيس ديوان المحاسبات فى الدولـــــة ( logistérion ) • ولا يعطى للملتزم اى فائض من المبالغ المسلمة ، متى وجد ان هناك فائضا فى نهاية العام ، الا بعد اتمام عملية التحصيل وانتهاء مهمتها ، ويكون ذلك بناء على امر من وزير المالية •

وفى جميع الحالات التى ينشأ فيها عجز فى الحساب الختامى تبدأ سلسلــــة من الاجراءات التنفيذية على الممتلكات الخاصة بالملتزم وعلى املاك الضامنين ومـــا

لا يمضى فى التنفيذ كان يقع على اشخاص هؤلاء وعلى ابدانهم فى آخر الامر • وفى الوقت نفسه تبدأ كذلك مسألة الموظفين المفرطين • ووثائق البردى حافلة بالامثلة التى تحكى لنا بما كان يتخذ من اجراءات ومطالبات ووضع اليد او التنفيذ على الاشياء المرهونة • وهكذا وجد الممول نفسه او الملتزم فى حالة من القلق والتهديد بمصادرة ممتلكاته المرهونة ، متى عجز عن الوفاء بالتزاماته قبل الحكومة •

ونظام الالتزام كان مثار نزاع هائل وموضوع جدل طويل ، اثقل عبء الجهاز الادارى واعيى كاهل الادارة المصرية ، ذلك ان المتقدمين فى المزاد كانوا يطمعون فى الفوز باعلان اسمائهم باعتبار انهم هم الذين رسا عليهم المزاد • وفى سبيل ذلك كانوا يبالغون عندما يتقدمون بعطاءات عالية القيمة للغاية فى تلك المزادات ، بل ان البعض منهم كانوا يعمدون الى مناورات دنيئة ، فيحاولون التعرف على محتويات العطاءات التى تقدم بها منافسوهم او يعملون على اخفاء صك هذا العطاء والاوراق والمستندات التى تقدم بها منافسوهم • وفضلا عن ذلك فالملتزم كان فى كثير من الاحوال يتقمص ثوب الدائن البغيض والانسان والماكر اللئيم • حقيقة انه كان يظهر فى احوال كثيرة بهذا المظهر ، ولكننا فى الوقت نفسه لا يجب ان نتقبل هذه الصورة ونسلم بمضمونها فى يسر وسهولة اكثر من اللازم ، فالوضع ليس قائما على هذا النحو باستمرار ، خاصة وان الالتزامات وما ابرم من عقودها التى حققت ارباحا طائلة لم يظهر لها أثر ، لا فى الاجراءات ولا فى المكاتبات من جهات الاختصاص ولم تحتفظ لنا وثائق البردى بأى أثر لذلك • وانما تصل الى اسماعنا العيوب والمساوئ فقط ويتردد صداها فى الوثائق وفى محيط الجهاز الادارى بصورة اقوى مما نلحظه عن المحاسن •

على انه ليس من المحقق ان مشروع الالتزام هذا كان بصورته المطبقة فى مصر غير مجزى ، كما يبدو من تصفح الدفاتر الحاوية لتلك الاعباء الملقاة على كواهل الملتزمين ومن الدوسيهات الخاصة بموضوعات النزاع بين مختلف الاطراف والمشاكل المترتبة عليها ، واذا كان الملتزمون قد وجدوا الضامنين على اتم استعداد للتقدم بضماناتهم وفاءا

لمشروعات هؤلاء الملتزمين ، وان ذلك لم يكن بغريب من قبيل المصلحة الخاصة [illegible] الى ذلك [illegible] المصلحة المشتركة والفائدة الشخصية [illegible] التى كانوا يسعون فى تحقيقها . ونجد من بين هؤلاء الضامنين بعض العسكريين ، وهؤلاء كان الملتزم يعدهم بنصيب بقسط معلوم او بنصيب فى الارباح التى قد تؤول اليه . وعلى ذلك كانوا بتنفيذهم هذا الضمان يستثمرون الاموال التى يدخرونها . وهناك نفر من كبار الرأسماليين المقيمين فى الاسكندرية من امثال ابوللونيوس وزير المالية المصرية فى عهد بطلميوس الثانى ووكيله زينون كانت لهم مصالح عديدة ومتداخلة فى شئون الالتزام وعقوده منذ اول الامر .

ولاينبغى ان يخالجنا ادنى شك فى ان سلطان الملتزمين ومدى نشاطهم وقدراتهم على التصرف فيما كان يعرض من امور ، كان مطلقا ، بل كانت ايديهم مغلولة الى اعناقهم فالحجز على المدفوعات المستحقة لدى دافعى الضرائب كان يمثل احد الاجراءات والتنظيمات التى كانت تخرج عن يد الملتزمين الذين لم يكونوا محصلين للضرائب ولاجباة لها . فهذه المهمة كانت فى الحقيقة وواقع الامر موكولة الى موظفين تابعين للدولة مباشرة ويمثلون رهطا من المحصلين والحراس والكتبة والحفاظ على المستندات والايصالات والاتباع والمفتشين .

( logeutae , phylakers, grammateis, symbolophylakeis hypéretai, ephodoi etc. )

وكان هؤلاء جميعا يتبعون فى القرن الثالث اما مدير الشئون الاقتصادية وهو ( oikonomos ) واما الكاتب الملكى basilike - grammateus يستمدون السلطة من احد هؤلاء ويرجعون اليه فيما يشكل عليهم من امور . وكانت الدولة هى التى تحدد مرتبات هؤلاء الموظفين الموكلين بالتحصيل ولا سبيل الى تعديلها وفقا لمزاج الملتزم وتبعا لهواه . وكان من جراء هذا ان اتيحت الفرصة لان يصبح هؤلاء غير متحمسين ، او على الاقل لامصالح لهم فى ان يخلق التحيل والتمويه النتاج المرجو . وتاريخ الملتزم يوسف يجعلنا نتصور انه فى سوريا وفينيقيا فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد ، لم تكن الحماية الواجبة للدافعين للضرائب على خير مايرام ، فالملتزم الذى كان يتقدم بصك او بعطاء يساوى ضعف العطاء المقدم من منافسيه وخصومه كان يكسب الجولة ويمضى فى طريقه ، فيلقى القبض على الاعيان واكابر القوم

وعظمائهم ومصادر ممتلكاتهم وذلك في بلدان كان يستطيع فيها اقل صوت ان يرتفع بالاحتجاج ضد اعمال الابتزاز وجور الملتزمين وظلمهم • والملك البطلمي ،بعد ان خص يوسف هذا بالثناء ومنحه التقدير اللازم ،جعل من نفسه شريكا له • اما عظماء الاسكندرية الذين كانوا قد اقرضوه شيئا من المال ،وجدوا السبيل الي كسب الربح • ومانظن ان هذه الواقعة التي رواها المؤرخ اليهودي يوسيفوس في احد كتبه Antiquities XI1 , 180 - 185 ) غريبة عن الحقيقة او بعيدة عن الصواب .

وفي الحالات التي كان الملتزمون يؤلفون شركة فيما بينهم ، ( kai metochoi ) كان القانون يُلزِم دفع الانصبة المستحقة للملتزمين من الباطن ويجعل مثل هذا التصرف خاضعا لرقابة شديدة من الحكومة • وكان الشريك الاول وهو المسمى ( archones ) هو المسئول الاول والمفوض • ومع ذلك فالادارة الملكية كانت ملمة بكل شيئ عن اصحاب الانصبة ، اينما كانوا حسبما كا ن مركزهم في مشروعات الالتزام • وهكذا كان كل شيئ يهدف الي وضع رقابة شديدة وترتيب دقيق يكفل كبح جماح السلطان الفعلي لاولئك الملتزمين • ويظهر انه كان من الصعوبة بمكان ان يتحقق لهؤلاء الملتزمين ان ينزلوا الظلم بدافعي الضرائب وايقاع الجور بهم من غير ان يكون هناك تواطؤ من الموظفين المختصين • ولعل من بين الاسباب التي ساعدت علي وجود مساوئ لهذا النظام ، ان عين الادارة كانت غافلة ،وهذا عيب متوطن في مصر وقد كشفت الشكايات التي كانت تترى بين حين واخر ويتقدم بها دافعو الضرائب بين خوف ولاوجل عن وجود امثال هذ المساوئ • ولدينا في مجموعة البردي المنشورة في مدينة فلورنسة بايطاليا وعرفت باسم P.S.I. اختصار اسم الجمعية الايطالية التي تنشر مجموعة من البردي مثل رائس اشار علي ذلك في الوثيقة رقم ٢٨٣ وقسم اليها العالم الروسي " المتأمرك " رستوفتزف في كتابه المشهور (A large Estate in Egypt) ص ١٠١ وتاريخ تلك الوثيقة هو العام ٣٨ من حكم الملك البطلمي فيلادلفوس وموضوعها ان شخصا يدعي تيرون (Theron ) كان من زراع الكرم ومن منتجيه وقد وفي بالضريبة المستحقة عليه عن ذلك العام وقبلت

الخزانه المبلغ وجميع ما ارتفق به من بيانات موقعا عليها من الملتزمين الذين يسلموا هذه الوثيقه من الهدا ل او التاجر الذى اشترى هذه النبذ المستخرج من الكرم وجاء فى هذا البيان الموافق توضيح بالمستحق او المطلوب وقيمه المسلم عينا وثمه بالنقد • وانحصر الخلاف فى ان القيمه سددت خطأ بوساطه المدوبين عن الملتزم لا عن عام ٣٨ كما هو المطلوب وانما عن عام ٣٧ م ان تبرهن هذا كان لديه ما يثبت انه كان قد سدد المستحق بالكامل عن العام السابق • وهناك مثل اخر مشابه فى مجموعه بردى زينون المحفوظه بالمتحف المصرى والتى نشرها العالم اليونانى ادجار (              ) وهذه الوثيقه رقمها فى الكتالوج الخاص بالمتحف المصرى ٥٩٢٣٦ •

ونظام الالتزام فى مصر البطلميه باعتباره نظاما مجلوبا من الخارج ( من اثينا ) وليس اصيلا نابعا من اعماق البلاد وبوصفه مجردا من حريه المبادره وتوقفه موقفا سلبيا من حق الضمان • كان مصيره فيما يبدو • ان اخذ فى الذبول • وفضلا عن ذلك فلم تكن به تلك الخميره " الكفيله بان يحرز اى تقدم اقتصادى ولم يتوفر فيه العامل اللازم لضمان اى تطور سياسى • واذا ما قدر لاى من الملتزمين ان يحرز اى تقدم يتحقيق شئ من الكسب لنفسه او النفع والفائده لشركته فانه لم يكن فى الوقت نفسه بقادر على ان يجلب شيئا من السياده والقوه والجاه لنفسه • وبعد الشخصيه البارزه التى كان عليها من ابوللونيوس وزير الماليه فى عصر بطليموس فيلادلفوس وما كان ولعامله زينون من نفوذ مستمد منه فان بردى فيلادلفيا ( فى ارشيف زينون ) لا يزودنا باسم اخر لاحد كبار الماليين ممن خلفوهما فى هذه القريه المصريه وهى فيلادلفيا فى اقليم الفيوم وهى ملتقى اجناس بشريه من كل فج • وكما كان النقد اليونانى والمصارف اليونانيه مجلوبه من الخارج فان نظام الالتزام اليونانى المستحدث فى بلد كان النظام الملكى فيه شديد التركيز وحكومته البيروقراطيه قويه البأس ما لبث ان فقد اهميته بمضى الوقت واصبح يسير فى ركب الدوله ويخدم اغراضها • واستمر مرعيا فى مصر فى العصر الرومانى •

واذا صح انه كان لنظام الالتزام بعض التأثير على مستقبل المجتمع المصرى فان هذ الاثر كان على نحو غير ملحوظ وباسلوب غير مباشر . وكان من اولى متطلبات الالتزام وجود نظام دقيق للخدمات بصورة عاجلة ، يتوفر فيه نوع من الرقابة الدقيقة والاشراف التام ثم جهاز لإمساك الدفاتر والحسابات وعمل التسويات على اوسع نطاق وبصورة مضطردة واقتضت كل هذه الضمانات الاضافية وهذا الخوف المستمر وعدم الاطمئنان على وصول الايراد سواء اكان لهذا مايبرره ام لا ـ نقول اقتضى هذا كله تكاليف باهظة واضطر البطالمة ان يتكبدوا مصروفات كثيرة لتوفير كل هذه الضمانات ومع الشك باليقين بالحيلولة دون التردى فى ارتكاب اخطاء جسيمة من قبل الملتزمين او المتقضمين او الموظفين العمو

وفضلا عن ذلك ، فان نظام الالتزام فى حد ذاته كانت له نتائج ايجابية باهرة وشائقة ، اذ كان له الفضل كل الفضل فى اقامة كيان تشريعى متعمق للغاية . ففى مصر حيث كان الفرعون فيما مضى يرضى ويقنع بتخطيط ورسم قائمة بالضرائب الواجب تحصيلها من الاقسام الادارية المختلفة ، جاء الملك البطلمى فأظهر الحرص الشديد على تحديد وتصريف الالتزامات وتصنيف الحقوق الخاصة بالملك وبالموظفين والملتزمين والضامنين ودافعى الضرائب . واستطاع بذلك ان يساهم فى انشاء قانون مالى بالغ الدقة ، بما حرص المشرع عليه من التدوين والتسجيل لعبارات وفقرات وبنود واشتراطات فى عقود مركبة ، اجتمع فيها روح القانونين العام والخاص . فالالتزام لدى البطالمة كان اذاً ، بمثابة الوازع القوى والدافع لعجلة التشريع ثم انه كان بمثابة الخميرة التى بعثت الحياة فى الجسم البالى فأخذت تدب الروح فى السلطة التشريعية ، فهو على هذا النحو يعتبر النواة والاداة الكفيلة بتطوير قانون الالتزامات وبلوغه غاية الكمال ، اذ كانت الدولة فى كل عام تقوم بتصفح قوانين الالتزام وتدخل عليها من التحسينات والتصويبات ماتراه لازما وبذلك استطاعت ان تنشىء احكاما خاصة واساليب جديدة فى اجراءات التنفيذ وان تبتكر اشكالا وانواعا من الالتزام ، لم تكن معروفة او مقررة من قبل . ان قوانين الالتزا فى واقع الامر كانت بمثابة بواتق حقيقية ، انصهر فيها القانون وتشكل حتى اخذ صورة

الصافية وشكله الدقيق .

اما فيما يختص بوثيقة الدخل وماجاء بها من قوانين الايرادات والضرائب ، فيكفي ان نعرف انه تمخض عنها الشيء الكثير ، ومن هذا على سبيل المثال ذلك المنشور الدوري الذى اصدره وزير المالية الى العاملين من قبله فى الاقاليم ويلقب الواحد منهم بلقب ايكونوموس او المدير الاقتصادى وقد ورد نص هذا المنشور فى وثيقة بردية مشهورة فى مجموعة بردى " تبتونس رقم ٧٠٣ وهذا المنشور فى موضوعه هو عبارة عن تعليمات ادارية متداولة وارشادات مالية ونصائح غالية ، كان يسديها وزير المالية لموظفيه فى الاقاليم ليكونوا يقظين على الدوام ولكى يحسنوا معاملة الناس ويرفعوا عنهم ما امكن على الا يتركوا احدا يفلت من اداء ماعليه من التزامات مالية وضريبية . ويقوموا باحصاء الماشية والاغنام فى فصل الفيضان من كل عام ( شهر مسرى ) . وفى هذه التعليمات ذات طابع مصرى فى مادتها وروحها الانسانية وليس لها بحال من الاحوال طابع قانونى وانما تستشف منها ونلمح من ثناياها مبلغ ماقدمته المالية البطلمية عن طريق ماابتدعته من نظم وقواعد فى الالتزام وما ادخلته من تطور وتقدم فى صياغة القانون وتبويبه على ان هذا القدر الذى ساهم به نظام الالتزام كان له تأثير عظيم فى مجالات اخرى . وقد بين لنا كل من رستوفتزف فى مقاله عن تاريخ الالتزام والعالم الفرنسى م . كاركوبينو ( Carcopino ) فى مؤلفه عن قانون هيرون الثانى والرومان ، مبلغ مايدين به العالم الرومانى للقوانين الخاصة بالالتزام وهى التى اصدرها بطلميوس فيلادلفوس ويرجع الفضل فى انتقالها لهم الى هيرون الثانى الصقلى .

وخلاصة القول ان اولئك الذين يشوقهم هذا الموضوع ويروق لهم البحث فى اصول القوانين ومبلغ تطور النظم وتغيرها وتأثيرها بغيرها ، يجدون مادة خصبة فى نظام الالتزام والمصير الذى آل اليه فى المملكة البطلمية ، وقد اعتبر رجال القانون المهتمون بالتاريخ القديم فى ضوء ما اسفرت عنه دراسة اوراق البردى من امثال العالم الالمانى " مايــر " ( Meyer ) والعالم البولندى المتأمرك تاوبنشلج ( Taubenschlag ) والعالم الالمانى " وايدل " ( Weidl ) انه يمثل ظاهرة تسترعى شيئا كثيرا من الانتباه وفيه مادة شائقة للغاية .

## الزراعة ونظام الاراضى فى مصر البطلمية

كانت الزراعة هى الدعامة الاولى التى كان يرتكز عليها الاقتصاد البطلمى . وكانت البلاد محظوظة فى هذا المجال فالمناخ بديع وموارد المياة متوفرة فى السنين العادية وبخاصة اذا ماانظمت واحكم توزيعها فتصبح كفيلة بضمان محصول وفير . ثم ان تربة البلاد اشتهرت بخصوبتها الفائقة وصلاحيتها لعدد كبير من مختلف المحاصيل ومن ذلك الحبوب على مختلف انواعها والخضروات واشجار النخيل والسنط والاثل والصفصاف ومختلف الاعشاب وشتى النباتات التى تستخرج منها الزيوت من كتان وزيتون وسمسم وعصفر وخلافه اما اشجار الفاكهة والكروم والتوت فلدى مصر منها انواع كثيرة . وهكذا كانت مصر فى نظر بقية العالم القديم جنة تفيض بالثراء والخير الوفير ، وهى هبة النيل "ابى البركات " كما كان يطلق عليه قديما فأسبغ عليها وعلى شعبها خيراته فى كرم وسخاء كل عام .

وكان طبيعيا إن يعنى كل حاكم على مصر ، بل اول شئ ينبغى ان يعنى به - هو شئون الزراعة وتوزيع المياة وتنظيم ذلك فالزراعة فى مصر كان من اولى مستلزماتها العناية الشديدة بموارد المياه ووضع النظم الدقيقة للمحافظة على المياه بصفة عامة وضمان حسن توزيعها وبخاصة عقب الفيضان وانحسار المياه التى غمرت الاراضى على جانبى النيل وقت الفيضان . وتطلب هذا عينا ساهرة واشرافا بعيد المدى على مجرى النيل وقنواته وسدود ثم تنظيما دقيقا لايدي العاملة من اجل تشييد عدد من السدود وحفر شبكة من القنوات لتوصيل المياه الى المناطق البعيدة عن مجرى النيل الاصلى . وكان تنظيم العمل فى هذا المجال يتطلب احيانا اللجوء الى السخرة واكراه الناس ( leiturgia ) جثمانيا وماديا ومعنويا - فالشعب برمته ومعه دواب النقل يمكن ان يجرى حشده من اجل هذا الغرض، اذ ذاك فى فصول معينة من السنة . هذا بعض ماكان يحدث فى مصر الفرعونية وبقى الوضع على اشده وبمنتهى الدقة فى مصر البطلمية ، بل وفى مصر الرومانية ومما لاريب فيه ان البطالمة وبخاصة الملوك الثلاثة الاولين اخذوا النظام الفرعونى وطبقوه بحذافيره ثم زادوا عليه من حيث التنظيم والرقابة واستخدام الاساليب الهندسية التى

استحدثوها فى هذا المجال وفى غيره من المنشآت العامة ،فكانت التحسينات والتصويبات التي ادخلها اليونان كفيلة بتحسين احوال مصر زراعيا واقتصاديا بدرجة ملحوظة ،اشاد بها الكتاب اليونان المعاصرون اذ ذاك ومن جاءوا بعدهم فى العصر الرومانى . على اننا لانعرف على سبيل اليقين الى اى مدى ولافى اى اتجاه ساروا فى هذا السبيل ولا مدى تنكبوا عن السير فى خطى التقدم الزراعى . وكل مانعرفه انه فيما يختص بنظام الرى ورث البطالمة عن اسلافهم الفراعنة اسلوب المحافظة على مراعاة هذا النظام بدقة وانهم كانوا يلجأون فى تحقيق ذلك الى العمل الاجبارى الموسمى ، يفرضونه على الشعب برمته فى سبيل الصالح العام . ولكنهم كانوا اسوة بالفراعنة ،يمنحون بالطبع بعض الاعفاءات عن هذا العبء لبعض الافراد والطوائف ،فكانت طبقات معينة تتمتع بالامتياز الذى يخول لها ان تدفع مالا بدلا من اداء هذا العبء . وفى اغلب الظن ان مثل هذا الامتياز كان يسبغ فى العصر البطلمى على الوافدين من اليونان ومن على شاكلتهم اما بصفة جماعية او لطوائف معينة منهم وبقى نفس هذا الامتياز مرعيا بالنسبة للكهنة ورجال الدين .

<u>تسجيل الاراضى وانواعها :</u> ( geometria)

هناك شق ضرورى وتمهيدى يعتبر من المستلزمات الواجبة لاى عمل زراعى جاد ومثمر وقد ورث البطالمة هذا الشق عن اسلافهم الفراعنة — ذلك هو مسح الاراضى فى جميع انحاء مصر وتسجيلها بدقة وهذه العملية كانت تعرف بالاسم اليونانى الاتى geometria وكانت تتم بدقة وعناية فائقة كل عام . وسجلات الاراضى هذه كانت تتجمع لدى كتبة القرى فى العصر البطلمى وهم الذين كان يطلق عليهم ( Komogrammateis ) ولدى عمد هذه القرى وهم الذين كانوا يعرفون بالاسم الاتى ( Komarchae ) وكانت عملية المسح والتسجيل هذه تخضع لاشراف دقيق فيه تقصى للحقائق على اوسع نطاق وبشتى الوسائل وهذا التقصى هو مايكنى له فى مصر البطلمية والرومانية ( episkepsis ) يباشره كبار الموظفين من امثال الكتبة الملكيين ( basilikoi grammateis ) وكانت هذه السجلات فى تجدد مستمر ،ويتم هذا التجديد سنويا وتحظى هذه العملية

التسجيلية بعناية فائقة • وبالطبع كان الغرض من هذه الانواع المختلفة فى مراحل عمليات التسجيل والمسح الشامل هو الابقاء على سجل وافٍ بالارض الصالحة للزراعة والتعرف على معدن كل قطعة منها ـ وهذا امر يستوجب التدوين والتسجيل اولا بأول وهو عرضة للتغيير والتبديل من عام لآخر ويتطلب معرفة اولئك الاشخاص المسئولين فى كل عام عن الوفاء بمهمة الزراعة فى كل رقعة من ارض مصر ومهمة حصر اولئك الاشخاص يأتى فى المقام الاول بالنسبة للحكومة •فهذه الرقعة او تلك اما ان تكون منزرعة (esparmené) او غير منزرعة واما ان تكون قد غمرتها مياه الفيضان السنوية بشدة ( embrochos ) او تكون جدبة ( abrochos) او خربة ( chersos ) على حد قول اهل الصعيد فى الوقت الحاضر • والمعنى المستفاد من هذا كله ان رقعة ما من ارض مصر البطلمية قد تكون فى حالة صالحة تماما لزراعتها فتنبت نباتا حسنا وتوفى ماعليهـا من الالتزامات المستحقة للملك البطلمى ( to apégmenon ) واما ان تكون عرضة لان يجرى عليها تخفيض واستنزال فى الايجار او قد لاتخضع لاى ايجار عليها فى مصر البطلمية والرومانية ( Hypolgos ) • وهكذا كان يجرى تصنيف الاراضى بحسب حالتها ووضعها بالنسبة لمياه الفيضان وصلاحيتها للزراعة فى كل عام وهذه مهمة حيوية تمس ارزاق الناس وميزانية الحكومة السنوية •فلا عجب ان اولتها الحكومة البطلمية جل عنايتها وكانت هذه القوائم بما اشتملت عليه من نتائج مسح الاراضى فى زمام القرى المتناثرة • تبوب من وجهة النظر المالية بواسطة حكام المراكز والدساكر ( toparchoi ) ثم ترسل بدورها الى موظفين فى حواضر الاقسام الادارية يعرفون بالاسم الاتى النومارخيين ( nomarchai ) وهم المختصون بالاشراف على زراعة الارض الملكية • وكان هؤلاء بدورهم يقومون بارسال هذه التقارير المتعلقة بالاقسام برمتها الى الاسكندرية وبها دواوين عديدة للسجلات • فتتخذ هذه القوائم اساسا جوهريا فى اعداد قوائم الخراج السنوى وكشوف الضرائب المطلوبة •

# أنواع الاراضي

اذا ماتوفرت للارض وسائل الري وتم حصر الاراضي وتوجيهها بعناية فائقة فانهـــا كانت توكل الى القائمين بزراعتها من المصريين او اليونان الوافدين والمنتفعين مـــن جند وضباط مستوطنين وغيرهم من اصحاب الحظوة لدى الملك البطلمي وكبار رجـــال الدولة البطلمية . ومنذ اقدم العصور كانت هناك انواع شتى من النظم المرعية في حيازة الارض ولاقول تملكها ـ فهي اساسا كلها ملك للملك الفرعوني وبالتبعية لورثة الفراعنـة وهم ملوك البطالمة وهذه الحيازة او تملك الارض كانت تتوقف على مركز الاشخاص المسئولين عن زراعتها وعلاقتهم بالملك ومكانتهم في الجهاز الحكومي او الطبقي ومنزلتهم في السلم الاجتماعي والكهنوتي في مصر البطلمية . ويجب ان نعترف بادئ ذي بدء انه ليست لدينا معلومات دقيقة ووثيقة عن الاشتراطات المرعية في هذه الحيازة في العصـــر السابق على عصر البطالمة ، بل ان معلوماتنا عن عصر البطالمة نفسه ليست وافية اوكاملة بصورة تدعو الى ان تكون على يقين تام بما نقول . وهنا يجب ان نذكر ان روما كـــان لها الفضل في اضطلاعها بحسنة قامت بها على الوجه الاكمل وهو انشاء نظم ومصطلحات دقيقة في نطاق القانون العام والخاص . وفي هذا الميدان تخلفت بلاد اليونان عن روما كثيرا ، بل كانت مصر البطلمية اقل دقة مما يظن . ويبدو انه في عصر متوسط مـــن عصور البطالمة ، كان هناك على الاقل نوعان اساسيان من الارض ، يتميز أحدهما عـن الآخر وهما (١) الارض الملكية وتعرف بالاسم اليوناني الاتي ge basilike (نسبة الى الملك بالطبع) وهي تشمل الاراضي التي كان للملك اشراف مباشر عليهـا ويفلحها فلاحون كان يطلق عليهم " الفلاحون الملكيون "/(٢) ثم الارض المتخلى عنها او المتروكة وتسمى (ge en aphesei) منحتها الحكومة اواسبغتها وسلمتها لاشخاص اخرين بعد الافراز والتخلي عنها وبذلك انتقلت من الاشراف المباشر للملك اوالمندوبين التابعين له الى الغير وهناك نوع ثالث ثانوي يمكن ان يؤلف في مجموعه ماكان يعـــرف بالاسم الاتي : الارض الواقعة في نطاق المدن الحرة وهي ge politike وكانت مخصصة للاراضي الواقعة في زمام المدن اليونانية بمصر وهي الاسكندرية وبطلمية

( المنشأة فى محافظة سوهاج بالصعيد ) ثم نقراطيس ( كوم جعيف ونقراس فونيه ره مركز ايتاى البارود محافظة البحيرة ) ولدينا معلومات طفيفة عن المركز القانونى لهذه الارض فى صدر العصر البطلمى ، وبحسب ماقضت به الافكار اليونانية التقليدية فى نظم المدن اليونانية عموما ، كانت الارض الواقعة فى كنف هذه المدن هى بمثابة الملكية الخاصة لهذه المدن من حيث تبعيتها للمواطنين الاحرار بتلك المدن فكانت اذا بمثابة جزر أو مقاطعات يونانية حرة ، تكتنفها الاراضى الملكية من كل جانب وعلى اننا نستطيع ان نتصور ان هذه المقاطعات اليونانية الحرة كانت بمثابة اقسام تشعبت وتفرعت عن الاراضى المتروكة او المتخلي عنها ، سماحا من الملك وهى التى سبق ان نوهنا عنها وادرجناها تحت الاسم الاتى ( ge en aphesei ) .

ومن العسير ان نسوق هنا اى فكرة ولو بصورة تقريبية ، عن المقدار الذى وصل اليه كل نوع من هذه الاراضى وبخاصة النوع الاول الذى استأثر به الملك واحتفظ به بصورة مباشرة ولربما كان هذا يصل الى اكثر من نصف ارض مصر ، والسبب فى تعثرنا فى الوصول الى معرفة دقيقة ان المعلومات التى فى متناولنا اغلبها يتعلق بالاحوال السائدة فى اقليم الفيوم حيث كانت المساحات الشاسعة عن الاراضى الجديدة المستصلحة وهى بالطبع اراضى ملكية ، تمثل العنصر الغالب ولا يمكن القياس على ذلك فى دلتا النيل ولا فى باقى اراضى الصعيد ، فالظروف متباينة ، ومن خطل الرأى ان نستنبط حقائق من معلومات ووثائق متناثرة واقصى مايمكن ان تقوله فى هذا الشأن ان الموقف بالنسبة للارض فى باقى محافظات مصر كان مختلفا ، ولا سبيل الى الوصول الى كنه الحقيقة فأصبحنا نسبح فى الخيال ونعمد الى التخمين فى تقدير نسب هذه الاراضى وتبعيتها لمختلف السلطات والهيئات .

ويمكن تقسيم الاراضى التى تخلى الملك عنها وسمح لغيره بالاشراف عليها الى مايلى

( ١ ) اراضى كانت فى حيازة المعابد وعليها عماد الدخل المقدس ويكنى لها بأحد الاسماء الاتية :

ge hiera , heira prosodos, ge anieromena

(٢) اراضي خصصت أو رصدت لتكون عونا ومصدر رزق لمختلف موظفي الدولة ، فتخفف اعباء الحكومة ولاتتكفل بدفع رواتب لهم ويعرف هذا النوع من الارض بالاسم الاتي ( ge en syntaxei ) ويدخل ضمن المنتفعين والمستفيدين من يأتي على رأسهم ، طبقة الجند من مشاة وفرسان ، ضباطا وجنودا على مختلف رتبهم العسكرية وتعرف الاراضي التي كانت في حوزة الجند بالاسم الاتي ge klerouchike فأصبح لدينا صاحب الخمس ارورات او الافدنة المصرية ويسمى pentarouros وصاحب الخمسة والعشرين eikosipentarouros وصاحب السبعين والثمانين والتسعين والمائة hekatontarouros والمائة والعشرين وهكذا .

ويدخل في هذا الاطار نفر من الموظفين المدنيين على اختلاف مراتبهم ، وهناك شئ آخر قائم بذاته مثل اراضي الهبات او الاقطاعات التي أسبغها الملك على سبيل الهبة او المنحة وتعرف بالاسم الاتي ge en doreai وتصل احيانا الى الآف الارورات وكان من اشهرها تلك الضيعة الكبرى التي اسبغها بطلميوس الثاني الملقب فيلادلفوس على كبير وزرائه ووزير ماليته المسمى ابولليونيوس ( Apollonios ) وكانت تبلغ عشرة آلاف من الارورات في الاقليم الاسينويثي او الفيوم ومركز هذه الضيعة قرية مشهورة تسمى فيلادلفيا متعاصرة مع الاسكندرية اذ بنيت في نفس الحقبة وخططت على نسق الاسكندرية وكانت قبلة الانظار ومركزا مهما للتجارب الزراعية وتنسيق الخبرات اليونانية وملتقى الحضارة اليونانية والمصرية ومركز عبادات يونانية ومصرية عديدة . وهكذا كان الملك يمنح كبار الموظفين المدنيين والعسكريين المنضوين في خدمته تلك المساحات الشاسعة مكافأة لهم على اخلاصهم فكان هؤلاء يتفانون في اصلاح تلك الاراضي واستجلاب الخبرات اليونانية والايدي العاملة ذات الخبرة المصرية من الاقاليم المجاورة . ويأتي في آخر المطاف نوع من الاراضي كان بمثابة الملكية الخاصة ويسمى ge idioktetos او ktemata (١) اي المقتنيات والاملاك الخاصة .

---

(١) ktema مفرد ktemata ، وهي تمثل الحديقة او الكرم .

ويدخل في هذا النطاق اراضى الفاكهة والبساتين نظرا لانها تتطلب جهدا وفترات طويلة حتى تونى ثمارها . على ان هذه المصطلحات ليست من الدقة بحيث تكون قاطعة في تحديد المعنى وقصره على نطاق معين دون غيره فكثيرا ماتداخلت الاقسام بعضها في بعض ومن ذلك مثلا ان الاصطلاح العام الدال على الاراضى المتخلى عنها وهى ( ge en aphesei ) كان يرد في الوثائق البردية التى في متناولنا تارة معبرا عن اراضى المعابد ( ge heira ) واخرى للتعبير عن الاراضى الموهوبة كمكافأة للموظفين على مختلف مراتبهم (ge en syntexei ) وكذلك للتعبير عن اراضى الهبات وهكذا كانت بعض هذه المصطلحات تعبر عن معنى شامل في بعض الاحيان وتتضمن معانى اخرى ضيقة في احيان اخرى ولذا كان التعويل عليه كلية فيه شيء من التضليل او اللبس .

على ان المعلومات التى وصلت الينا عن مختلف هذه الانواع ليست متسقة ولا متساوية في حصيلتها ومقدارها ومن ذلك فالنظام المطبق في استغلال الارض الملكية معروف تماما في شكله العام . ولدينا بعض المعلومات عن الاراضى التى كانت في حوزة الجنود . نلتقطها من شكاياتهم ومن الاوامر الملكية التى كانت تعكس احيانا بعض تصرفات هؤلاء الجند في اقطاعاتهم العسكرية وفي ثكناتهم والمحلات التى كان الملك ينزلهم فيها وهى المعروفة باسم ( Stathmoi ) اما عن اراضى الهبات ففى ارشيف زينون وكيل ابوللنيوس في ضيعته المشهورة بفيلادلفيا من الرسائل والمعاملات مايكشف عن الكثير من المعلومات المستفيضة عن الوان من الحياة والجهود المحمومة التى بذلت في سبيل النهوض بمرفق الزراعة واصلاح الاراضى بصفة خاصة . اما معلوماتنا عن اراضى المعابد والاراضى الخاصة فهى محدودة ولاتعدو لمحات من هنا وهناك لاتؤلف في مجموعها سوى صورة مبتورة . وهناك امر واحد جلى : ذلك هو ان الملك البطلمى كان يعتبر نفسه المالك الحقيقى لجميع ارض مصر . وماتملك فئة من الفئات لنصيب من هذه الاراضى او الانتفاع بها واستغلالها على اى نحو . سوى وضع لايكسب

صاحبه بأي حال من الاحوال حقا مسيطا عليه وانما هو منحة ... عليه الملك وله ان يستردها في اي وقت يشاء .

الاراضي الملكيـــــة :

كان يفلح هذه الاراضي اناس عرفوا باسم شامل هم الفلاحون الملكيون ( george Basilikoi) - وهذا وضع كان كذلك من تراث الماضي - والغالبية العظمى من هؤلاء الفلاحين الملكيين كانت منتشرة وتعيش في كنفها في ريف البلاد ( Chora ) بطوبها آلاف القرى والدساكر وكان تسجيل اسماء هؤلاء الفلاحين على هذا النحو في قرية او بلدة متواضعة يعتبر هو الموطن او المقر الخاص ويكنى كل واحد منهم وهو مايكنى له عادة في الوثائق بكلمة ( idia ) وكان المفروض ان كل واحد من هؤلاء ينبغى ان يبقى ملتصقا بمقره او بموطنه الاصلي ومسجلا باسمه ولكنه ليس ملزما الا يغادره بصفة مستديمة فقد سمعنا بين حين وآخر ان كثيرين منهم اعتبروا غرباء ( Xenoi ) لان موطنهم كان في قرية اخرى غير التي وجدوا فيها وانهم كانوا يسكنون قرية ليست لهم وشاع ذلك التصرف والتنقل الى حد ان محصلين وجباة اختصوا بتعقب هؤلاء بقصد جمع المتأخرات عليهم وملاحقتهم في كل مكان وكان هؤلاء يسمون praktores Xenikôn تمييزا لهم عن زملائهم المختصين بجباية الضرائب من اولئك الذين بقوا في مقارهـــــم والتزموا بالبقاء في قراهم . وقد اتحفتنا الاستاذة البلجيكية كليربريــــــــــو ( Claire Préaux ) بمقال منشور في مجلة Chronique d'Egypte العدد ٥٩ لسنة ١٩٥٥ عنوانه " Sur les fonctions du praktor Xenikôn "

صفحات ١٠٧ - ١١١ عرضت فيه لتتعرف على ماهية هؤلاء الجباة المختصين بالغرباء وتتبعت وجهات النظر في هذا الشأن وربطت هؤلاء بسكان المدينة وتعريف الغريب بأنه هو ماليس بالمواطن في مدينة حرة اي ليس politikos XEnikos ولسنا على علم بما اذا كان يتعين الحصول على اذن خاص بانتقال هؤلاء الفلاحين

الملكيين من قرية لاخرى • وهؤلاء الفلاحون الملكيون كانوا من أحرار الرجال وليسوا اقنانا او عبيدا ويستدل على ذلك من عدة حقائق منها انه كان مخولا لهم حرية الحركة على النحو الذى نوهنا عنه آنفا ويمكن الاستدلال كذلك على مركزهم من العلاقات التى كانت تربط بينهم وبين اصحاب ضياع الهبات والاراضى التى كانت فى حوزة الجند فالهبات التى كان الملك يمنحها للعظماء وذوى الحظوة لديه لم تكن بحال ما تشتمل على قرية او اكثر بما فى ذلك اراضيها وسكانها وانما كانت تشتمل على قدر من الارورات وهى رقعة تناوئ ستة آلاف من الافدنة المصرية • وفى الحالات القليلة التى وصلت الى علمنا كانت هذه الارض تفلح لا بواسطة اولئك الذين كانوا يملكونها بالوراثة وانما بواسطة مزارعين من مختلف البيئات والاجناس وبخاصة اولئك الذين استأجروا انصبة منها من صاحبها لفترة قصيرة موقوتة • ويصدق مثل هذا القول على اصحاب الانصبة الصغيرة من الاراضى الممنوحة للكثير من امثال اولئك الجند الحائزين لرقع متفاوتة منها وهم الذين اطلق عليهم اسم ( Cleruchs ) فأصبحوا يمثلون بذلك طبقة لها كيانها وشخصيتها تضرب فى الارض مختالة وتعيث فسادا فى علاقاتها بالسكان المصريين الذين حلوا عليهم فى منازلهم ولكنهم آثروا فى كثير من الاحيان استعمال القوة الغشومة فكانوا ( apobiasamenoi ) اى الطاردين بالقوة الغشومة للسكان من منازلهم كيما يحلوا محلهم • وامثال هؤلاء المستأجرين كانوا جميعا ينتمون لطبقة عرفت بالفلاحين الملكيين • ومع ان هذه الطبقة كانت تشمل اناسا قاموا بفلاحة هذه الارض الملكية على مدى احيان طويلة ، فان اسم الفلاح الملكى كان يسبغ جوازا على كل من كان يفلح الارض الملكية بصورة او باخرى ، باعتبارهم فى آخر المطاف مستأجرين من الملك وأخيرا كانت العلاقات بين الملك والفلاحين الملكيين تقوم على عقود مدونة كالمعتاد ولا على التقليد والعرف • وفى صدر العصر البطلمى كانت اغلب العقود لآجال قصيرة • و انه ليست لدينا معلومات مباشرة فى هذا الشأن فيما يتصل بالارض الملكية التى كانت تخضع لاشراف ملكى مباشر ، فان هذا الاجراء كان مقررا ومرعيا بالنسبة لاراضى الهبات

ولأنصبة الاراضي الخاصة بالجند • ولدينا حالة مشهورة ترد ذكرها في الوثائق البردية المنشورة وغير المنشورة • وعرض لها العلماء من امثال " رستفنزف " و "كليربرو " بالتعليق والتفسير وهي تتعلق بعدد من الفلاحين المحليين من اقليم فيلوبوليس ليفلحوا ويصلحوا ضيعة ابوللونيوس بالفيوم وتعاقدوا بالفعل على ان يفلحو ويصلحوا الفا من هذه الارورات في هذه الضيعة البالغة في مجموعها عشرة آلاف من الارورات ولكنهم لم يوفقوا في عملهم واخذ المشرف وهو المسمى ( Damis ) يضايقهم ويحتقرهم ويضيق الخناق عليهم بالقبض على شيوخهم حتى وقعوا على تنازل عن عقد كانوا قد ابرموه بالفعل واشاروا الى سوء حالتهم في شكاياتهم الثلاثة واحدة منها لوزير المالية ابوللنيوس صاحب الضيعة والاخرى للمدير الاقتصادي المقيم وهو ( Zoilos، ) والثالثة يطلبون فيها تحديد موعد للقاء وزير المالية وشرح تلك الاخطاء الجسيمة التي لاحظوها في العمل ونوهوا بعدم وجود اخصائي يفهم في العمل او له دراية بما ينبغي عمله ونحن نستدل من هذا التنازل عن عقد كان مبرما ومن الاشارة الى هذا التنازل graphe apostasiou على ان النظام المرعي في اصلاح الاراضي وزراعتها اقتضى عمل عقود من العاملين في هذا القطاع ونحن نذكر هنا ارقام الوثائق

P.London 2090 ; = P.Zenm by Skeat Nos .1954,19555
P. London 2094 ( = Sammelbuch 7986) + P.S.I.502

ثم كتاب رستفتزف عن الضيعة الكبرى ص ٧٣ ــ ٧٥ وكتاب " كليربرو " عن "اليونان في مصر " ص • ٥ ــ ٥١ •

ولا ينبغي ان يخرج عن بالنا ان عقود الايجار في اواخر القرن الثاني كانت في اغلب الظن لا آجال طويلة وفي بعض الاحيان لا يرد فيها اي ذكر لفترات محددة على الاطلاق وانما كانت الارض تجري زراعتها في الظروف العادية بلا تأخير الى ان يتراءى للحكومة ان تحلل من تأجيرها لمستأجر جديد ( diamisthosis ) • ثم تمضي في تنفيذه • وليس لدينا من سبب الى التأكيد بأن صورا معينة من التعاقد كانت

مألوفة او غير مألوفة فى صدر العصر البطلمى وانما الذى شاهدناه هو مجرد اشارات الى انواع من التعاقد وتنازلات عن مثل هذه العقود سواء اكانت عقودا ايجارية لفلاحة الارض او لاصلاحها وتهيئتها للزراعة. والغالب على الظن ان هذه العقود استحدثت فى عصر متأخر تحت ضغط الظروف والاحوال • ويبدو انها كانت تمثل اجراءا قديما ربما كان مطبقا منذ اقدم العصور ثم صاحب ذلك اجراء عمد اليه البطالمة الاولون وهو ابتداع عقود لايجار قصيرة سايرت الاجراء القديم ولازمته •

قيمة ايجار الارض :

كانت رقبة الاراضى الملكية هذه يفلحها كما قلنا الفلاحون الملكيون ويدفعون عنها ايجارا سنويا للملك ويعرف هذا الايجار بالاسم اليونانى ( ekphorion ). • وقد يجول بخاطر الانسان ان هذا الايجار الذى يدفعه الفلاحون ، كان فى العصور السابقة على عصر البطالمة هو نصيب معلوم يقدر بعشرين فى المائة من المحصول اى الخمس ( pars quota = pempó ) (١) ولو ان هذا التقدير ليس على سبيل اليقين ومع ذلك ففى العصر البطلمى كانت هذه النسبة غير ثابتة بين قدر متناسب مع المحصول اى انها كانت تمثل pars quanta وليس قدرا ثابتا هو pars quota كما كان فى العصور السابقة على عهد البطالمة فالقدر المطلوب من المحصول يكون جزيا للحكومة وللملك بمكس الكمية الثابتة • ويتحكم فى هذه القاعدة عدة اعتبارات ويخضع لعدة تغييرات طبقا للحالة الراهنة لكل قطعة من الارض عقب الفيضان السنوى من حيث ان مياه الفيضان قد غمرتها او لم تصل اليها وفضلا عن ذلك فالحكومة تشارك فى الخير والمحصول الوفير اذا عم وتتحمل وزر مايحدث اذا ما اصيبت البلاد بقحط او ندرة فى المحصول • فهى فى الخير والشر لها نصيب • وبالاضافة الى الايجار المستحق ، كان الفلاح يدفع عددا لا يحصى من الضرائب المختلفة وقائمة الضرائب المفروضة عليه ، مع انها غير كاملة ، رهيبة للغاية فعدد الارادب artabae من الحبوب المقرر دفعها كايجار عينى عن كل ارورا او فدان يونانى ثم مايضاف الى ذلك من مقادير الحبوب التى تدفع سدادا لمختلف الضرائب الاخرى ، كثيرا ماترد اشارات اليها فيما لدينا من وثائق ولكن عندما نريد التعرف

---

(١) جاءت اشارة الى ذلك فى العهد القديم ( التوراة ) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ( الاسطر ٢٣ — ٢٦ ) " فقال يوسف للشعب انى قد اشتريتكم اليوم وارضكم لفرعون هوذا لكم بذار فتزرعون الارض • ويكون عند الغلة انكم تعطون خمسا لفرعون والاربعة الاجزاء تكون لكم بذارا للحقل وطعاما لكم ولمن فى بيوتكم وطعاما لاولادكم • • • " فجعلها يوسف فرضا على ارض مصر الى هذا اليوم لفرعون الخمس • الا ان ارض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون " •

على المقدار بالضبط وتقدير ماكان يدفعه الفلاحون الملكيون للملك مما توفر لهم من محصول ، تدخل في متاهات من الحدس والتخمين ، ومما لاريب فيه ان هذه النسبة لم تكن تقل عن النصف بل ربما كانت تزيد على النصف ، والفلاح الملكي كان بمقتضى عقد الايجار المبرم معه ملزما بالقيام بفلاحة الارض المعطاة له وكان عليه على ان يبقى في القرية في اثناء الفصل الزراعي الى ان يوفي ماعليه من التزامات للملك ، وهذا الالتزام كان امرا مسلما به ولاجدال فيه وعندما كان الفلاح يتسلم بذور القمح من الملك او احد موظفيه كان يعترف صراحة بهذا الالتزام ويقسم عليه قسما ملكيا وفي خلال الفصل الزراعي كانت عين الحكومة ترقبه بواسطة عدد من الموظفين من خفر وحراس ( phylakes ) ورئيس للقرية ( komarches ) وكاتبها ( komogrammateus ) ويخص بالذكر من كل هؤلاء الموظفين الحكوميين المديرين طائفة من المندوبين الاقتصاديين عرفوا بالاسم الاتي ( oikonomoi ) والواحد منهم هو ( oikonomos ) وهم المثلون لوزير المالية او ( dioiketes ) ، كل في محافظته او قسمه الاقليمي يباشر عمله اما شخصيا او بواسطة مندوبين ومراقبين منبثين في ارجاء البلاد ولهذا المدير الاقتصادي اهمية فائقة فهو بمثابة دولاب الاعمال و " دينامو" الحركة في اقليمه ، واختصاصاته متنوعة واعماله تتسم بالدقة التامة ومجالات نشاطه كثيرة ، نستأهل منا ان نفرد له دراسة خاصة ونخصه بشيء من العناية لتحديد عمله وتبين اختصاصاته في الزراعة والصناعة والضرائب وتسوية الحسابات شهريا وسنويا مع الملتزمين المتعاقدين على جباية الضرائب على مختلف انواعها ، وكانت البذور اللازمة للزراعة مختلف الحبوب وبخاصة النباتات الزيتية كان يتسلمها اولئك الفلاحون من الملك ، ومن اولى الاغراض التي كانت تهدف اليها الحكومة من وراء هذه القروض الاجبارية هو الضمان الاكيد بأن رقع الاراضي المؤجرة للفلاحين يتم زراعتها بأفضل البذور وفي المواعيد المقررة لزراعة كل نبات ، بصرف النظر عن الظروف الخاصة التي تحيط بالفلاحين فضلا عن الضمان بأن تلك البذور المقدمة هي من نوع جيد وكان من واجب المدير الاقتصادي ان يحول دون استخدام تلك البذور في اغراض اخرى غير المخصصة لها ، ولدينا في وثيقة بردية مشهورة نشرت في مجموعة

بردى تبتوس ( قرية ام البرجات بجنوب الفيوم ) رقم ٧٠٢ سلسلة من النصائح التى كان وزير المالية البطلمية يزود بها المديرين الاقتصاديين ويحثهم على عدم التواكل فى عملهم وضرورة السهر والاشراف الدقيق على رعاية مصالح الفلاحين والتسرية عنهم اذا يألم بهم كرب وازالة اسباب شكاياتهم ورفع معنوياتهم ثم حتم عليهم المرور على الارض للاطمئنان على أن عملية بذر البذور قد تمت على الوجه الاكمل وان الارض قد انبتت نباتا حسنا وتم ترقيع الاجزاء التى ماتت بذورها فلم تنبت.

الدورة الزراعيـــــــة :

ولم يكن الفلاح المصرى او اليونانى حرا فى ان يفلح الارض بحسب هواه وانما كانت هناك دورة زراعية سنوية نابعة من اعماق الريف ثم تقرها الحكومة المركزية وتسهر على تنفيذها وتصدر التعليمات الخاصة بتنظيمها بناءا على اقتصاد ملكى موجه فالاقتصاد البطلمى يخضع لقواعد تضعها الدولة économie dirigée على حد قول العالمة البلجيكية الاستاذة كليريرو فى كتابها المشهور عن اقتصاد اللاجيديين او البطالمة وهو الكتاب الذى نشرته عام ١٩٣٩ واصبحت نظرية الاقتصاد الموجه هى القاعدة المسلم بها استنادا الى ماجاء فى القوانين الضريبية (nomoi Telonikoi) التى اصدرها بطليموس فيلادلفوس عام ٢٥٩ — ٢٥٨ ق.م. فجاءت حاوية لمعلومات واحكام خاصة بالزراعة والبذور والتصرف فى المحاصيل وجنيها ودفع المستحقات من الضرائب عليها بواسطة رهط من الموظفين يأتى على رأسهم الملتزمون والجباة تحت اشراف اولئك المديرين الاقتصاديين ( oikonomoi ) وعلى ذلك كان كل مدير اقتصادى يراعى بمنتهى الدقة هذه الدورة الزراعية Hé diagraphé tou sporou وعليه الزام الناس بتنفيذها والعمل بمقتضاها . ولتحقيق ذلك وللتأكد من ان الارض قد افلحت على الوجه الاكمل تعين على هذا الموظف الكبير ان يقوم بجولة تفتيشية يتجول فيها فى انحاء قسمه الادارى وقت ان تكون الارض لاتزال فى دور الانبات ليدرك اى اخطاء تكون قد وقعت ويأمر بالترقيع ان لزم الامر ويصلح ذات البين ان وقع خلاف ويسرى عن المكروبين ويرفع من معنويات الناس . وهذه لمسة اجتماعية لاينبغى ان يفوتنا التنويه بها كحسنة

من حسنات النظم البطلمي والروح الانسانية ( philanthropa ) التي اتسم بها .

وعند فصل الحصاد كانت توضع رقابة شديدة على الفلاح الذي كان يكلف بجني المحاصيل بوسائله الخاصة ويقوم بحصد القمح ثم ينقله الى الاجران ودرسه بالنورج والمدراة وهذه ادوات عرفها الفلاح المصري في عصر البطالمة واستخدمها كما استخدم الطنبور الذي كان اختراعا يونانيا تطبيقا لقاعدة " ارشميديس " - كان كل هذا يجري تحت رقابة الاجهزة الادارية واشرافها وحراسة خفراء معينين خصيصا لهذا الغرض لرقابة المحاصيل وهؤلاء الحراس كانوا يسمون ( genémato phylakes وكانت الحبوب في الجرن بعد حصدها تقسم بين الملك والفلاح بنسبة ما اما pars quanta او pars quata حسب الاتفاق المبرم مسبقا ثم ان القدر الفائض او المتبقي كان يسمى بالفائض ( epigenema ) بعد ان يتم الوفاء بجميع الالتزامات التي كان على الفلاح ان يوفيها للملك ، ثم يتم الافراج عنه فيحصل الفلاح على اذن بالافراج ( aphesis ) فيسمح له بنقل هذا الجزء الى مسكنه او الى المقر الذي يقيم فيه . اما عن القمح والحبوب الخاصة بالدولة من فول وشعير وعدس وسمسم وكتان وخلافه ، فكان ينقل على حساب الفلاح الى المستودعات الملكية والشون ( Thesauroi ) وهي منتشرة في طول البلاد وعرضها في اعماق الريف في القرية وفي الحواضر وفي المواقع الاستراتيجية ويجري تسليمها في هذه الشون الى رؤساء هذه الشون وهم الذين كانوا يسمون امناء الشون ( sitologoi ) ولهم شركاء ( metochoi ) وهم جزية الغلال الذين يتسلمون المحصول ويعطون ايصالات عما يتسلمونه ويجري التحفظ على الغلال في اكوام هائلة وذلك بوضع اختام عليها من الجوانب ، يقوم بذلك بموظفين [illegible] ( sphragistae ) متخصصون لذلك العمل حتى لا يعبث بها احد بعد ختمها على هذا النحو البدائي وهي طريقة مألوفة في الشرق لحفظ الغلال من عبث العابثين بها الى ان يتم تشوينها

ونقلها فى سفن ، ذلك ان الغلال كانت تنقل من الشون المحليه اما بحرا فى النيل وقنواته العديده او برا على ظهور الجمال والحمير ودواب النقل الاخرى الى الشون الكبرى الرئيسيه ومنها توسق فى سفن نيليه ضخمه لها ربابنه يتسلمون عينات من المحاصيل التى تمثلها ويسلمها ويذكر فى الايصالات انها غلال منقاة نظيفه خاليه من كذا وكذا فيسلمها بدوره حسب المواصفات عند الوصول الى الاسكندريه ، اما عن الاجراء الذى كان متبعا فى تحصيل القمح فكان منصوصا عليه فى امر ملكى خاص بذلك ،

اما عن المحاصيل الاخرى بخلاف الحبوب فكان يطلق عليها دارف ماشاه لتلك ومن هذه المحا القنب او الكتان ثم العشب او الكلأ الذى يستخدم لاطعام الماشيه فكانت تخضع لعقود خاصه يسمى لفصل زراعى واحد كمحصول ثانوى دورى ،

الارض المخصصه للمعابد :

كان شق كبير من ارض مصر مما هو صالح للزراعه او القابل للاستصلاح ينتمى فى العصر السابق لعصر البطالمه الى المعابد وكانت هذه الارض تعتبر كأنها ضيعه خاصه باحد الالهه مرصد دخلها وايرادها على الاله اوالالهه من الالهات العديده فى مصر ، ومصر كانت تحظى فى عصر البطالمه بطغمه من الالهه المصريه والالهه اليونانيه تداخلت بعضها فى بعض بطريق التصرف والمقابله والتماثل ، والاراضى الموجوده على كل هذه الالهه كان يقوم بفلاحتها عبيد هذا الاله او ذاك وهؤلاء كان يطلق عليهم فى الاصطلاح اليونانى العبيد المقدسون على ان بعض هذه الاراضى كان فى حوزه الكهنه انتقل اليهم بطريق التوارث فكان من حقهم بيعه وتأجيره او رهنه كما لو كان ملكا خاصا لهم ، اما الانصبه من الاراضى التى كان يفلحها عبيد الالهه فكانت كذلك مخصصه لهم لعدد غير محدوده ومن حق مستأجرها التصرف فيها حسب هواه وهنا يجب ان نضيف ان جميع سكان المعبد كانوا عبيد للالهه بصرف .

النظر عن مهنتهم ، بل ان الكهنة الذين كانوا يشغلون مراتب دنيا مثل رعاة الاوز ( Chenoboskoi ) وحراس الحيوانات المقدسة والقائمين بأعمالها كان يطلق على كل هؤلاء العبيد المقدسين ( heirodouloi ) .

وهذا النظام الذي امتد حتى الى هيكله العام وصل الى علمنا شذرات عنه بطريقة مبتورة من وثائق متناثرة من العصر الهللينستي وبخاصة في العصر الاخير من هذه الحقبة ومن الوثائق الديموطيقية ، وربما كان هذا ثمرة تطورهم في هذا العصر الهلليستي وربما كان هذا الوضع قد ورثه البطالمة عن الماضي فحرصوا عليه ولم يغيروا شيئا كثيرا في معالمه الاساسية . وانا لنعرف كيف ان البطالمة كانوا حريصين كل الحرص على عدم المساس بتغيير اي شيء في الصلوات والعبادات والنظم المرعية في المعابد فأبقوا عليها كما توارثوها من اقدم العصور ايثارا منهم لعدم اغضاب الكهنة المصريين وهم الذين كانوا يمثلون المعاقل الوطنية ومراكز المقاومة . والبطالمة كانوا بالتأكيد حريصين على عدم تحويل املاك المعابد او ايراداتها الى الاغراض العلمانية ( فيما عدا مايقال عن الانتفاع بايرادات ضريبة الابومويرا المخصصة لعبادة أرسينوى الثانية التى رفعت الى مرتبة الالهات وكان هذا لاغراض علمانية والصرف منها على نفسها ) وعلى اى حال فلم يصل الى سمعنا شيء عن اى مصادرات على نطاق واسع او عن تحويل شيء من الاراضي المرصودة على المعابد الى قطاع الاراضي الملكية كما يلتهمها الملك بل على العكس حدث ان اسبغت على المعابد انواع كثيرة من المنح والعطايا والحقوق مثل حق الجيرة والايواء الذى توسع فى منحه ملوك البطالمة الاخيرون مثل بطلميوس العاشر الملقب بالاسكندر وكليوباترة برنيقى الثالثة ( ١٠٧ - ٩٦ ق.م . ) وبطلميوس اوليتيس والد كليوباترة السابعة وكليوباترة السابعة نفسها .

ومن ذلك فقد حدثت بعض التغييرات والتطورات فى العلاقة بين الملكية البطلمية وبين المعابد وقد وصل الى علمنا بعض هذه التغييرات وكان من اولاها مايتعلق

المصطلحات ففي التسمية التى اطلقت على ارض المعابد وهى ( gé Heira ) تطابق مع التسمية التى اطلقت على الارض الملكية وهى gé basilike . وظهور التسميتين في الوثائق الخاصة بالعصر البطلمى مقترنة احداهما بالاخرى دليل ايضا دليل على التعاصر والتشابه والتماثل في المعاملة وفي مصدر الصياغة وهو واحد بالطبع . وانه لمن البدهى انه فى العصر البطلمى كانت الارض الموقوفة على المعابد وكذلك الايراد والدخل المتحصل من هذه الاراضى الشاسعة ، يؤلفان احد الموارد الهامة فى بنود الاقتصاد الملكي ويمثلان شقا فى ميزانية البيت الملكى . وعلى ذلك فهناك ارتباط وثيق بين الملك والمعابد - كل هذا نستشفه من تلك المصطلحات والتشابه في التسمية . وربما كان هذا الارتباط من صنع البطالمة الذين كانوا اول من ابتدعوه وربما لم يكن له وجود فى العصور السابقة على عصر البطالمة . وقد يجول بالخاطر ان البطالمة كانوا اول من قضي على الاستقلال الاقتصادى الذى كانت تتمتع به المعابد في اغلب الظن فى العهد الفرعونى المتأخر . ولكن يحتمل كذلك ان البطالمة وجدوا المعابد وقد سلبت من قبل استقلالها على يد الفرس وكان بعض ملوك الفرس وهم دارا الاكبر وقمبيز قد اتخذ بعض الاجراءات التى كانت تهدف الى هذا الاتجاه وهو سلب المعابد استقلالها وانها لحقيقة معروفة ان ارتا . زرسيس اوخوس ودارا الثالث اظهرا عدم الاكتراث وقلة الاحترام للآلهة المصرية واستخفوا بالكهنة المصريين ولم يأبهوا بأى حقوق لهم . ولربما ان البطالمة الاولين عند تنظيم علاقاتهم بالمعابد حرصوا على اظهار شيء كثير من الاهتمام والاحترام بالمعابد المصرية ولا يجب ان ننسى ان الاسكندر الاكبر لم يفته عند زيارته لمصر ان يقيم حفلا فى ممفيس تكريما للاله بتاح والالهه ابيس وان يؤدى زيارة تقليدية لمعبد امون ( تشديد الميم ) فى سيوه وان اثر هذه الزيارة كان سحريا اخذ بالباب الكهنة وفاتحة جديدة بعد معاملة سيئة لقوها على يد الفرس وهكذا اظهر البطالمة انهم كانوا اكثر سخاءا واجزل عطاءا من ملوك الفرس . وهناك ظواهر اخرى فيما يجري عن تنظيم شئون المعابد ، فيها اشارة واضحة الى وجود علاقات وثيقة بين المعابد وبين ملوك البطالمة وهاهى بعض

هذه المظاهر فالبطالمة هم اول من ابتدع وظيفة

وتلك هي التي عرفت في الاصطلاح اليوناني بالاسم الاتي ( epistates ) وكل هذا الموظف في اغلب الظن هو مرشح الملك والمعين من قبله وهو الممثل ايه والمسئول عن كل الالتزامات المالية التي للملك على المعبد . ومن هذه على سبيل المثال ما كان في نطاق الصداقة والانتاج من نسيج الكتان الرفيع المسمى ( byssos ) ومن رقيد متحقق وخلافه والمثل الاخر الدال على ما كان للدولة من اشراف على شئون المعبد هو التصرف في الوظائف واختيار الصالحين والوظائف الكهنوتية على مختلف انواعها .

لما اهميتها من الناحية الاقتصادية فهذه الوظائف الكهنوتية كانت تمثل مصادر ايراد وموارد رزق لا بد ان يه ولما زواتب تدر على اصحابها دخلا كبيرا مثلما كان عليه الحال في المعابد الشرقية وقبل البطالمة كانت هذه الرواتب وموارد الدخل العريض الناجم عنها مخصصا في اغلب الظن بواسطة المعابد للكهنة ولعبيد المعبد بنفس الطريقة التي خصصت بها الاراضي لهم ومعين هذا ان هذه الوظائف وما ارتبط بها من رواتب كانت تباع لمن يدفع اكبر عطاء وقد طبقت هذه الطريقة في عصر البطالمة . فاصبحت الحكومة وليس الكهنة هي التي تتولى بيع هذه الوظائف وابرام عقود البيع في الوظائف غير الوراثية اما الوظائف الوراثية فكان يعمن منها على رسوم تنصيب قبل ان يتولاها الورثة ولدينا في (gnomon of Idios logos )

التي كانت تطبق في النصف الاخير من الحكم البطلمي وفي مصر الرومانية عدة بنود تنظم هذه القاعدة . فنجد فيما بين المواد ٧١ حتى ٩٨ اشارات الى وظائف كهنوتية تباع واخرى تورث وهذه وتلك كانت الدولة تحصل على مالية كبيرة ومن هذا يتبين ان الحكومة البطلمية والرومانية كانتا تتوليان الاشراف على ما يجري في الوظائف الكهنوتية وتداولها بين الشاغلين لها والصالحين لها .

ويحتمل جدا ان اراضي المعابد كانت تخضع في ادائها لاسلوب شبيه من ذلك . وما لا ريب فيه انه بالنسبة لاقليم الفيوم في العصر البطلمي المتأخر كانت الادارة المحلية

تحتفظ في سجلاتها ببيان عن اراضي المعابد ، اسوة بما كانت تفعله بالنسبة للاراضي الملكية وانها كانت تتولى اشرافا دقيقا على زراعتها وتراقب القائمين بهذا العمل وتعتبر الدخل الوارد منها وهو الايجار الذي كان يدفع بصورة او بأخرى في نظير استغلال هذه الاراضي ، كجزء من الايراد الملكي فتحرص على أن الايجار يدفع كاملا وأن الاراضي قد تمت زراعتها . وليس هذا النظام من مبتكرات البطالمة الاخيرين الذين اتسم حكمهم بالضعف والاستكانة ولم يكن في مكنتهم الافتئات على المعابد ، بل على العكس توسعوا في منح الحقوق والامتيازات لها فأسبغوا عليها حق الايواء والحماية (Heira asyla) وسمحوا لها باقامة الشواهد في مداخلها معلنة هذا الحق الملكي مسطرا باللغة اليونانية او باللغة المصرية ومحذرة من يدخله مستخدما القوة الغشومة ونصب اللعنة على كل من ليس له شأن بألا يجتاز هذا الحرم المقدس او يعتدى على من يرتكب شيئا من هذا . وفي أغلب الظن كان ذلك الارتباط الوثيق بين المعابد والحكومة فيما يتعلق بالاراضي المقدسة وليد العصر البطلمي الاول ، فالبطالمة الاولون هم الذين وضعوا هذا النظام او اعادوه الى ماكان عليه ، وغاية ماكانت الحكومة تصر عليه هو زراعة هذه الاراضي التابعة للمعابد على احسن وجه والوفاء التام بالايجار المستحق مسددا في موعده لخزانة الدولة . وربما لم تكن الحكومة تتدخل في تقاليد المعابد وطقوسها الدينية .

واهم ماكان يعنى به الملك هو الا تتكلف المعابد اكثر من الدخل الناجم من مواردها والا تكون معتمدة على منح او هبات من الحكومة وفضلا عن ذلك فانه كان حريصا على ان يكون هناك فائض وزيادة في الدخل حتى يصل الى جيب الملك ويصبح جزءا من موارده المنتظمة وليس في وسعنا معرفة مقدار هذا الفائض . ولماكانت صيانة هذه المعابد تمثل مهمة باهظة التكاليف فمن المحتمل ان الشق الاكبر من هذا الدخل المتحصل من المعابد كان يعود عليها في صورة عطاء او راتب ( syntaxis ) تدفعه الحكومة للمعابد . ونجد حالة شبيهة جدا فيما يتعلق بما نعرفه عن ضريبة الابومويرا (apomoira) وهى ضريبة تقدر بالسدس او العشر من حصيلة الكروم والبساتين وكانت تجبى قبل عهد

[illegible] بواسطة المعابد من اصحاب هذه الكروم والبساتين فلما جاء بطلميوس فيلادلفوس اصدر بوصفه المهيمن على الشئون الخاصة بالالهه والمعابد ، امرا يقضي بان هذا الدخل ينبغي تخصيصه منذ السنة ٢٥٨ ق.م. لتلك العبادة الجديدة لاخته وزوجته ارسينوى الثانية التي رفعت الي مرتبة الالهات بعد وفاتها وصدر القانون الخاص بذلك ضمن القوانين الضريبية Nomoi Telonikoi الخاصة بالتزام جباية الضرائب . ومما لاريب فيه ان جزءا من هذا الدخل المتحصل من تلك الضريبة كان يصرف علي الاغراض المخصصة لذلك ١. واذا كانت هذه العبادة الخاصة بأرسينوى قد ادخلت في جميع المعابد في مصر كما هو المحتمل ، فان كل معبد كان يتسلم نصيبه او قسطه منها واذا لم يكن الامر كذلك ، فان تلك الاموال كانت تصرف على المعابد الجديدة التي انشئت للالهه الجديدة . وعلى اي حال فانه عند وجود وفر وفائض من هذه الاموال فالحكومة كانت بالطبع تتصرف فيه حسبما يروق لها . وهي في الحق قد فعلت ذلك لصرفته علي اغراض علمانية لاتمت للدين بصلة فدفعت منه اجورا لموظفيها ولدينا الدليل على ذلك في وثيقة بردية منشورة في مجموعة بردى زينون المحفوظة بجامعة كولومبيا بنيويورك رقم ٥٥ (P.Columbia Zenon No 55) .

ومع ان معلوماتنا طفيفة عن الارض الموقوفة على المعابد فالراجح ان هذا النوع من الاراضي كان يدار طبقا لنفس السياسة وتبعا لنفس الاسلوب المرعي في الارض الملكية وكان الهدف الاساسي من وراء ذلك كله الحرص على تقديم العون للمعابد باعتبارها نظما اساسية وهامة تابعة للدولة وهي المسئولة عن وجودها وبقائها سليمة وميسرة لمن يرتادونها تقوى منهم على حياتهم وعلى المحافظة عليهم من اي شر يقع عليهم وهم في داخل محاريبها وحرمها المقدس . واذا حدث ان نجم عن الادارة الحكيمة لهذه الاراضي ان وفت الارض المقدسة بفائض من الايراد وفرته للحكومة ، فانه يكون من حقها ان تستخدم هذه الاموال على النحو الذي يروق لها . وفي ضوء كل هذه الاعتبارات ليس من المؤكد ما اذا كانت المعابد قد باءت بخسارة او حققت فائدة من التغيير

فى اوضاعها • ومما لاريب فيه ان المعابد لم يرن فى نظرها هذا النظام الجديد الذى كانت فيه اصبح الحكومة ظاهرة فى كل الخطوات فقد حرمت المعابد من الهيمنة "الابوية" القديمة التى كانت لها على مواردها وقللت من نفوذ الكهنة فى شئون المعابد وفتحت ابواب المعابد على مصاريعها لمندوبى الحكومة الذين كان اغلبهم من الاجانب وليسوا من المصريين • وهذا وضع لم يكن محببا للكهنة بحال من الاحوال ولكنهم قبلوه على مضض وفى نفوسهم غصة وسارت الامور على هذا النحو الى ان حانت الفرص كيما يكيد الكهنة للبطالمة ويبثوا فى نفوس المصريين روح الوطنية •

والثورة على حكم البطالمة الاجنبى فكانت المعابد بمثابة معاقل للقومية المصرية المتأججة •

الاراضى الممنوحة للضباط والجنود فى الجيش البطلمى المرابط :

ان الفاتحين الملكيين من ناحية والمعابد والكهنة من ناحية اخرى ارتبط كلاهما ارتباطا وثيقا منذ اقدم العصور بالحياة الزراعية فى مصر ونحن نعلم ان البطالمة واجهتهم مشكلة ذات اهمية بالغة بالنسبة للجيش وتعبئته ودفع رواتب الجند واسكانهم بوصفهم جيشا مرابطا • شاء البطالمة له ان يكون تحت ايديهم ورهن اشارتهم فى اى وقت ولايتحكم فيهم احد من حكام البلاد التى يستوردون منها القوات المرتزقة التى كان يتألف منها جيشهم هذا • وبالطبع لم يجل بخاطر أى من ملوك البطالمة الاولين الاعتماد على القوات المصرية المحاربة وطبقات المليشيا من العناصر المصرية التى اطلقوا عليها الاصطلاح اليونانى وهو ( machimoi ) حسب الوصف الذى نعتهم به هيرودوت وحمله من معانى التحقير والازدراء الشيء الكثير من حيث الملبس والمظهر والتدريب والسلاح ماجعل اليونان ينفرون منه ولايعولون عليه • وعلى ذلك لم يدر بخلد البطالمة ان يحولوا هذه الفرق العسكرية الوطنية الى جيش قومى دائم • ومن الجانب الاخر هناك ناحية لها خطورتها ـ تلك هى الارتباط بالصرف على جيش دائم من المرتزقة ودفع رواتب الجند فتلك كانت تكاليف باهظة للغاية وقد لاتقوى عليها موارد مصر المالية وهى اذ ذاك كانت

لاتزال حديثة العهد بالنقد وتعتمد في كثير من موارد الحياة على اسلوب المقايضة والتبادل العيني ، فأنى لها بالكنوز الهائلة من النقد للصرف على جيش مرتزق ؟ تلك مشكلة عويصة واجهها البطالمة بحرص وشجاعة واستطاعوا حلها في شيء كثير من الذكاء والفطنة . وكان المعروف منذ اول الامر ان الحاجة الى وجود جيش مرابط هي حاجة ملحة وان بقاء الجيش في معسكراته معظم الوقت رهن اشارة الحكومة امر مسلم به . ولحل هذا الاشكال عمد البطالمة الى الاهتداء من ناحية بالتقاليد المصرية ومن ناحية اخرى الى تطبيق تجربة الاسكندر وخلفائه وما مارسوه في هذا الشأن من حيث الاعتماد الى حد ما على الاتموذج اليوناني وبخاصة الاثيني وهو اتباع نظام الكليروكيات ( Kleruchies ) او الاقطاعات العسكرية الممنوحة للجند من الارض ، يحوزون اياها ويحصلون على الايراد الناجم من محاصيلها في مقابل اداء الخدمة العسكرية وتلبية نداء الواجب العسكري متى نفخ في البوق ودعا الداعي الى ذلك اما في التدريب السنوي او في خوض المعارك .

وهكذا احتفظ ملوك البطالمة المتعاقبون بجيش قائم ومرابط يتألف من المقدونيين والمرتزقة على مختلف جنسياتهم من يونان وكريتيين واسيويين ومن على شاكلتهم ممن اصطبغوا بالصبغة اليونانية وكانوا يدفعون الجزء الاكبر من اجور رجال الجيش لا نقدا وعينا كما كان يألفه الناس اذ ذاك وانما عينا فقط وكان هذا بالتخصيص عبارة عن رقع من الارض مقسمة الى انصبة متفاوتة في المساحة يستحوذ عليها كل واحد من هؤلاء بحسب رتبته العسكرية والسلاح الذي ينتمي اليه من فرسان ومشاة وبحارة في الاسطول وكانت هذه الرقع تبدأ من خمسة آرورات الى خمسة وعشرين ، وخمسين وستين وسبعين وثمانين وتسعين ومائة ومائة وعشرين وهكذا فمن الـ Pentarouros صاحب الفدادين الخمسة الى hekatontarouros ، صاحب المائة فدان يوناني الخ وكان المفروض ان الدخل السنوي الناجم من محصول هذه الارض يكفي للوفاء بحاجيات الجند واسرهم فيمدهم بما يلزمهم من اقوات وسبل العيش وعلى اى حال فلابد ان هذا كان يسد رمقهم ويدفع عنهم الحاجة

الى مد أيديهم للغير . وكان الافراد الذين تسلموا من الملك مثل هذه الرقع مـــن الارض يطلق عليهم كلمة اصبح لها مدلولها فى التاريخ البطلمى وهى Kleruchoi اى الحائزون لتلك الانصبة صغيرها او كبيرها على حد سواء اما النظام نفسه فيطلق عليه كلمة Kleruchia وقد عرض له عالمان فرنسيان مشهوران أولهمـــا " ليسكيه " Lesquier , Institutions Militaires des Lagides والكتاب صدر سنة ١٩١١ ثم جاء عالم فرنسى آخر فى الخمسينات اسمه " لونـــى " Launey فأصدر كتابا ضخما من جزئين عن الجيوش الهيللينستية والابحاث المتصلة بها وافرد للبطالمة فصولا مستفيضة Recherches sur l'Armée Hell. عام ١٩٥ . فمن يريد الاستزادة فى هذا المجال فعليه ان يرجع لهذين المؤلفين . فالموضوع شائق وله جوانب طريفة ويمثل ركنا فى الحضارة البطلمية وواجهة مشرقة . فالجيش البطلمى لم يكن جيشا عاطلا او متوفرا على الجانب العسكرى من كر وفر وحرب وجلاد وانما كان أداة تحضير وتمدين واصلاح فى مجالات عديدة من زراعة وصناعة وتجارة وبناء وتعمير واقتصاد وتعليم وثقافة ورياضة وموسيقى . فالجندى اليونانى لم يغفل ابدا عن مباشرة أوجه النشاط المحببة الى قلبه والتى الفها فى بلاده . والحكومة البطلمية من جانبها كانت تشجع الجند والضباط على ان يعكفوا على هذه النواحى الثقافية حتى يكونوا مرآة لغيرهم يحاكيها من حولهم من المصريين . ومن هذه الزاوية يمكن ان نعتبر الجيـــش البطلمى المرابط اداة تحضر فعالة . فالمصريون اختلطوا بهذا الجيش الذى أقام بين ظهرانيهم واحتكوا بأفراده فى الحقل وفى الجرن وفى السكن فتأثروا بهم المصريون مـــن حيث لا يدرون .

اما عن الكيفية التى نشأ بها هذا النظام وترعرع فى جنبات مصر على عهد كل من بطلميوس الاول ( سوتير ) وابنه بطلميوس الثانى ( فيلادلفوس ) طوال حقبة تربى على الثمانين عاما وعن الاسلوب التمهيدى الذى طبق به ثم مدى التوسع فيه فانا نعتـــرف ان معلوماتنا فى هذا الشأن طفيفة . وكل ما نستطيع قوله هو التأكيد بأن البطالمـــة

عندما اقتبسوا هذا النظام ، متأثرين بان الاسكندر اتبعه وان احد خلفائه وهو " سلوقوس " طبقه في الشام فاسكن جنده في جميع انحائه في مدن او في مستعمرات خاصة بالجند اطلق عليها لها كيانها وتستمتع بنصيب من الحكم الذاتي — لم ينحوا نحو هذا الاسلوب وتحاشوا عيوبه التي لم تكن لتخفى عليهم فتجميع الجند على هذا النحو ليس من الحكمة في شيء من وجهة النظر السياسية البحتة — اما الجند اليونان في الجيش المصري فقد روعي في توزيعهم ان ينتشروا في جميع ارجاء البلاد بين قاصيها ودانيها وكانت رقع الاراضي الممنوحة لهم تقع في احيان كثيرة في نطاق القرى القديمة او العتيقة وفي احيان في نطاق القرى والبلدان المنشأة حديثا على حواف الصحراء باقليم الفيوم فمثلا ولنضرب مثلا حيا على ذلك في نطاق بلدة او قرية فيلادلفيا وهي المنشأة الحديثة المشيدة اقامها ابو للونيوس وزير مالية فيلادلفوس واتخذ منها انموذجا يحتذى في التخطيط فنسقت شوارعها على النحو الذي نسقت عليه مدينة الاسكندرية نفسها من اتباع الاسلوب الحديث الحديث اذ ذاك الذي خطاه المهندس اليوناني هيبوداموس وهو ان تكون على شكل رقعة الشطرنج في شوارعها مستقيمة متقاطعة بها بيوتات على جانبيها واحياء سكنية وشوارع مخصصة لبناء المعابد من مصرية صميمة ويونانية مجاورة . وفي نطاق فيلادلفيا هذه اسكن عدد ضخم من هؤلاء الجند سواء منهم كانوا حديثي العهد بالتجنيد او كانوا من قدامى الجند المخضرمين بين مشاة وفرسان ولهم سكرتير خاص بالجند يرعى مصالحهم ويشرف عليهم في نطاق فيلادلفيا وما يحيط بها من قرى متجاورة وليها كانت رقع الاراضي المخصصة لاولئك الجند في هذا الزمام الواسع لا تمثل جزءا من الهبة او المنحة التي بلغت عشرة الاف من الاورورات اسبغها بطليموس فيلادلفوس على كبير وزرائه تقديرا له ولمشاداه .

وكانت هذه الحصص او الانصبة العسكرية الممنوحة لطبقات من الضباط والجند على مختلف مراتبهم تتفاوت في مقدارها بحسب طبيعة صاحبها وليها

روعى في ذلك الاقدمية فى الرتب والاسبقية فى التجنيد والبلاء الحسن فى القتال والعنصر الذى ينتمى إليه الجندى او الضابط وعلى اى حال فقد اختلفت الموازين التي بمقتضاهـا كان يتم هذا التحديد لرقعة الارض والثابت انه لم تكن هناك قاعدة واحدة متناسقـة في هذا الشأن وأكبر الحصص كانت فى القليل النادر لاتفوق مائة آرورات وبلغت مائة وعشرين من الارورات • والارض سواء ماكان منها منزرعا او حديث العهد بالاصلاح والتمهيد للاستزراع • جرى تسليمها لاولئك الجند والضباط وهى فى حالة لابأس بها •يستطيعون معها ان يبدءوا زراعتها أو اعدادها للزراعة في القريب العاجل • وبها من وسائـل الرى والصرف مايكفى على الاقل للشروع فى زراعتها فورا ثم على هؤلاء الجند ان يعملوا على ادخال التحسينات بأنفسهم وعلى نفقتهم الخاصة وتحت مسئوليتهم وكانت الدولـة تقدم لهم العون الذى يمدهم بالقروض نقدا وعينا وتمهلهم الى سعة حتى يردوا مااقترضوه

ولما كان اولئك الجند معرضين باستمرار للتعبئة العامة او الاستدعـــــــاء ( epaggelma ) بين حين وآخر إذا مادعا داعى الحرب او لاداء الخدمـة فى الحصون والاستحكامات فى أماكن نائية فى مصر أو فى الخارج او لأداء الخدمـة العسكرية فى الاسكندرية فى حامية الملك وقوات الحرس الملكى او للقيام بالمناورات فى الصحراء وفى حواف المدن - لهذا كله أصبح هؤلاء الجند فى حيرة من أمرهم بـين الواجب العسكري وبين طلب الرزق من استثمار هذه الاراضى على الوجه الاكمـل والتوفيق بين الحالين امر صعب المنال •

وعلى اي حال فهؤلاء الجند كانوا بالتأكيد مشغولين عن الارض والزراعة وبخاصة فى صدر العصر البطلمى حيث كانت الحروب الخارجية على أشدها وتكاد تكون متواصلة وعلى مدى سنوات متصلة فبطلميوس الثالث نفسه خرج للحرب عبر الفرات فى بابل لبضع سنين وكانت زوجته برينيقة " البرقاوية " قلقة عليه تذهب كل يوم الى معبد فـــى كانوبوس ( ابى قير ) وتدعو له بسلامة العودة وقصت خصلة من شعرها وردتها قربانا • ومن هنا طلع الفلكى اليونانى بفكرة نجم الشعرة يعدم ان رصد السماء فوجد

لها وكم وكتب الشاعر البرقاوى او القيريتى كاليماخوس قصيدته التى اسماها

لم يعد الجند والحالة هذه قادرين على الارض من واجبات اعمال موسية بل يوميه فهذه الحصص من الارض لابد من حصدها وتشوينها وتسويتها الخ من الاعمال الزراعية المتواليه . ولذلك اضطرت بعد اغلب الجند الى تأجير حصصهم للغير فى كثير من الاحوال ويوجد الطالعين الى تحمل هذا العبء يشغف . وكان زينون (          ) وكيل او ناليتوس والمشرف على ضيعه هذا الوزير فى فيلادلفيا من السباقين الى تقبل الاشراف على هذه الرقع من الارض وكان له دور كبير فى اداره هذه الاراضى الواقعه فى زمام فيلادلفيا والقرى المجاوره . وفى بعض الحالات النادره وخاصه قبل ان تعمد الحكومه البطلميه الى تخصيص هذه الاراضى للجند بصفه نهائيه كانت الحكومه تضطلع بنفسها زراعه هذه الانصبه من الاراضى ثم تقوم بتسليم المحصول الناتج منها الى الجند ولدينا مثل على ذلك فى وثيقه برديه مشهوره هى برديه فريبورج .

ولا تزال هناك تفاصيل عديده متعلقه بهذه الانصبه من الاراضى من يشوبها شئ كثير من الغموض وتحتاج الى مزيد من الشرح والتفسير ومن امثله تلك الحالات التى انقسم فيها النصيب من الارض الى شقين          على اعتبار ان كله          او          مجابها واعم النصفين وكانت يعامل معامله الحصص الاخرى اى الكليرات          وذلك بان يدفع عنه ضرائب وليس ايجار يوفيه الجندى عن اقطاعيته .

اما النصف الاخر فكانما هو جزء من الارض الملكيه استحق ان يدفع عنه ايجار .

( انظر الوثيقه البرديه المنشوره فى مجموعه بردى تبتونيس )

رقم ٧٤٦ .

وفضلا عن هذه الأنصبة من الاراضى المخصصة للجند على سبيل العطاء او الاجر فى نظير انضوائهم فى سلك الجندية وهى اساسا جندية محترفة للارتزاق — كانت الدولة تسبغ عنايتها على الجند فتخصص لهم محلات للسكنى إما فى ثكنات أو قشلاقات : Katalyseis ، Skenae أو تُنزلهم فى بيوتات oikemata يحلون فيها على سكانها الاصليين ويخصص لهم فيها اما النصف او بعض الطوابق او فى الحوش المحيط بالمسكن Peribôle ويطلق على هذا النظام كلمة Stathmodosia ) والمساكن هى Stathmoi والساكن او النزيل Epistathmos اما صاحب البيت فكان يطلق عليه Stathmouchos او Kyrios . وما أكثر الخلافات والمشاحنات بين المالك الاصلى والنزيل وما أكثر الشكايات التى كانت ترفع اما للملك او لاحد كبار موظفيه . وتجرى تسويتها بالطرق السلمية فان تعذر ذلك تعرض القضية على محكمة Chrematistae او المحكمة المختلطة(koinodikion) للفصل فيها . وفى القرى التى انشأها البطالمة مثل قرية فيلادلفيا كان الامر يسيرا اذ كان من السهل بناء وتشييد مساكن جديدة لايواء اولئك الجند دون مساس بأحد وكان هذا التشييد والبناء على حساب الملك أما فى البلدان والقرى القديمة مثل ادفو Apollonopolis) ) وضاحية أرسينوى الموجودة فى كنفها فقد ترامى الى سمع الملك بطلميوس فيلادلفوس أن الجند يتصرفون تصرفات سيئة ويعبثون بحقوق الغير ولا ينتظرون حتى تخصص لهم المساكن بواسطة الموظف المختص وهو مدير الشئون الاقتصادية oikonomos ) ) وهو المكلف بتوزيع المساكن على الجند ثم يحلون على الاهالى وانما يستخدمون القوة الغشومة ( bia ) ويقتحمون البيوت ويطردون سكانها الاصليين ويحلون محلهم وقد كتب الملك بهذا المعنى الى سكرتير اولئك الجند وكان يسمى أنطيخوس ( Antiro hus ) بأن يمنع حدوث مثل هذه التصرفات مستقبلا والا يعطى الجند من السكن الا ماهو ضرورى وانه اذا ماطلب الى هؤلاء الجند بأن يذهبوا للتدريبات العسكرية فعليهم ان يعيدوا المساكن الى حالتها الاولى والا يغلقوها ويضعوا

الاحتلام عليها كما لو كانت ملكا لهم وحتى يعودوا إليها مرة ثانية وانما يعيدونها الى حالتها الاولى ، ذلك أن المساكن العسكرية هي ملكية وملك للملك

" hoi gar stathmoi basilikoi eisi "

تلك هي الجملة اليونانية التقليدية التي وردت اكثر من مرة في الاوامر الملكية التي اصدرها بطلميوس في الادلفوس خاصا بتنظيم موضوع إسكان الجند ، ثم " ختم بطلميوس خطابه الى انطيوخوس بأن يبعد الجند عن قرية " أرسينوى " بقدر المستطاع واذا لزم الامر فعليهم ان يبنوا لأنفسهم بيوتا oikemata من اللبن كما كان يفعل اسلافهم في مثل هذه الظروف ، ولعل السبب في كل هذه المتاعب قلة مواد البناء وفقر البلاد في الاخشاب وضرورة استيراد الاخشاب الصالحة من شجر الأرز من لبنان وسوريا، وزاد الطين بلة كثافة السكان وضيق الرقعة السكنية مما دعا الى احلال الجند في بيوت الاهالي بمقتضى أوامر صادرة من الملك وكان هذا التصرف مدعاة الى الاحتكاك وسببا في الشحناء والبغضاء بين الطرفين ، بل وفي العراك الدموي بين طرفي النزاع ، وهكذا شهدنا منذ الايام الاولى في حكم البطالمة نظام إسكان الجند وماجره من مساوئ ، باحلال الجند على الاهالي بدون جريرة او ذنب اقترفه صاحب المسكن الاصلي وعلى ذلك يمكن القول ان إسكان الجند بهذه الطريقة التعسفية والعشوائية كان يمثل عيبا خطيرا في النظم العسكرية البطلمية ومصدر اثارة للاهالي باستمرار ولعل التشريع الذى اصدره بطلميوس يورجيتيس الثاني عام ١١٨ ق.م ، وسوى به الخلاف من زوجته كليوباترة الثانية وانهى الحرب الطاحنة بين الطرفين ، خفف من هذه المشكلة باعفائه بعض الطبقات من ان يحل عليها نزلاء، وتلك الطبقات هي الجند ثم الكهنة ثم القطارون للجعة والعصارون للزيوت ورعاة الاوز المقدسة والنساجون ورعاة الخنازير ، واستثنى أصحاب البيت الواحد من تحمل هذا العبء وجعل نصف البيت الثاني إن وجد، هو الذي يمكن ان يحل فيه احد من أولئك الجند .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد لم يكن قصد البطالمة أن يجعلوا من الجند ملاكــا حقيقيين فتلك الانصبة من الاراضى التى أقطعوا اياها وتلك المحلات السكنية التى حلوا عليها او نزلوا فيها كانت كلها عقارات ملكية ، أعطيت على سبيل المنحة القابلة للاسترداد فى أى وقت حسب رغبة الملك فلم يكن للضابط او للجندى الحائز لنصيب من هذه الارض او الساكن فى نصف بيت او طابق منه او الحديقة المحيطة بالمنزل ، إن وجدت ، ان يتصرف بالبيع او الرهن او الهبة او التأجير من الباطن او الاستدانة على هذا السكن فهذا كلــه محرم عليه وهناك عقوبات صارمة بدفع خمسة أمثال او ثلاثة امثالها قــدا خذه على سبيل الغرامة ( prostimon ) وفضلا عن ذلك اذا طرد زميله مستخدما فى ذلك القــــوة الغشوة ( apobiasameno ) دفع عن السكن الاصلى ثلاثين دراخمة عن كل شهر وستين دراخمة عن السكن فى الحديقة عن كل شهر طوال المدة التى أدين فيها بأنه ارتكب هذه الحماقة وطرد زميله . على انه فى واقع الامر اذا سارت الامور على مايرام وساد الوئام بين الطرفين كان الضابط او الجندى يُترك وشأنه متمتعا بما حازه من ارض وسكن ، لا يكدر صفوه احد ولا يدفع ايجارا عن هذا السكن فهو منحة من الملك لا أجر عليه ، إلى ان يموت الجندى فينتقل الوضع الى ابنه من بعده والى زوجته فتبقى فى مكانها . وفى الواقع كنا نجد فى بعض الحالات ان الابن يعش كشريك مع ابيه فى دفع الايجار عن النصيب من الارض ويشار اليه على انه شريك ( sygkleros ) ( انظر بردية منشورة فى مجموعة المتحف المصرى فى مجموعة بردى زينون P.Cairo Zenon NO 59001 هامش على السطرين ٤٦ و ٥١ .

وكان الجنود الحائزون لانصبة من هذه الاراضى يدفعون العديد من الضرائب المستحقة على هذه الانصبة وكانت بعض هذه الضرائب أشبه بما تكون بتلك التى كان يدفعها الفلاحون الملكيون وخاصة بعض هذه الضرائب : ضريبة التاج ( stephanos ) وضريبة محددة على الارض المنزرعة مقدرة بعدد من الارادب ( artabieia ) وضريبة لصيانــة الجسور ( chomatikon ) واخرى للخفارة والحراسة ( phylakitikon ) وضريبة فى نظير الخدمة الطبية ( iatrikon ) ولربما كانت هناك ضرائب اخرى بخلاف

تلك الضرائب المعتادة التي كان يشارك في دفعها باقي السكان في مصر . ولم يكن اولئك الجنود الحائزون لانصبة من الاراضي عرضة للقيام بأعباء وتكاليف اجبارية ولكن الملك كان حرا في ان يطلب اليهم أداء اي خدمات غير اعتيادية على سبيل السخرة (leitourgia) في حالات الطوارئ والملمات ، شأنهم في ذلك شأن باقي السكان في مصر .

وهذا النظام القاضي بتخصيص رقع متفاوتة في مساحتها من الاراضي الزراعية لطوائف من الجند والضباط من اجل توفير سبل العيش والرزق لهم وتزويدهم بمورد محترم يدر عليهم دخلا منتظما ويجعلهم في غير حاجة لمساعدة الغير ، تطلب قدرا كبيرا من الاشراف الاداري المتواصل فالحائز منهم لحصة او نصيب من هذه الارض ( Kloros ) كان مسئولا امام الحكومة عن زراعتها وكان بدوره يخضع لرقابة شديدة من رؤسائه وكذلك من الموظفين في السلك الاداري . وعلى سبيل المثال كانت القاعدة بخصوص التقاوي وبذور القمح ( sitos ) التي كانت الحكومة تقدمها على سبيل القروض ، يجري تطبيقها عليه كذلك . ومع ذلك فالجندي الحائز لنصيب من الارض كان اكثر حرية من الفلاح الملكي في كيفية تصريفه وادارته لهذا النصيب . اما نظام الدورة الزراعية diagraphe tou sporou او التوزيع الرسمي للمحاصيل ، فلم يكن مطبقا على هذه الانصبة العسكرية . وفيما عدا بعض المحاصيل ( وهي النباتات الزيتية وربما الحشائش ) كان الحائز لنصيب من هذه الاراضي حرا في فلاحة ارضه على النحو الذي يرون له . واما لنعرف أن بعضا من هؤلاء ، بدلا من زراعة الحبوب ، حولوا انصبتهم وحصصهم من تلك الاراضي او جزءا منها على الاقل الى كروم واحراش الزيتون او حدائق . ولعلهم عمدوا الى هذا التصرف بعد الحصول على اذن خاص من الحكومة وبالشروط المألوفة المطبقة بالنسبة لغرس الارض (kataphyteusis)

على ان الملك كان مع ذلك يعتبر نفسه صاحب هذه الانصبة من الاراضي وخاصة فيما تخرجه هذه الاراضي من محصولها وما تلفظه من انتاج يأتي في المقام الاول . وكما هو الحال بالنسبة للفلاحين الملكيين ، كانت المحاصيل يتم التحفظ عليها بوضعها تحت اعين الحراس الى ان يتم الوفاء بدفع جميع الضرائب المستحقة على هذا الجندي الحائز

لذلك النصيب • ولايحق له ان ينقل لمسكنه نصيبه من هذه المحاصيل او يزيحه من الحقول او الاجران حتى يحصل على تصريح بالافراج عنها ( aphesis ) من الموظفين الملكيين •

كان هدف البطالمة من انشاء النظام " الكليروكى " القاضى بتخصيص حصص وانصبة من الاراضى لطائفة الجند كيما ينتفعوا بنصيب مما تنتجه هذه الاراضى على سبيل الاجـــر العينى عن تلك الخدمات العسكرية يؤدونها للدولة — يرمى الى تحقيق عدة اغراض • بعضها سياسى وبعضها الاخر اقتصادى • وقد المحنا الى بعض منها من قبل • وهناك اعتبارات اخرى منها ان ندرة العملة المسكوكة قد تكون احد الدوافع الى اتخاذ هذا الاجراء • وان لم تكن هى الباعث الاساسى • وهناك امور اخرى ذات اهمية بالغة من اولاها تلك الرغبـة الاكيدة فى ربط افراد الجيش بمصر وجعلهم يتخذون من هذا الوطن بلدا امينا لهم ثـــم هناك الرغبة فى اقامة علاقات وثيقة ووطيدة بين الملك والجيش • ويأتى فى المقام الثانـــى حرص الحكومة على ادخال اساليب جديدة فى العمل الزراعى وابتداع روح اقتصادية وعلمية مجلوبة من الخارج وبثها فى ارجاء البلاد فتدب فيها روح متطورة • ومن المؤكد ان اولئك الجند الحائزين لأنصبة من الاراضى لم يكونوا ملاكا بعيدين عن اراضيهم غير آبهين باقطاعاتهم هذه • بل على العكس اظهروا رغم بُعد الشقة اهتماما بالغا بأراضيهم هذه وهى مصـــدر رزقهم الاساسى • وفى مكاتبات زينون وارشيفه المشهور رسائل عديدة دالة على مبلغ الاهتمام الشديد الذى كان يظهره هؤلاء من ثنايا رسائلهم لزينون ولغيره من الشخصيات فى نطاق فيلادلفيا عبما شيدوه واقاموه من مساكن وبيوت ريفية جديدة • زينت ونسقت على احدث الطرز المرعية فى الاسكندرية تحيط بها الحدائق والزرائب وطليت جدرانها بالجبس وزينـت حجراتها بالارائك • وفضلا عن ذلك فقد كان اولئك الجند يعنون بما كانوا يربونه من ماشية وطيور ودواجن وكانوا يزرعون فى اراضيهم من اشجار • وكان هؤلاء قد الفوا حياة الريـف واخذوا يترددون عليه بين حين وآخر • وكان بعض هؤلاء من الخبراء المهرة فى شئون الزراعة وغرس الكرم واشجار الزيتون وتربية الاغنام والماشية • وعلى ذلك رحبوا بأن يصبحوا اصحـاب اراضى زراعية فى ريف مصر مرة اخرى والعودة الى العمل الذى الفوه واحبوه ولو على فترات

متقطعة — ولابد أن نذكر ان بلاد اليونان وآسيا الصغرى كانت لاتزال الى حد كبير بلادا تقوم فيها الحياة الاقتصادية على الزراعة • واخيرا كان البطالمة يرفضون ان تبقى الاموال التى تسلمها جنودهم كأجر او كنصيب لهم من الاسلاب والمغانم او بمعنى آخر تبقى جميع مدخرات هؤلاء الجند فى مصر ولاينبغى ان تتسرب الى الخارج وانما تصبح محبوسة او مستغلة فى البلاد — وافضل نوع من الاستغلال هو تشغيلها فى الارض التى ربما بقيت رقع فسيحة منها بدون زراعة ،لو لم يتم تنفيذ مثل هذا الاجراء • والعمل الزراعى فى مصر كان دائما عزيز المنال ،بينما مدى اتساع رقعة الارض الزراعية فى البلاد قابل للزيادة باستمرار • فكلما توفر المال والرجال الاكفاء وانعقدت العزيمة على بذل الجهد ،زادت رقعة الارض المنزرعة واتسع نطاقها •

آراضى الهبات ( Doreai )

ان نفس هذه الاعتبارات الانفة الذكر هى التى حدت بالبطالمة الى ان يسبغوا اراضى على موظفيهم المدنيين فمنحوا هبات شاسعة من الاراضى على سبيل العطايا ( doreai ) • وكان البطالمة الاولون وبخاصة بطليموس فيلادلفوس قد توسعوا فى اسباغ هذه المنح والهبات ،فمنحوا اعوانهم الكبار فى الشئون العسكرية والشئون المدنية • وقد وردت اشارات عديدة الى مثل هذه الهبات فى المصادر التى فى متناولنا ومعرفتنا بواحدة منها وهى ضيعة أبوللنيوس فى الفيوم ومركزها فيلادلفيا ،وثيقة بفضل ذلك الارشيف من وثائق البردى الذى عرف بأرشيف زينون • وقد جاء حاويا لأكثر من الفين من الوثائق البردية فى شتى الموضوعات العامة والخاصة وبذلك القى اضواءا ساطعة على ذلك النشاط المحموم الذى بذل فى استصلاح اراضى هذه الضيعة وغرس الاشجار فى جنباتها حتى اصبحت جنة فيحاء واصبحت قبلة انظار الزائرين من مصر والخارج • وقد سرد لنا العالم الروسى " رستفتزف " فى كتابه A Large Estate in Egypt الوانا من الحياة فى هذه الضيعة وفصل لنا تلك الجهود المبذولة فى اصلاح الاراضى وكان يستقى معلوماته من الوثائق البردية التى كانت تحت تصرفه عام ١٩٢٢ عندما اصدر

كتابه هذا . وبعد هذا التاريخ ظهرت مثات الوثائق التى تحكى لنا الوانا اخرى شائقة من الحياة فى خضم هذا المجتمع الزاخر بالنشاط . وفضلا عن الميل الطبيعى لدى المالك الثرى فى ان يربط اعوانه ومساعديه الاساسيين برباط وثيق عن طريق الهبات السخية ، فان الدافع الاساسى الذى اوحى الى البطالمة فى تقديم مثل هذه الهبات هو الرغبة فى ان يجربوا نظام الضياع الفسيحة عند المقدونيين والفرس ، جنبا الى جنب الطريقة التقليدية عند اليونان وهى توزيع انصبة صغيرة متواضعة ( klerol ) كوسيلة لتحسين وسائل استغلال مصر . وكانت مثل هذه الضياع الفسيحة تمنح لأكثر اعوان الملك نشاطا وأشدهم تدبيرا . وكان الملك يتوسم فيهم القدرة على تطبيق نفس الاساليب التى يطبقها الملك فى باقى الاراضى وتشجيعهم على اقتباسها والعمل بمقتضاها فى ضياعهم الكبيرة . وهنا يجب ان ننوه ان هذه الضياع كانت قابلة للاسترداد ، شأنها فى ذلك شأن الكليرات . وكان اصحاب هذه الضياع فى الحق يجمعون بين صفة الملاك و "الخوله " الذين ينوبون عن الملك ويحملون رهن اشارته وينفذون تعليماته . ومما لا ريب فيه ان هذه الضياع كانت محاور ارتكاز ومناطق ارشاد ، أفادت منها البلاد كثيرا .

الارض الخاصة والمملوكة : ge idioktetos = ktemata

وهذه الارض تعتبر ملكية فردية او بالاحرى هى بمثابة ذلك فالأصل أن كل شئ فى مصر مملوك للملك وهذه تعتبر اذا ، ملكية اعتبارية ، إن صح استعمال هذا القياس . ليس هناك اقل شك فى انه بالاضافة الى مثل تلك الملكيات الواقعة فى نطاق اراضى المعابد ، كان هناك قطع عديدة من الارض متناثرة فى جميع ارجاء مصر ، يملكها الافراد ، فالمساكن والبيوت والكروم والحدائق والبساتين كان يطلق عليها جوازا كلمة ktemata اى املاك وذلك فى صدر العصر البطلمى . وبخلاف ذلك ، كانت هناك رقع من الاراضى المنزرعة حبوبا وبخاصة فى صعيد مصر ، يجرى فيها البيع والشراء والرهن والوصية ويتم هذا كله بمنتهى الحرية . ومعنى هذا انها كانت تعامل ، تحت سمع الحكومة وبصرها ، معاملة الاراضى ذات الملكيات الخاصة ، وليس لدينا من الوسائل ما نستطيع به التصرف

على اصل هذا النوع من الاراضى ، ولربما كان أصلها يرجع الى ايام الفراعنة ثم زاد عددها بالتأكيد فى عهد الحكم الفارسى • وعلى اى حال فعلى قدر علمنا ، لم يعمد البطالمة الى مصادرة هذه الاراضى او اتخاذ اى اجراء من هذا النوع فيما يتعلق بهذا الشق من الارض المملوكة وانما آثروا قبول الاوضاع الراهنة • وفى هذا المجال كما فى غيره من القانون المدنى بوجه عام ، لم يحاول البطالمة على الاطلاق استحداث تغييرات جوهرية او تعديلات اساسية •

وفى الحق انهم منذ البداية كانوا يشجعون على التوسع فى ملكية الارض الخاصة ، فالارض التى كان يكنى لها بالاسم الآتى : gé idiokteتos

وهى التى قامت الحكومة ببيعها للافراد كانت من مبتكراتهم وكانوا هم الذين اقروا ونظموا ايجار الاراضى بطريق التوارث فسمحوا بالمضى فى زراعة الارض emphyteuma لورثة المستأجرين باعتبار ان هذا حق مشروع لهم • وكان فى رأى ملوك البطالمة ان فى وجود نفر من الناس ممن يوصفون بانهم ملاك اراضى محازوها بفضل ما أوتوه من تدبير ونشاط ، كفيل بأن يسعى هؤلاء الى زيادة رقعة الارض المزروعة وتحويل اجزاء من البلاد الى كروم وحدائق وبساتين غناء • وهذا من شأنه ان يعود بالخير العميم على ملوك البطالمة ويكون فى صالح مصر والبطالمة كانوا بالطبع فى حاجة الى طبقة من الناس يتوافر لهم قدر من الغنى والثراء حتى يمكن الاعتماد عليهم او على الاقل على بعض منهم كموظفين وملتزمين وضامنين لهؤلاء الاخيرين وبذا تكفل الدولة الحصول على استحقاقها • على ان وجود هؤلاء " الاعيان " باعداد كبيرة فيه ضمان لحسن سير العمل وتأديتهم لما يوكل اليهم من خدمات واستعدادهم لتقديم مايملكون من اراضى على سبيل الضمان • وبالطبع لم تكن تلك الارض الخاصة معفاة من الضرائب • وقد حرصت الحكومة على ان تراقب زراعتها وان يتم ذلك على الوجه الاكمل بحسب الخطة الموضوعة ونظام الدورة الزراعية • ومن امثلة ذلك ضمان زراعة المحاصيل الخاصة فى زمانها اذا لزم الامر ثم ان الحكومة كانت تصر كذلك على الوفاء بتسديد الضرائب

بانتظام . وفى الحالات التى ثبت فيها العجز عن الوفاء بهذه الالتزامات ، كان الملك يعمد الى المصادرة وبيع هذه الاراضى وفاء لما استحق عليها من ديون . وقصة ديوان " الاديولوجوس" ( Idios Logos ) وهو الموظف الكبير الذى انفرد بامساك حساب خاص لصالح خزانة الملك منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد . وتميز بما ابداه فى القرن الاول قبل الميلاد من نشاط ملحوظ فى اعمال المصادرات وبيع الاراضى على نطاق واسع وظهور ملاك جدد ، سارعوا الى اقتناء مايباع وامنوا على ملكيتهم فى هذه الارض المشتراة من الحكومة - هذا كله يضفى معانى كثيرة على مدى التطور فى ملكية الارض - وقد قيل ان عهد الملك بطليموس (١٢) اوليتيس او الزمار والد كليوباترة (٧) شهد توسعا فى بيع الاراضى فهذا الملك المفتون والمتلاف كان فى حاجة ماسة الى الاموال ليقدمها رشاوى الى زعماء الرومان وقادتهم ليضمنوا له ملكه وعرشه المهتز او ليردوه اليه عندما طرد منه عام ٥٨ ق.م . وردوه بالفعل عام ٥٦ - ٥٥ ق.م .

تلك كانت الاوضاع المختلفة لنظام الاراضى فى مصر البطلمية وهذه هى اساليب استغلالها او اقطاع بعض منها للغير . ويتضح من ذلك ان الحكومة كانت لها الهيمنة التامة والاشراف الدقيق على شئون الزراعة فى جميع انحاء البلاد وليس هذا بعجيب لانه من الارض الزراعية كانت الحكومة تحصل على دخلها الرئيسى . فالايجار ( ekphorion ) وماكان يضاف الى ذلك من مختلف الضرائب ، بعضها ضرائب صغيرة . كان يدفعها " الفلاحون الملكيون وبعضها الاخر كان يدفعها البنود الحائزون للاراضى والملاك الخصوصيون ثم ضريبة $\frac{1}{3}$ ٣٣% على الكروم ثم ماكان يضاف الى ذلك من ضريبة الابومويرا (Apomoira) وهى السدس او العشر على الانتاج من الكروم والحدائق والبساتين كل هذه الضرائب مجتمعة كان يؤلف بعضها بعضا فى موارد الدخل المتنوع لاقصى حد عند البطالمة . وكانت جميع الطبقات من اصحاب الاراضى والحائزين لانصبة منها تساهم بنصيب معلوم فى هذا الدخل .

ومع ذلك فليس فى وسعنا ان نقول ان البطالمة الاولين عندما شرعوا فى تنظيم الحياة الزراعية ، كانوا ينفذون خطة موضوعة ومرسومة باحكام فى تاريخ مسبق وان هذه

الخطة كانت تقوم على مقدمات نظرية في قياس منطقي ، لم يكن هناك في أغلب الظـــن شيء من هذا وإلا كانوا يتعثرون في تنفيذ خططهم الموضوعة مسبقا ، وهم يعتبرون ناجحين فيما صح عزمهم عليه في سياستهم الزراعية .

وواضح انهم عند اعادة تنظيمهم لهذا الفن من الاقتصاد المصري كان رائدهـم عدة اعتبارات مختلفة ، سبق أن المحنا الى بعض منها ، إنهم ارادوا مضاعفة الانتاج كيما يزداد دخلهم وحرصوا على الاحتفاظ لانفسهم بأكبر قدر ممكن من الانتاج الزراعي ، ولكنهم كانوا يرغبون في الوقت نفسه الا يتورطوا او يبالغوا في السير في هذا الاتجاه فالشطط فيه محفوف بالمخاطر وكانوا يخشون دائما إثارة النفوس ويعملون على تجنيب معارضة الناس ، سواء اكانت هذه المعارضة سلبية ام ايجابية ، ولذلك يبدو انهم ادخلوا شيئا كثيرا من التعديلات والتحسينات في اسلوب جباية الضرائب المستحقة على الاراضي ، وفي قوانين الجباية بطريق الالتزام وهي التي اصدرها بطلميوس فيلادلفوس عام ٢٥٩ - ٢٥٨ ق.م ، وعرفت بالاسم ( Nomoi Telonikoi )

فاستحدثوا الشيء الكثير من الضمانات من قبيل الحرص على ألا يفلت احد او يظلـم فلاح ، وراقبت الموظفين وكفلت العدالة المطلقة حتى لاتثور ثائرة الشعب ، وبالاختصار يمكن القول أن هذه القوانين جعلت نظام جباية الضرائب افضل مما كان عليه واكثر كفاية على ان البطالمة عرف عنهم انهم كانوا ينفرون من هجر التقاليد القائمة والتنكر للعادات الصميمة المتوارثة في البلاد ، وقد حاولوا ان يكون للحكومة الاشراف المباشر على اكبر قدر من رقعة الارض المزروعة ، ولكنهم في الوقت نفسه ، كانوا حريصين على عدم الاضرار بمصالح طوائف مهمة من السكان وبخاصة رجال الدين وتلك الجموع الهائلة من الملاك الخصوصيين للاراضي وهم سنده ودعامة قوية للحكومة ، حقيقة أن البطالمة انفسهـم كانوا يسترشدون باعتبارات سياسية واقتصادية توخوها عندما اوجدوا في محيـــط الارض الزراعية " بؤرا " عديدة وجديدة من الملكية الخاصة ، سمحوا باقتطاعها علـــى حساب الارض الواقعة تحت اشرافهم المباشر وفي هذا مافيه من تفتيت للقوى ، وفي هذه

"الجزر" اراضى الهبات والحيازات الخاصة بالجند والاراضى المملوكة ملكية خاصة وهذه كلها تمثل رقعة فسيحة ، وقفت الدولة منها موقفا حذرا وقد ضمن البطالمة لأنفسهم دخلا لابأس به من هذه الاراضى " ذات الطابع الخاص " وكانوا دائما يباشرون نوعا من الاشراف على ادارتها ولكنهم تجنبوا بقدر المستطاع الاساءة الى مصالح اصحابها او اثارة نفوسهم • ولايجب ان ننسى ابدا ان ملوك البطالمة اعتبروا انفسهم أسياد البلاد وحكامها الاوتوقراطيين ذوى الحول والطول وانه ينبغى على جميع سكان البلاد اطاعة اوامرهم طاعة عمياء وقد اسبغوا على الموظفين المدنيين بعضا من تلك السلطات المخولة لهم ، ومع هذا كله فقد كانوا فى ادارتهم للارض الخاصة بهم وهى الارض الملكية ، يقفون احيانا مكتوفى الايدى ، صابرين ومتحاملين على انفسهم ازاء ذلك الاجراء التقليدى والاحتجاج السلبى الذى كان المصريون كثيرا مايلجأون اليه اعلانا عن سخطهم واستيائهم وكثيرا ماعمد الفلاحون الملكيون الى هذا الاحتجاج الصامت ضد بعض التصرفات الظالمة من جانب رجال الادارة والمشرفين على شئون الزراعة من " نوماركيين " وغيرهم فيعمدون الى الاعتصام بالمعابد والفرار اليها ويكفون عن العمل وهذا مايعرف بالكلمة اليونانية ( anachoresis ) اى الذهاب الى فوق او اعلى باعتبار ان المعابد كانت تبنى دائما فى الاماكن العالية حتى لاتصل اليها مياه الفيضان فتغطيها او تغمرها وهناك طريقة اخرى بديلة وهى انكى واشد وتلك يعبر عنها بكلمة ( ekchoresis ) اى الفرار من قرية لاخرى والاختفاء والتوارى عن ابصار الحكومة اما فرارا من دفع الضرائب او عصيانا عن العمل وبين حين وآخر يتردد فى الوثائق صدى هذه الظاهرة التى كانت تشل حركة العمل وتضيق بها الحكومة ذرعا ولاتجد من سبيل الى استعمال القوة او تعمد الى البطش بهؤلاء الفاضبين ، ذلك ان الحكومة كانت تسوى هذه الاوضاع ، لا بالعنف والاكراه ، وانما بالحسنى والتفاهم الودى • وخلاصة الموقف ان البطالمة اقاموا فى حكمهم لمصر نظاما اشبه مايكون فى كثير من الوجوه بنظام التحكم والسيطرة ( étatisme ) المتضمن اشراف الدولة وسيطرتها فى العصر

الصحيح على وسائل الانتاج ولكن من الانصاف للبطالمة ان نقول ان نظامهم لم يكن صارما او شديد الصرامة ولا متسما بضيق الافق.

## أراضي المراعي :

بالاضافة الى الارض الصالحة للزراعة والكروم والبساتين ، كان ملوك البطالمة اصحاب جميع اراضي المراعي ( nomai ) وادعوا لانفسهم الحق في التصرف في الكلأ الاخضر الذى ينمو فى الاراضي المنزرعة وفي الحقول كمحصول تكميلي بعد انتهاء فصل الحصاد . وبتوافر مثل هذه الموارد العظيمة في الكلأ ، امكن للبطالمة ان يستحوذوا بالطبع على قطعان وأسراب من مختلف الحيوانات المستأنسة . فمن ابقار وثيران تستخدم في اغلب الاحوال في إعداد الارض في الحقول وفي زراعتها ومن حمير ودواب تستخدم كوسيلة سهلة للنقل ومن اغنام وماعز تربى بالآلاف من اجل صوفها ولبنها ومن خنازير للأضاحي واوز مقدس وغير مقدس وبالاضافة الى هذه الحيوانات التقليدية المستأنسة في مصر يمكن ان نضيف أنواعا كثيرة من الدجاج واصطبلات خاصة بالخيول كانت تزود منها فرق الفرسان بما يلزمها من خيول ثم هناك الفيلة المخصصة للاغراض الحربية والفيلة هي بمثابة دبابات العصر القديم ثم هناك اعداد ضخمة من الجمال التي جلبها البطالمة الى مصر .

## الزيوت ونظم الاحتكار في مصر البطلمية

الزيوت هي افضل مثل معروف لدينا عن كيفية تطبيق نظم الاحتكار في مصر البطلمية وذلك بفضل ماوصل الينا من معلومات في وثيقة الالتزام في جباية الضرائب حيث جاء قانون ( nomos ) منظم لعملية الالتزام في النباتات الزيتية ( elaike wne ) جاء فيه تنظيم لهذا النوع من الاقتصاد الملكي المطبق في مصر بطلميوس فيلادلفوس( ٢٥٩-٢٥٨ ق.م. ) ومابعده . والقانون الذى جاء في هذه الوثيقة ، أفرد لموضوع الزيوت واطلق عليه nomos elaikes ويكاد يكون كاملا بالمقارنة الى القوانين الاخرى في هذا

النص البردى حيث وردت فقرات مهمة بها بعض التعليمات الخاصة بضريبة النبيذ المخصص للمعابد وتقدر بالسدس او العشر وتسمى ضريبة الابوموبرا ( apomoira ) ثم جاءت كذلك قصاصات أخرى مبتورة بها بعض التعليمات الخاصة بصناعة المنسوجات من صوف وكتان رفيع وقنب ( eriére , othoniera, styppia ) وقصاصات خاصة بالمصارف ( trapezitike ) واخرى خاصة بصناعة الجعة والشراب المستخرج من الشعير ) ويسمى ( Zytera ) واخرى خاصة بضريبة المرعى ( ennomion ) . تلك هى المجالات التى تناولتها قوانين الالتزام فى جباية الضرائب ، المبتور منها وغير المبتور وهى فى مجموعها تمثل سلسلة فريدة من القوانين التى وصلت الى ايدينا مصوبة ومصححة فى ديوان وزير المالية أبوللونيوس وربما كان القانون الاصلى يرجع وقت اصداره الى الحقبة الاولى من عهد بطليموس فيلادلفوس او ربما مرده الى عصر بطليموس سوتير .

والقدر الذى يعنينا هنا هو المتعلق بالنباتات الزيتية وقد اطلق عليه كلمة شاملة اى الضريبة على الزيوت elaiké وهو فريد فى بابه من حيث انه ورد كاملا وبذا اتاح لنا فرصة التعرف فى شىء كثير من التعمق والافاضة على سياسة بطليموس فيلادلفوس والكيفية التى كانت تطبق بها ثم ربما كذلك على سياسة سوتير فى هذا الشأن .

وهذا القانون الخاص بالزيوت nomos elaikés كان ينظم كيفية التصرف فى الناتج او الحصيلة من النباتات الزيتية المختلفة والكيفية التى كان يتم بها عصر هذه النباتات والجهات المسئولة عن عصرها ومدى الرقابة المفروضة على المعاصر وعلى العمال المشتغلين فيها . واكثر النباتات الزيتية انتشارا فى مصر هى السمسم وزيت الخروع ( croton ) والعصفر او الزعفران الكاذب والقرطم والقرع العسلى وبذر الكتان . والمادة الخام يمكن الحصول عليها من الفلاحين وفى كل عام كانت المساحة المقرر زراعتها من كل صنف يجرى توزيعها بواسطة السلطات الحكومية على مختلف المحافظات

ثم تقوم السلطات المحليه على مختلف القرى وتقوم الاجهزه الاداريه في القريه بتوزيعها على افراد الفلاحين وهذا كله يقتضي دوره مألوفه فيما تجديد لكل شيء في ذلك الكميات الواجب زراعتها لكل نبات والجهات التي لصالحها وضع هذا التخطيط فكان يخصص عدد معين من الارواب ويقدر بالالاف ) لزراعه نوع معين من هذه النباتات الزيتيه او صنف اخر مع مراعاه صلاحيه الارض وجودتها وملائمتها لهذا النوع او ذاك . وفي خارج النطاق المخصص لذلك لم يكن يجوز لاحد ان يزرع شيئا من هذه النباتات . اما كامل المسئوليه عن التنفيذ الدقيق للنظام المرسوم من حيث بذر البذور طبقا للقاعده الموضوعه فكانت تقع على الجهاز الادارى وكان كل فلاح يتسلم من الحكومه البذور المطلوبه وعليه ان يقوم بردها الى الحكومه عند الحصاد فكانت المحاصيل تجلى تحت عين الحكومه وبصرها ورقابه الموظفين والملتزمين والضامنين لتعهدات اولئك الملتزمين وهم( الا هم المسئولون في اخر الامر عن الانتاج من هذا الالتزام ( ) وكان المحصول يتم كيله ويدفع ربعه كضريبه اما ما يبقى فكان يسلم الى الملتزم الذى كان عليه ان يدفع للفلاحين ثمن المقادير التي تسلمها منهم وذلك بحسب تسعيره مقرره ( وضعها الملك واعلنها على الناس من قبل . وكان الملتزم بدوره ملزما بان يسلم المقادير التي حصل عليها من الفلاحين الى الحكومه بنقلها الى شون الحكومه ومنها الى معاصر الزيوت التابعه للحكومه وكانت هذه المعاصر موجوده في المدن والقرى ولم تكن الحكومه تسمح بوجود معاصر خاصه فيما عدا الاستثناء الوحيد وهو المعاصر التي تخص المعابد فهذه كانت تحتفظ بمعاصرها الخاصه ولكنها كانت مضطره الى تسجيلها والا ستئذان عند تشغيلها لفتره معلومه كل عام تحت اشراف الملتزمين والموظفين في عصر مقدار معين من زيت السمسم في معاصرها الخاصه وللاستهلاك المحلى داخل المعابد . ويتم هذا العصر طوال فتره محدوده هى شهران فقط اما باقى العام فكان ينبغى ان تبقى هذه المعاصر معطله وقد وضعت عليها الاختام للحيلوله دون استخدامها اما اذا كانت هذه المعابد فى حاجه الى شىء من زيت الخروع ( فعليها ان تقوم بشرائه من الملتزمين .

ولم يكن مسموحا للمعابد بحال من الاحوال القيام ببيع الزيوت •

كانت معاصر الزيوت التى تعمل لحساب الملك ، تخضع لرقابة دقيقة من قبل الحكومة ثم من قبل الملتزم • وكانت جميع المعاصر مسجلة ويجرى وضع الاختام على مالم يكن مستعملا منها ، كما كانت توضع الاختام على جميع الالآت المعطلة فى هذه المعاصر • وكان العمل الذى يتم فى هذه المعاصر يجرى تنظيمه بواسطة الملتزم والموظفين الاداريين • وكان المفروض ان يقوم هؤلاء بتزويد كل معصرة بالقدر الكافى من المواد الخام بلا زيادة ولا نقصان فى القدر الذى يكفى لتشغيل هذه المعاصر فعلا وكانوا مسئولين كذلك عن قدرة كل معصرة ودرجة كفاءتها فى اداء المهمة الموكولة اليها • اما عن مركز العمال فى هذه المعاصر وهم العنصر البشرى المهم وكان يطلق عليهم كلمة ( elaiourgoi ) فقد كانوا احرارا وليسوا عبيدا او اقنانا • ولكنهم مع ذلك كانوا خاضعين لاشراف دقيق ، انهم كانوا يعملون فى المعاصر فى فترة محددة طوال فصل التشغيل او العمالة • وبينما هم منكبون على العمل فى هذه الحقبة كانوا ملزمين بأداء هذا العمل والبقاء فى الاماكن التى توجد فيها هذه المعاصر ، فلايحق لهم مغادرتها او الخروج عن نطاق مكانهم فى المحافظة التى ينتمون لها • وكان الملتزم والموظفون الاداريون هم اصحاب السيطرة ( kyrioi ) فى فصل العمالة هذا وهم الذين يتحكمون فى المعاصر وهكذا كان اولئك العمال تحت السيطرة التامة فى فصل العمالة وهم يتسلمون فى مقابل العمل الذى يؤدونه مكافآت تقدر بحسب مايقومون بعصره من الارادب من مختلف البذور واذا حدث فى نهاية فصل العمالة ان وجد فائض ( épigenema ) فان العمال كانوا يحصلون على هذا الفائض مكافأة لهم على نشاطهم •

والمركز الدقيق الذى كان عليه اولئك المشتغلون فى معاصر الزيوت ليس واضحا ولا جليا ، فهم ينتمون الى طبقة ضخمة من اناس لهم ارتباط وثيق بموارد الدخل العام ويكنون بالاسم الشائع الاتى :

" epipeplegmenoi tais prosodois

وهؤلاء يمثلون فئة من الناس انها نصيب من الامتيازات كما تحملت بعض الالتزامات والقيود التي تثقل حركتها ، أسوة بما كان عليه الفلاحون الملكيون . ومع ذلك فليس هذا التصنيف بكاف في تعريف وتحديد المركز القانوني لهؤلاء الصناع . ونظرا لعدم وجود معلومات دقيقة في هذا الشأن ، فالغالب على الظن انهم كانوا من الحرفيين المهرة ، المدربين على العمل في هذه الحرفة ، ولربما كانوا ينتظمون في نقابات او طوائف مهنية ، ترعاها الحكومة البطلمية ، على اعتبار انها مؤلفة من افراد كانوا يؤدون مثل هذا العمل على مدى اجيال ، فحذقوا واصبحوا ممن لا يستغنى عنهم .

والقول بأنه في صدر العصر البطلمي ، ربما وجدت معاصر وعدد وآلات ، يمتلكها افراد ولكنهم في استعمالهم لها مقيدون ، بصرف النظر عن ماهية مركزهم القانوني ، يدل على انه في ماض ليس بالبعيد كان هناك عصارون للزيوت من اولئك الذين عملوا في معاصرهم الخاصة ولو لبعض الوقت ، وفي زمن ما ، لعله في عصر البطالمة الاولين ولربما قبل ذلك ، اصبح محرما تماما على الافراد انتاج زيوت من اي نوع كما حرم على الحرفيين من عصاري الزيوت القيام بعصرها لحساب الافراد ، وبذلك أصبح عصر الزيوت امتيازا خاصا ، انفرد به الملك وحده ، ولم يعد امام الصناع المهرة والحرفيين في هذا المجال الا ان ينضووا في خدمة الحكومة ، اما عن مركزهم القانوني الغريب — وهو المنطوي على حالة اشبه ما تكون بنصف العبودية — فان الشك ليساورنا في اعتبارها من مبتكرات البطالمة ، والافضل كثيرا ان نقول انها كانت من تراث الماضي ومرجعها الى ذلك الوقت الذي كانت فيه الطوائف الحرفية ( guilds ) في المعابد وفي المدن والقرى تعمل ولو جزئيا على اي حال من اجل الالهة والملك في معاصر كان اغلبها ملكا لهم .

## السياسة الخارجية التى انتهجها ملوك البطالمة الاولـــــــون

لكى نقدر السياسة الداخلية التى سار عليها ملوك البطالمة الاولون ونتعرف على كنهها بحيث يكون فى تقديرنا هذا توخى جادة الصواب ويكون هدفنا الوصول الى تقدير سليم بقدر المستطاع ، ينبغى علينا ان نحاول النظر فى التعرف على حقيقة المنهاج الذى رسموه لهذه السياسة فى شتى ميادينها الادارية والاقتصادية والزراعية والضريبية فهدف البطالمة من وراء هذا الاستغلال الشديد لشتى موارد البلاد كان بعيد المدى، ولعلنا نستطيع ان نجتلى شيئا من الحقيقة اذا ألقينا نظرة ، ولو عابرة ، على حقيقـــــة السياسة الخارجية كيما نتعرف على الاهداف التى كان البطالمة يرمون اليها من وراء الزج بانفسهم فى معترك السياسة الخارجية التى كانت فى مد وجزر فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط فى مدى اكثر من ربع قرن عقب وفاة الاسكندر الاكبر فى عام ٣٢٣ ق.م.

ان هذه السياسة كانت متأثرة الى حد كبير بالاغراض والاهداف التى داعبت خيـــال الملوك البطالمة الثلاثة الاولين ، فبغيتهم واهدافهم والمركز الذى كانوا يحتلونه فى عالم تسوده الحضارة الهيلينسية حتم عليهم سلوك طرق محفوفة بالمخاطر وكبدهم خــوض حروب عديدة . وللأسف الشديد ليست لدينا اية بينات واضحة او كاشفة عن كنه هذه الاهداف ، وانما نستطيع ان نسترشد ببعض الحقائق والامارات والتصرفات والتحركـــات التى صدرت فى شتى المجالات وذلك على الرغم من اختلاف التفسيرات وتباين الآراء .

أولا : هناك رأى يقول بأن سياسة البطالمة الخارجية كانت عدوانية و هجو ميـــــة ( Offensive ) وقد انبرى العالم الالمانى الريخ فلكن ( Ubrick Wilcken ) فى مطلع هذا القرن للدفاع عن وجهة النظر هذه .

وفى رأيه ان غرض الحكم البطلمى فى مصر كان ينطوى على الحصول على أقصى مايمكـــن من ثروات مصر كيما تكون البلاد فى وضع يمكنها بفضل هذا الثراء العريض وهذه المـــواد الطائلة وبفضل جيش قوى واسطول ضخم من أن تقوم بدور رئيسى فى معترك السياســـة لخارجية فى حوض البحر المتوسط . ولا ينبغى علينا وسط هذا الخضم ، ان ننوه عنـــا

حقيقة مهمة وهي ان مصر وسط هذه الامبراطورية المترامية الاطراف والممتدة من برقة غربا الى قبرص شمالا والى فلسطين وسوريا الخالية Coele-Syria = سهل البقاع ( لبنان ) شرقا ثم اجزاء من سواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر الارخبيل ـ كانت مصر في نظر البطالمة هي المورد الرئيسي والمعين الذى لاينضب وهي مصدر الخير العميم وحاصلاتها متنوعة وعديدة ومتجددة وصناعاتها وحاصلاتها مطلوبة ، ويخلص العالم الالماني " ألريخ فلكن " الى حقيقة مهمة وهى ان الهدف من وراء هذا كله والغرض الاسمى من انتهاج هذه السياسة هو الطمع لصالح سياسة خارجية بعيدة عن مصر ومعنى هذا ان مصر كانت وسيلة وليست غاية في حد ذاتها ، على ان هذا المبدأ كانت تكتنفه صعاب وقد تكبدت البلاد شططا وغرقت في حروب واطماع لا طائل من ورائها ، وقد تحلى البلاد المصرية ببعض الثمار من وراء ملك شاسع وبناء امبراطورية مترامية الاطراف ولكن هذا كله على حساب مواردها ، وقد يكون في هذا تأمين لحدود البلاد وابعاد بعض الاخطار عنها .

ثانيا : هناك رأى آخر يطلع به علينا عالم روسى الاصل ، متأمرك اسمه ميخائيل روستفتزف ( M.Rostovtzeff ) ولهذا العالم باع طويل في الدراسات في التاريخ اليوناني الروماني وله نشاط ضخم في هذا المجال وله كتب موسعة وخبرة عميقة بالمصادر الاصلية والنصوص البردية والنقوش المختلفة عن هذا العصر ولا سيما مايخص مصر والممالك الهيلينستية . ومن اجل ذلك ينبغى ان نقيم وزنا كبيرا لآرائه على الرغم من انها جاءت متعارضة تماما من آراء العالم الالماني فلكن وفي رأى روستفتزف ان الفكرة الاساسية التى كانت رائد ملوك البطالمة الثلاثة الاولين : بطلميوس الاول ( سوتير ) ٣٠٤ ـ ٢٨٤ ق.م. وبطلميوس الثاني ( فيلادلفوس ) ٢٨٤ ـ ٢٤٦ ق.م. وبطلميوس الثالث ( يورجتيس الاول ) ٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م. تأرجحت وتراوحت بين المد والجزر والاقدام والادبار وقد خيل الى هؤلاء الملوك الثلاثة امكانية تكوين امبراطورية مترامية الاطراف ، قوامها مصر كمحور ارتكاز ، والهدف من وراء ذلك مصر المستقلة وهي آمنة مطمئنة من غائلة الاعداء الخارجيين ــــ

الشمال او الجنوب • ولكى تضمن سلامتها وتؤمن جانبها ،كان لابد عليها ان تكون سيدة فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ،كيما يتحقق لها الاشراف والسيطرة على الطرق البحرية الموصلة لمصر • وهذه المهمة فى حد ذاتها كانت صعبة المنال ويعتريها شيئ من التعقيد • وفى عهد الفراعنة طوال عهد الاسرات فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة كان التطلع الى الاستحواذ على الشاطئ السورى كفيلا بعمل الضمانات اللازمة لتأمين البلاد ولكن فى خلال الالف سنة قبل الميلاد كانت هناك تطلعات نحو آسيا الصغرى وحدث نمو فى القوة البحرية لدى اليونان مما اغرى حكام مصر بمد نطاق نفوذهم السياسى الى حوض البحر المتوسط كله ولم يكن هذا بقصد الغزو والفتح او التحكم فى مصائر اليونانيين فى بلاد اليونان او فى آسيا الصغرى وانما كان بغرض المراقبة الدقيقة للقوات البحرية وكبح جماح اليونانيين حتى لايقطعوا المواصلات البحرية عن مصر ويحولوا بينها وبين شواطئها الشمالية وشواطئها الشرقية فى كل من الشام وآسيا الصغرى • على ان هذه السيطرة كانت تتطلب ايجاد اسطول قوى وهذا يحتاج بدوره الى موارد طبيعية هائلة لاتتوافر فى مصر ومن ذلك الاخشاب من اشجار الارز بلبنان والمعادن من قبرص • ولما كانت الاخشاب والمعادن هى الشرط الاساسى لبناء اسطول قوى وينبغى استيرادها او الحصول عليها من الخارج فان خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى التحكم والسيطرة فى مصير البلاد المنتجة لهذه السلع وفيها الغابات والمناجم • ولعل هذا هو السبب فى ان مصر احتفظت وينبغى ان تحتفظ دائما بسيناء وتطلعت فى وقت ما الى سوريا الحالية وقبرص وبعض اجزاء من سواحل آسيا الصغرى والاناضول كاريا وليكيا ( Lycia ) • وهناك سبب آخر لايقل اهمية عما سبق وهو ان قوة مصر وثروتها تعتمد على التجارة الخارجية ورواجها وانتظامها • ولكى تستطيع مصر الحصول على مايلزمها من الجنود المرتزقة وهم عدة الجيش فى ذلك الحين ،ثم تحتفظ بأسطول قوى ،كانت فى حاجة ماسة الى خزائن مليئة بالاموال للصرف على هذا الاسطول • وهذا لايتأتى الا برواج تجارة خارجية ،تحصل منها على الذهب والفضة ثم ان هذه التجارة نفسها كانت تتطلب توفر السيطرة البحرية لتأمين الطرق التجارية •

وعلى ذلك كان فلكن يرى ان مجوعى زعدوانى طابعه مقدونى وهيلينى ورجع اصله ونشأته الى مواطن بعيده كل البعد عن مصر فالامبراطوريه هى الغايه القصوى ومصر الا الوسيلـــه الى تحقيق هذه الغايه وتتلخص هذه السياسه فى كلمه السانيه واحده ذكرها فلكن وهى ومعناها السياسه التى هدفها تكوين امبراطوريه عالميه اما بحسب ما ذكره رستفنزف فــان تلك السياسه الامبرايالية كانت سياسته فاعليه بحته ذات طابع اقتصادى وكان يتعين بمقتضــاها ان تكون سلامة مصر ورواج تجارتها هما الهدف من وراء هذه الامبراطوريه التى كانت مجـــرد وسيله لتحقيق غايه .

وبالاضافه الى هذه الاراء المتعارضة والنظريات المطروحه بساط البحث هناك فكره ثالثــه قوامها ان الملوك البطالمه الثلاثه الاولين كان ينسب اليهم توفر اطماع توسعيه بقصد ازديــاد رقعه املاكهم الى حدود العالم المأهول بالسكان وانهم كانوا يتشبهون احيانا بالاسكندريــه الاكبر فى طموحه الى تكوين امبراطوريه عالميه . وصاحب هذه النظريه هو عالم المانى يسمــى كورنمان (          ) .

على ان مبلغ علمنا عن الاجراءات والتصرفات التى قام بها بطلميوس الاول بمن لاجوس وهــو الملقب فيما بعد بلقب المخلص (     ) تكاد لا تبرر ما قد ينسب اليه من هذا الحلم العريــض فهو رجل حصيف عرف عنه انه جالت بخاطره بعض الاطماع ولكنه كان حريصا ، يتلمس الخطى قبــل الاقدام على شئ وكان يعرف جيدا من اين توكل الكتف فكان يقدم احيانا ثم يدبر احيانا اخــرى وكان اذا ما المت به كارثه ، ياوى الى مصر وهى القوقعه التى كان يحتمى فيها حتى يزول الخطــر رجل من هذا الطراز لا يمكن ان تنسب اليه اطماع بعيده المدى . قد تكلفه غاليا وهو الشخــص الذى اختار مصر بمحض ارادته لتكون نصيبه فى ملك الاسكندر باعتباره احد هؤلاء الخلفــاء (          ) وكان على راسهم بردبكاس (          ) وفيهــــــــم

سيلوقوس ( Saleucus ) وانتيجونس ( Antigonus ) وانتيباتـــر ( Antipater ) وكاساندر ( Cassander ) وليسيماخوس ( Lysimachus ) وغيرهم . ومن بين كل هؤلاء القواد وقع اختيار بطلميوس على مصر وآثر ان يفوز بها دون غيرها من دولة الاسكندر وقد حكمها اولا بالنيابـــة لا بالاصالة ، فكان الوالى عليها بوصفه ساترپا ( Satrap ) اى مرزبان من قبـل صاحب الحق الشرعى وهو ابن الاسكندر الرضيع من روكسانا ( Roxane ) الزوجة الفارسية التى كان الاسكندر قد تزوجها فى آخر حياته وكان هذا الطفل هو الاسكندر الرابع ويشترك معه فى هذا الملك المريض كوصى ، اخ غير شقيق للاسكندر اسمه فيليب اريدايوس ( Philip Arrhidaeus ) ولكن بطلميوس ما لبث ان تنكر لهذين الاثنين وتخلص الجميع من ابن الاسكندر ومن اخيه وخلا الجو لبطلميوس بعد عام ٣٠٥ ق.م . فاعلن بطلميوس نفسه ملكا على مصر منذ عام ٣٠٤ وبقى متربعا على هذا العرش حتى وافته المنيا عام ٢٨٤ ق.م . وفى خلال هذه الفترة التى امتدت عشرين عاما ، نهض فيها بأعباء جسيمة منها اتمام بناء مدينة الاسكندرية ومتابعة شن حروب فى مختلف الميادين ، فضم برقة الى مصر وضم قبرص الى حكمه وكذلك بعض جزر بحر الارخبيل . ومن خلال كل هذه التصرفات والاعمال العمرانية التى اضطلع بها ، يمكننا ان نجتلى حقيقة الطبيعة التـى كان عليها هذا القائد المغوار وماكان يتحلى به من صفات الرجل الذى أوتى قدرا عظيما من الكفاية والمقدرة الهائلة . انه كان يغلب السياسة على حمل السلاح وكان يؤثر استخدام اللين واستعمال الدهاء والتصنع حتى يحقق آماله وكان يعرف الممكن وغير الممكن . حقيقة انه جالت بخاطره اطماع ملكية ، مثله فى ذلك مثل باقى زملائـه واقرانه . وفى سبيل ذلك عمد الى استخدام العزيمة التى لاتكل ولاتفل — كل هـذا فى هدوء وأناة وصبر ، لايعرف الكلل ولا الملل . انه بطلميوس بن لاجوس وامه ارسينوى ومنبته يرجع الى اصل مقدونى نبيل فهو اذا كريم المحتد ، تربى وسط الغلمان الملكيين فى بلاط مقدونيا ، وكان رفيقا للاسكندر فى جولاته وصولاته وابدى قدرا عظيما مـــن الاخلاص والوفاء للاسكندر عندما اختلف مع ابيه فيليب الثانى . وكان يبدو عليه الثمـات

والهدوء فى تصريف الامور التى كانت توكل اليه وقد اظهر شجاعة منقطعة النظير فى شتى المناسبات فى صدر شبابه . فلم تبهره عظمة بلاد الشرق ولا ابهته . وقد بقى طوال حكمه فى مصر محتفظا بطابع الرجل المقدونى المتسم بالبساطة . حقيقة انه كان مخلصا وفيا للاسكندر فى حياته ولكنه لم يكن شيئا من الاخلاص على الاطلاق لاخ للاسكندر هو فيليب أرهيدايوس الذى عرف بالمعتوه ولا يؤمن بابن للاسكندر من أم فارسية فتنكر له . وكان اول من قلب ظهر المجن لفكرة وحدة الامبراطورية والمحافظة على كيانها ولذلك قضى فترة حكمه فى مصر فى حروب طاحنة وكفاح مرير مع كل من كانوا يودون المحافظة على هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وكان هذا من المبادىء الاولى التى كان يؤمن بها فى سياسته . ولكنه بعد ان ضمن لنفسه الاستقلال بمصر والاستئثار بها ووطد مركزه فيها . بل وفى اثناء اشتغاله بالدفاع عن هذا الاستقلال لوادى النيل ضد برديكاس وغيره من زملائه وجيرانه . وجدناه يحاول بسط نفوذه على البلدان المجاورة وهى البلدان التى تعتبر امتدادا طبيعيا لوادى النيل مثل فلسطين وبرقة وسوريا الخالية وتم له بالفعل الاستيلاء على برقة بمجرد ان جاء الى مصر واليا عليها ثم لما ثبت اقدامه فى مصر . اتجهت كل جهوده الى تحقيق السيطرة على فلسطين وسوريا الخالية وفينيقيا ثم تحققت له السيطرة على قبرص . وهذا البرنامج العريض هو الحلم الذى جال بخاطر الجالس على عرش مصر ولا يخرج عن المنهاج الذى ارتآه العالم الروسى رستفتزف . اما السيطرة على جزر السكلاديس ( Cyclades ) او الجزر الدائرية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ثم فرض الاشراف على شواطىء آسيا الصغرى عن طريق اخضاع كيليكيا او الاناضول وكذلك شواطىء كاريا ( Caria ) فهذا كله من الامور التى يمكن ان نجد لها تفسيرا ومبررا فى ضوء ذلك البرنامج الذى وضعه بطلميوس الاول واختطه لنفسه ولم يحد عنه ولكن الامر الذى لا نجد له اى مبرر ولا نستطيع ان نجد له تفسيرا مقنعا . ذلك هو اقدامه ومغامرته فى ٣٠٩ — ٣٠٨ ق.م . بالتدخل فى شئون جزيرة اليونان والعبث بها ومحاولته فرض سيطرته فى شئون شبه جزيرة البلوبونيز وكورنثه وسيكيون — من ان هذا كله مما يدخل قطعا فى مجال

المغامرات المحفوفة بالمخاطر من اجل تكوين امبراطورية عالمية والرغبة الاكيدة فى فرض السيطرة على عالم بحر ايجه • ولكن هذا الحلم كان مجرد حدث ع ارض داعب خيال بطلميوس فى تاريخ حياته الطويل • فلما بدأت الصعاب وقامت العراقيل وتلبدت السحب امام ناظره فى بلاد اليونان كف عن ذلك وتوقف فى وادى النيل الى حين ومالبث ان عدل عن الاهتمام بمثل هذه المشروعات ذات الافاق البعيدة وعاد ادراجه الى الاسكندرية فلم يغب عن خاطره لحظة أن مصر هى القلب النابض • والدرة التى ينبغى ان يفتديها بكل شيىء ويركز كل اهتمامه عليها ومع ذلك فلم يشأ • ان يؤسس فيها غير مدينة واحدة هى بطلمية فى جرجا لتكون منارة فى الصعيد •

وسياسة مؤسس دولة البطالمة •تقدم لنا صورة عامة وغير متكاملة او رسما تخطيطيا لما ينبغى ان يكون عليه الامبراطورية البطلمية فى مستقبل ايامها على عهد ابنه وخلفه بطليموس الثانى • اذ تحقق بالفعل له حكم هذه الامبراطورية لاول مرة بعد الاسكندر • فماذا كان طابع هذه الامبراطورية وما مداها ؟ هذه اسئلة قد تعرض للباحث• ونحن لانعرف شيئا كثيرا عن شخصية بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس (Philadelp hus) اى المحب لاخته وزوجته الثانية أرسينوى الثانية ولذا لايمكننا التعرف على حقيقة مآربه ومقاصده ومدى الخطط التى كان يضعها البلاط السكندرى فى عهده • ذلك ان الكتب التى دبجها المؤرخون القدامى عنه وعن تاريخ حياته وفترة حكمه قد ضاعت ثم ان شعراء بلاطه وهما ثيوقراطس (Theocritus) وكاليماخوس (Callimachus) كانا حريصين على تقريظه ونشر القريض عنه والتغنى بأعماله • وتوخى كل منهما المبالغة والافراط فى المديح له • ولذلك لايمكن التعويل على احد منهما والاعتماد عليهما فى اعطائنا صورة حقيقية عن اعماله ومآربه •بله مدى امبراطوريته والبلاد التى دانت له وهو يحكم مولده واحقيته فى وراثة العرش •لم يكن مؤهلا لتولى الملك فى مصر •لانه كان ابنا لامه برنيقه وهى الزوجة الثانية لبطلميوس سوتر وكانت الزوجة الاولى هى يوريديكى (Eurydice) ابنة انتيباتر قد ولدت لسوتر ثلاثة ابناء آخرين اكبرهم

بطلميوس الصاعقة ( Ceraunos ) ولكن الملك العجوز مالبث ان اسبغ عطفه على ابن الزوجة المفضلة لديه وهو برنيقه وكان هذا الطفل قد ولد في جزيرة صغيرة تسمى قوص ( Cos ) احدى جزر مجموعة الجزر المتفرقة ( Sporades ) وقوص هذه جزيرة مستعرضة واقعة على مقربة من ساحل آسيا الصغرى صوب الجنوب وكان مولد هذا الطفل في هذه الجزيرة في عام ٣٠٩ ق٠م٠ عندما كان والده يعد العدة لحملة يعتزم شنها على بلاد اليونان واضطر ان ينقل بلاطه الى هذه الجزيرة ليكون على مقربة من ساحة العمليات العسكرية في بلاد اليونان فكان مركز قيادته واركان حربه في هذه الجزيرة ٠ وكان من حسن الطالع ان هذا الامير الصغير حظي بأحسن قسط من التعليم وتلقى تعليمه على يد خير المربين والمعلمين وهم الشاعر فيليتاس ( Philetas ) من اهل جزيرة قوص ثم النحوى زينودوتس ( Zenodotus ) والرواقى استراتون (Straton) من اهل لامبساكوس على الشاطىء الجنوبي من البسفور ٠ لقد نشأ هذا الشاب في وسط كله ملق ومداهنة ولذلك ليس بعجيب انه كان تواقا الى الاعتداد بالنفس مليئا بشيء كثير من الغرور الى ان بحق ٠ رجلا مثقفا ٠ حريصا على صداقاته مع رجالات الادب والفكر حتى اصبح يلقب بكلمة دالة على كل هذه المعاني وهي ( mousikotatos) اى اكثر الناس تعشقا لربات الفنون ( Musae ) ونحن نعلم من ثنايا وثائق البردى التي ترجع لعصره وهي كثيرة جدا ومن اهمها ذلك الارشيف الهائل المعروف بأرشيف زينون ٠ان هذا الملك كان محبا للعلوم الطبيعية ٠حريصا على اقتناء الحيوانات الاليفة وبخاصة الغريب منها ٠فكان الامراء وشيوخ القبائل في فلسطين وبلاد ماوراء الاردن وبخاصة الشيخ المشهور ويسمى " طوبيا " يقدمون له الهدايا في شتى المناسبات من هذه الاصناف الغريبة ٠ ثم انه كان من جانبه لايتوانى عن ان يبعث رسلا لاصطياد الفيلة والغزلان وشتى انواع الحيوانات الغريبة من وسط افريقيا ومن اثيوبيا واعالى نهر النيل وكان يحتفظ بهذا الصيد النادر في حديقة الحيوانات بالاسكندرية ٠ ثم ان هذه النزعة في حب الاحتفاظ بهذه الطيور والحيوانات الغريبة ٠صاحبتها رغبة ملحة في اقامة المهرجانات والاحتفالات

والمواكب ذات الهيبة والروعة في شتى المناسبات بالاسكندرية وكان لايضن بشئ ، بل يصرف بسخاء ليكسب هذه المهرجانات طابعا من الابهة . ولدينا الشئ الكثير من المعلومات عن هذه الاحتفالات ففي وصف رائع خلده كاليكسينوس ( Callixenos ) وذكره أثينايوس ( Athenaeus ) ورد ده كتاب عديدون من قبيل التدليل والاشادة بحكم هذا الملك ومبلغ ماكان له من عظمة الشئ الكثير ، فاذا ماطالعنا هذا الوصف الرائع في كتاب أثينايوس وجدنا موكبا فخما حرص هذا الملك على اقامته في حلبة الالعاب ( الاستاديوم ) بالاسكندرية في المناسبة الثانية من عيد الاسرة البطلمية ( Ptolemaeia ) وهو عيد يحتفى به كل خمس سنوات ويطلق عليه كلمة دالة على فترة الخمس سنوات هذه وهي ( Pentaeteris ) وهذا العيد الخمسي الثاني اقيم في عام ٢٧٩ ق.م. تخليدا لذكرى الالهين المخلصين ( Theoi Soteres ) . وهناك وصف رائع آخر ذكره ثيوكريتوس في قصيدة رعوية هي القصيدة الخامسة عشرة من سلسلة قصائده التي كان يتغنى بها الرعاة . وذلك في مناسبة عيد أدونيس Adonis وهو شاب جميل كان ابنا لملك قبرص ثم احبته الالهة افروديتي الهة الجمال وكان من سوء حظه انه وهو يصطاد قتله دب بري. وفي الاسكندرية كان يحتفى به في مهرجان رائع بمناسبة زواجه من افروديتي ثم في اليوم التالي كان النسوة يحملن صورته متجهات او ميممن صوب ساحل البحر وسط نواح وصراخ وعويل بكاءا على فقده وحظه العاثر وفي آخر المطاف يسوق لنا نصوص البردي العديد من الشواهد والادلة على مدى اهتمام هذا الملك بتلك المواكب وهذه المهرجانات وماكان يشاهد فيها من مناظر شائقة تستهوي ايضا الناظرين وتبهرهم بما كانت تنطوي عليه من عظمة هذا الملك واتساع ملكه وسلطانه . وقد اتحفنا مؤخرا عالم بريطاني هو فريزر ( P.Fraser ) بشروح مستفيضة في كتاب صدر له منذ بضع سنوات عنوانه " الاسكندرية في عصر البطالمة " ( Ptolemaic Alexandria ) اوضح فيه ماكان يجري في هذه المهرجانات من مواكب وماكان يراعى فيها من طقوس ومراسم لمختلف العبادات واخصها عبادة الاله ديونيسوس ( Dionysus ) . ولدينا في أرشيف زينون

وثيقة بردية تحمل خطابا موجها من وزير المالية ابوللونيوس الى عاملة المقيم بفيلادلفيا مركز ضيعته باقليم الفيوم وفيه طلب عاجل بأن يوافيه بالهدايا المقدمة الى الملك في مناسبة عيد ميلاده او في احد الاعياد والمواسم الاخرى التي كانت تتكرر على مدار السنة. وكان يحاكي هذا الوزير آخرون من اعيان البلاد في تقديم الهدايا في مناسبة عيد التاج وغيره . ولا ينبغي علينا ان ننظر الى هذه الوثائق على انها كانت حالات فردية لا يؤبه بها وانما ينبغي ان نأخذها في الاعتبار لما تكشف عنه من ادلة على عظمة هذا العصر وعلى نوعية المجالات والاهتمامات التي كان الملك يعني بها ويوليها اهمية خاصة .

ان هذا الملك الشاب كان على النقيض من والده من حيث الجسارة والاقدام والمسارعة الى امتشاق السلاح والسير على رأس جيشه في المعارك وميادين القتال . ففي القليل النادر كان ظهوره في ساحة القتال وكان غالبا ما يعول على قواده فيكل اليهم تلك المهام . اما هو فكان يؤثر الاهتمام بشئون الدبلوماسية والسعي الى تحقيق اغراضه واهدافه عن هذا الطريق ، بدلا من حمل السلاح . على ان السياسة التي انتهجها في اول الامر كانت موحى بها من قبل اخته وزوجته الثانية وهي ارسينوي الثانية وكانت تلقب بحبيبة اخيها اي انها فيلادلفوس ( Phitadelphus ) ثم اسبغ هذا اللقب على اخيها وزوجها فيما بعد فأصبح يعرف ببطلميوس فيلادلفوس وكانت ارسينوي هذه امرأة قديرة ترتعد لها فرائص الاخرين من شدتها وجبروتها وما اتصفت به من القدرة على الحزم والصرامة . انها كانت تكبر اخاها بسبع سنوات وكان لها نشاط جم وان كان في كثير من الاحيان غير مستحب اما اخوها وزوجها فكان بالنسبة لها كالحمل الوديع وكثيرا ما يوصف بأنه مثل ابوللو على خصائل من الشعر الاشقر ، الذهبي اللون وكان يمثل بأنه الشخص المنهمك في الملذات ، ذو الصحة المعتلة والحريص باستمرار على ان يحيط نفسه بالملذات والمباهج — تلك هي الصورة التي ابرزها لنا استرابون في موسوعته التاريخية — الجغرافية عنه ( ٧٨٩ ) وقد يكون في وصف استرابون هذا شيء كثير من الصدق ولكن هذه الصورة برمتها لا تمثل الحقيقة ، فبطلميوس الثاني كان اعظم ملوك البطالمة على الاطلاق وسياسته التي اتبعها ازاء روما

عندما وقع الخلاف بينها وبين جارة مصر من الغرب وهى قرطاجة ( Carthago )
( تونس حاليا ) فى الحرب الاولى بين روما وقرطاجة ( ٢٦٤ ـ ٢٤٢ ق٠م٠ ) تدلنا على حصافة وبعد نظر وكانت تربطه بروما اذ ذاك صلة صداقة وبينهما معاهدة منذ عام ٢٧٣ تؤكد هذه المودة والصداقة ( Amicitia ) فلما وقع هذا الخلاف وتمخض عن حرب سافرة ٠ آثر ان يكون واسطة صلح بين الطرفين وان يقوم بدور الوسيط الذى يود اصلاح ذات البين بين الطرفين ولم يشأ ان ينحاز لاحدهما ٠ وهذا دليل على منتهى الحيطة والحذر من جانب هذا الملك الشاب ٠

ولما توفيت اخته وزوجته فى شهر يوليو من عام ٢٧٠ ق٠م٠ حزن عليها حزنا كثيرا ٠ افتقد فيها ذلك العقل الرزين وتلك اليد القوية البارعة ٠ وقد حكم بعد ذلك منفردا ٠ مكتفيا بأن يحيط نفسه بالخليلات والمحظيات من مثيلات بيليستيشة (Belistiche) التى حصلت على جائزة فى عام ٢٦٨ ق٠م٠ فى سباق جر المركبات الذى عقد فى اوليمبيا ببلاد اليونان وليس فى وسعنا ان نتعرف على سبيل اليقين ماذا كانت فئة من هؤلاء النسوة الخليلات او بعض وزرائه المقربين من امثال ابولونيوس ( Apollonios ) وزير ماليته ( dioecetes ) المشهور الذى بقى فى منصبه طول الخمسة عشر سنة الأخيرة من حكم هذا الملك من ٢٥٩ حتى ٢٤٦ ق٠م٠ كان لهم نصيب معلوم فى توجيه السياسة وتسيير دولاب الاعمال ودقة الحكم الداخلى ٠ وهناك امر نعرفه عن بطلميوس فيلادلفوس على سبيل اليقين وهو ان هذا الملك العظيم لم تكن عينة تغفل عن اى شئ ولم يعرف عنه انه اهمل شيئا من صغائر الامور مما قد يؤثر فى تحريك دولاب اعمال ديوانه وانه كان قابضا على ناصية الحكم بيد قوية وان عهده شهد بيروقراطية اصبحت مضرب الامثال فى سياسة الحكم البيروقراطى ٠ تسير دفتها بمنتهى الدقة حتى قيل ان هذا الملك كان يدرى عما يجرى فى انحاء مصر وانه لم تكن تفته لا شاردة ولا واردة ٠ فكان يعرف مايجول بخواطر الناس وما تجيش به نفوسهم من اقصى البلاد فى الجنوب حتى اطرافها النائية شرقا وغربا ٠ فهو اذا كان الملك القدير والادارى العظيم ٠ ولا يمكن ان يجاريه احد من ملوك

البطالمة فى هذا الجانب ولدينا مثل رائع على مدى اشتماله بموضوعات جانبية منها موضوع اسكان الجند ( Stathmodosia ) وتوطينهم بمنحهم رقعا من الارض تزيد وتنقص بحسب الرتب العسكرية وهو النظام الذى عرف بالاسم الاتى ( Kleruchia ) وهذا النظام له شقان : مسكن وقطعة من الارض توفر له القوت كبديل عن الراتب والاجر ، فكان نظاما ابتدع لهذه الافواج الهائلة من الجنود المرتزقة ليوفر عليهم وعلى الحكومة عناء البحث عن سكن ومورد للرزق وهم جنود مجلوبون من الخارج من كريت ومن مقدونيا ومن آسيا الصغرى ومن شتى جزر بحر الارخبيل حضروا للانضواء فى خدمة هذا الملك السخى فى معاملة الجند ودفع رواتبهم واغداق شتى المزايا عليهم وكان هدف الملك ان يحتفظ بهذا الجيش المرابط تحت تصرفه وتحت طلبه فى اى وقت فقد بر لهم الاقوات والبدائل عن الرواتب وعين لهم المساكن والكثنات وكان اسلوبه هذا فريدا فى نوعه ، وعمليا وواقعيا فى حقيقته ، افاد به مصر ونهض باقتصادياتها عن طريق الاستعانة بطائفة من اليونان والمتأغرقين المثقفين ، فى فلاحة الارض والاعمال الهندسية والعمرانية التى ترتبط بالزراعة ثم فى تحضير وتمدين الجمهرة الغفيرة من السكان المصريين الذين كان يعيشون ظهرانيهم اولئك الجنود والضباط فى حياة ريفية رتيبة فاستفادوا وافادوا ، ولدينا خطاب موجه من الملك الى احد هؤلاء القادة العسكريين والمسئول عن فرقة من الجند هو انطيوخس ( Antiochus ) وكان يحوز نفسه قطعة كبيرة من الارض ويلقب نفسه دالة على ذلك فهو myriarouros ات صاحب الف ارورات ، والارورا فدان يونانى يساوى ٦/٧ من الفدان المصرى وكان eponymous commader — اى ينسب اليه الجند ويتبعونه باعتبار انه هو الذى جلبهم ( جنّدهم ) ، كتب اليه الملك خطابا منشورا ضمن مجموعة من اوراق البردى التى نشرتها جامعة المانية هى هالى ( Halle ) وتسمى Papyrus ( Halensis ) وفى هذا الخطاب تحدث الملك بصراحة عشرة (166 – 185) وكشف عن تبرمه بما سمعه عن تصرفات الجند والضباط فى منطقة ادفو او (apollonopolis magna ) وارتكابهم مخالفات جسيمة وعدم التزامهم بما جرى عليه العرف من توزيع ثكنات عليهم ليقيموا

فيها بواسطة الموظفين المختصين وهم مندوبو وزير المالية فى الاقسام الادارية وكانـــوا يعرفون باسم oikonomoi بل يرفضون مايعطى او يخصص لهم ويعمدون الى التصرف العشوائى واستخدام العنف واقتحام مساكن الاهالى وطرد اصحابها واحتلالها بالقـــوة الغشومة ،وقد طلب الملك ايقاف مثل هذه التصرفات فورا ومنع حدوثها وعدم التصرف فـــى هذه المساكن عندما يغادرونها لا بالتأجير من الباطن او بتغيير معالمها ولا يوضع الاختام عليها حتى يعودوا اليها ،كما لو كانت ملكا خالصا لهم ،مع انها اساسا ملك الملك وحده .

وهذا الخطاب وغيره من الاوامر الملكية التى اصدرها الملك فى هذا الصدد وهى واردة فى مجموعة بردى مشهورة — تحمل اسم فلندرز بيترى( Flinders Petrie ) يقدم الدليل الواضح على مدى عناية الملك بشئون الجند وعلى مدى سخطه وتبرمه مما كان يجرى من مخالفات تحت سمع الحكومة وبصرها من طبقة الجند والضباط وهى الطبقة التى خصها بجل عنايته .

ثم ان الوثائق البردية قد كشفت لنا عن جوانب اخرى من حياة هذا الملك ، فصورته وهو يقوم برحلات تفتيشية وزيارات لاقليم الفيوم وهو الاقليم الذى كان يطلق عليــــه اولا اقليم البحيرة lommander نسبة لبحيرة قارون ثم تغير الاسم الى الاقليم الارسينويتى نسبة لاخته المتوفاة ،فترى الملك وهو يتفقد اعمال الرى والصرف والاعمال الهندسيــــة والانشاءات العمرانية التى كانت تتم فى هذا الاقليم وبخاصة فى بلدة فيلادلفيا الواقعـــة فى شرقى هذا الاقليم على حافة الصحراء وهذه كلها اعمال كانت تجرى بسرعة فائقة . وكانت هذه الاعمال الاصلاحية وبخاصة استصلاح الاراضى والتوسع الافقى على حدود اقليم الفيـــوم يسير على قدم وساق وبطريقة اقل مايقال فيها انها كانت تتسم بحمى السرعة ،فالملك ووزراؤه وكبار موظفيه كانوا لايتوانون ولايفرطون فى شئ من هذا المنهاج الاصلاحى الواسع المدى . ونجد صدى هذا فى خطاب منشور ضمن اوراق بردى " بيترى " موجه من ابن مهندس مقيم باقليم الفيوم اسمه كليون ( Cleon. ) الى ابيه وفى هذا الخطاب اشارة الى غضب الملك على هذا المهندس الكبير وصاحب المشروعات الضخمة فى اقليم الفيوم . وعلى الرغم من

هذه الجهود الجبارة لم ينج من توبيخ الملك الذى انحى عليه بالائمة لتفريطه .

والمعروف عن بطلميوس الثانى انه كان اغنى ملوك عصره ، بل وربما كان اقواهم .
وكانت عظمة مصر وماتحقق لها من تطور سريع ونجاح وفلاح ، بفضل مساهمة الظروف المواتية ،
فلم يصادفه شيء من الصعوبات التى عاقت نظراءه من الملوك المعاصرين ، وانما كان الطريق
ممهدا ، فانطلق يدعم حدود البلاد فى الجنوب صوب النوبة ويفرض سلطانه فى الشــــرق
الجنوبى من سوريا وفى بعض المدائن فى فينيقيا مثل صور وصيدا ثم استطاع آخر الامر ان
يفرض سيطرته على حلف الجزر فى مياه بحر الارخبيل .

انه بعد الحرب السورية الاولى بين كل من بطلميوس الثانى وانطيوخــوس الاول
( ٢٧٤ — ٢٧٢ ق.م. ) تم عقد السلم بين الطرفين فى عام ٢٧٢ ق.م. وبمقتضاه توطدت
الامبراطورية البطلمية وباتت معالمها . وفى ذلك الحين او قرابة هذا التاريخ ، دبج شاعر
البلاط السكندرى ثيوقريطس قصيدة كال فيها المديح لبطلميوس وكان تاريخ هذه القصيدة
قبل عام ٢٧٠ ق.م. لانه جاء بها تنويه واشارة الى الملكة الاخت ارسينوى الثانية فقيل
عنها ان الملك هو " الاخ والزوج العزيز " لارسينوى الثانية بالطبع ومعنى هذا انها كانت
اذ ذاك لاتزال على قيد الحياة . وفى شهر بشنس ( يوليه ) من عام ٢٧٠ ق.م. توفيــت
وجاءت اشارة الى هذا الحدث الاليم فى حجر منديس (Stele of Mendes) فقيــل :
انها رفعت الى المقام العالى عند " رع " او هارما خيس ( Harmachis ) كنايــة
عن وفاتها وقد مضى هذا الشاعر فعدد اسماء البلدان والشعوب التى كانت تدين بالولاء
والخضوع لبطلميوس فذكر بالاضافة الى فينيقيا وسوريا ، شعوبا اخرى كثيرة منها الاثيوبيــون
ذوو البشرة " الداكنة " وجزر السكلاديس ( او الجزر الدائرية حول جزيرة ديلوس ) ثـــم
تجاوز هذا الشاعر فى امعانه وخوضه فى تعداد الشعوب فذكر بلاد العرب وليبيا وبامفيليا
واهل كيليكيا واهل كاريا ، وكان فيلادلفوس قد استطاع ان يسترد نفوذه فى منطقة الاناضول
فى اثناء الحرب السورية الاولى .

على ان هذه الرقعة الواسعة لم تبق فى حوزة مصر وانما فقدت مصر جزءا كبيرا من هذه الامبراطورية بل ومن السيطرة والسيادة التى كانت لمصر على البحار بعد ان كانت شواطىء آسيا الصغرى كلها تخرج من ايدى فيلادلفوس عقب معركتى قوص ( Cos ) ٢٦٢ ق.م. وافسوس. وقد توفى الملك فى يناير سنة ٢٤٦ .

## بطلميوس الثالث :

تولى بطلميوس الثالث الحكم فى عام ٢٤٦ ق.م. واستمر فى الحكم حتى ٢٢١ ق.م. وكان ابنا لفيلادلفوس من زوجته الاولى ارسينوى الاولى التى طلقت ونفيت الى قفط قبل زواجه من اخته ارسينوى الثانية وشاءت هذه الملكة القديرة ان تتبنى هذا الابن وتحتضنه واصبح يطلق عليه فى الوثائق الرسمية على انه ابنها ثم اسبغ عليه الشعراء كنية مؤداها انه كان يتصف بدماثة الخلق ورقة الطبع وتأكد هذا المعنى فى اللقب الذى اطلق عليه واشتهر به وهو " يورجتيس " ( Euergetes ) ومعناه فاعل الخير ويمكن ان نفسر ذلك فنرى فى هذه الصفة الالهية التى اضفت عليه مايفيد انه كان محبا لخير شعبه وفى هذا تعبير عن تلك الملكية المثالية التى كان ينادى بها الفلاسفة الرواقيون والكلبيون. على ان المؤرخين الحديثين تسرب اليهم بعض الشك فى انه هو الذى امر باعدام ابوللنيوس آخر وزير مالية لدى والده بطلميوس فيلادلفوس ، ان صح انه اعدم والثابت انه توارى فجأة عن الابصار عقب تولى بطلميوس الثالث وصودرت ضيعته وبيعت فى المزاد املاكه وعقاره ومقتنياته ولدينا فى وثائق البردى الدلائل القاطعة على صحة هذا المصير الاليم. ثم انه هو الذى اباح او أمر بأن يقتل اخوه ليسيماخوس الذى كان قد تولى لفترة ما وظيفة الحاكم ( استراتيجوس ) فى قفط ثم مالبث ان توارى بعد ذلك من التاريخ بطريقة تشوبها الشكوك والظنون.

وبطلميوس الثالث هذا كان ملكا على قسط وافر من الثقافة ، تتلمذ على يد ابوللونيوس الرودى ( من اهل جزيرة رودس ) وهذا هو الذى خلف كاليماخوس فى وظيفة

مرموقة هى رئيس الاكاديمية فى الاسكندرية • وصداقة الملك لاراتوستنس ( Eratosthenes ) الجغرافى دليل على ميوله العلمية والثقافية ثم اصلاحه التقويم المصرى بواسطة جمع من الكهنة المصريين دعاهم للحضور للاجتماع فى كانوبوس ( ابى قير بظاهر الاسكندرية ) فى عام ٢٣٧ ق•م• دليل آخر على اهتماماته وبعد نظره وحبه للتنظيم والادارة • وقد اصدر الكهنة قرارهم المشهور والمسطر على حجر يسمى بحجر كانوبوس• باللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقى وباللغة اليونانية •يشيدون فيه باعمال الملك وعفوه عن المسجونين وتنازله عن المتأخرات من الديون الخ من اعمال المديح بالملك وكن هذه التصرفات تكشف عن ميله الطبيعى الى الاهتمام بالعلوم الانسانية وحبه فى مساعدة المظلومين والضعفاء والشائع انه كان ملكا متذوقا للآداب والفنون • وليست لدينا أية اوامر باقية مما كان يمليه على كبار موظفيه ومستشاريه •اسوة بما حفظته لنا اوراق البردى من املاء ابيه فيلادلفوس •على نحو ماذكرناه ولذلك لانستطيع التعرف على ذوقه ولاعلى صوته المدوى • وفى أغلب الظن كان التقرير عن تلك العمليات العسكرية التى قام بها فى سوريا فى مستهل حكمه • هو الشىء الوحيد الذى كان من بنات افكاره وربما من صنع يده • وكان قد ذهب على عجل الى سوريا لانقاذ اخته برنيقه ابنة فيلادلفوس الذى كان قد زوجها من انطيوخوس الثانى ملك سوريا فى عام ٢٥٢ ق•م• وودعها والدها حتى الفرما وصحبها وزير ماليته ابوللونيوس حتى اوصلها الى انطاكية فى سوريا ثم تنكر لها زوجها واعتضمت بافسوس مستنجدة باخيها بطلميوس الثالث فسارع الى نجدتها ولكنها ماتت قبل ان ينقذها من ورطتها •وقد تابع بعد ذلك حملته فى بلاد مابين النهرين وابلى فيها بلاءا حسنا وبذلك اصبح الملك المحارب المغوار واستحق بجدارة ان يلقب بأنه اعظم فاتح ظهر فى الأسرة البطلمية • على انه بعد ان تحققت الغايات البعيدة المدى من فتوحه فى قلب آسيا •مالبث ان تخلى عنها لاسباب استراتيجية • ومع ذلك بقى الحكم له فى امبراطورية واسعة ولكنها متناثرة • فبرقه كانت تحت حكمه المباشر بفضل زواجه من برنيقة ابنة " ماجاس " • اما فى سوريا وفينيقيا فظلت حدود مصر كما هى من قبل •ممتدة على الساحل من عمان صيدا صوب طرابلس• وفى كيليكيا وبامفيليا توسعت مصر فى املاكها وكذلك كانت الحال فى كاريا بآسيا الصغرى • وليس

هنا مجال لذكر التفصيلات المسهبة عن المدائن والبلدان التى كانت تدين بالولاء لمصر فى الهلسپونت ( البسفور والدردنيل ) ثم فى تراقيا وفى نطاق جزر بحر الارخبيل ، فهـــذه كلها جزئيات ليس من وراء سردها طائل ، والخلاصة ان مصر كانت لها امبراطورية متناثرة اجزاؤها هنا وهناك ومشتملة على بعض جزر فى نطاق الجزر الدائرية ( Cyclades ) تدين بالولاء لمصر فهى اذا امبراطورية مبعثرة .

هذا هو الوضع فى الامبراطورية اللاجيدية او البطلمية وهى فى اوج عظمتهـــا وهذا الانبعاج فى شكلها راجع الى انها تمدت النطاق وخرجت عن الحدود التى وصلت اليها الامبراطورية المصرية فى ظروفها العادية على ايام الفراعنة العظام . واذا صح ان الاصل فى نشأة هذه الامبراطورية البطلمية هو ان مصر كانت ترغب فى ان تزود نفسهـــا بجميع الضمانات التى تكفل لها الامان والتفوق والسيطرة الاقتصادية على نظراء مصـــر والمنافسين لها من جيرانها ، فان تطور هذه الامبراطورية واتساع رقعتها شيئا فشيئـــا جعلها تنبعج وتفوق كل المقاييس على غير انتظار . ولا يمكن ان نقبل الرأى الذى نادى به العالم الالمانى " الريخ فلكن " والقائل بأن مصر عندما وطدت اقدامها على شواطئ آسيا الصغرى ابتداء من كيليكيا فى الاناضول حتى الهلسپونت ثم امتدت الى الخرسونيز ( Chersonese ) ( الدردنيل ) والى تراقيا ( البلغار حاليا ) ، كان ملوك البطالمة يبغون تحقيق اهداف ابعد من مجرد الرغبة فى الاشراف على الطرق التجارية المؤديـــة الى الاسكندرية — وهذه الامنية التى ينسبها " فلكن " الى ملوك البطالمة الاولين ، كانت ترمى الى السيطرة على جميع انحاء بحر ايجه بقصد الحصول على السيادة ( hegemonia ) على العالم فى هذا المحيط . ولعل هذه الرغبة كانت فى الحقيقة هى الدافع الى كل هذه المنافسات والمشاحنات التى وقعت من القوات التى اقتسمت دولة الاسكندر وبقيت فى صراعات ومؤامرات ودسائس ابتداء من اوائل القرن الثالث قبل الميلاد . وبالتأكيد كانت هذه الرغبة او بالاحرى هذا المطمع الذى داعب خيال ملوك البطالمة الاولين ، غير خاف على الملكيـــين لبطلميين الاولين ، بما اوتياه من بعد النظر والحصافة . ومن اجل تحقيق هذا الهدف

استطاعا استخدام جميع موارد البلاد احسن استخدام . ولكن نظره عابره الى خريطه هذه الامبراطوريه المصريه المترامية الاطراف ، يتبين منها ان بعض هذه المواقع كان مرتبطا بمحور الارتكاز وهو مصر التى كانت تمثل المركز الرئيسى ، بينما بعض المواقع الاخرى كان نائيا وبعيدا عن مركز الدائرة ويمثل نوعا من الانبعاج . وعلى اى حال فان هم البطالمه الاوليين انصب على ضروره الاحتفاظ بمواقع ثلاثه لاغنى عنها وهى برقه وسوريا الخاليه ( سهل البقاع او لبنان ) ثم قبرص . وفى الوقت نفسه كانت مصر مستعده للتفريط والتخلى عن غيره هذه المواقع الثلاثه وذلك عن طيب خاطر . ومنذ عام ٢٥٣ ق.م. لم يكن قد بقى لبطليموس فيلادلفوس شئ من املاكه فى صميم بحر ايجه . ومع ذلك فان بطليموس الثانى قبل هذا الوضع على مضض فقضى نهايه حكمه فى عهد شهد سلاما مخيما دون ان يعكر صفوه شئ ادرك بطليموس الثالث كيف ان الخلافات والنزاع الاسرى قد مزق الامبراطوريه السلوقيه شر ممزق وكيف تفككت اواصر هذه الامبراطوريه قبل ان يحاول انطيوخوس الثالث لم شملها . بل والتوسع على حساب جيرانها عن طريق الاغاره على مصر فى عهد بطليموس الرابع ( فيلوباتور ) ولكن اطماع انطيوخوس الثالث باءت بالفشل الذريع فى معركه مشهوره هى معركه رفح ٢١٧ ق.م. وارتد عن مصر ونجت الامبراطوريه البطلميه من خطر محقق بفضل جهود الفيلق المصرى الذى دربه سوسبيوس ( Sosibius ) وزير الحربيه المصريه على عهد فيلوبتور . ان بطليموس الثالث كان مدركا لهذا الخطر من قبل وقوعه بفتره طويله وكان يعلم ان الدوله السلوقيه فى الشام كانت لمصر بالمرصاد وانها كانت منافسه ومناهضة لمصر ، تتطلع الى الاغاره عليها بين حين وآخر ولكن حكمه بورجتيس الاول اقتنعت بعدم استغلال الخلافات الاسريه فى داخل تلك البلاد الواقعه على تخوم مصر من الشمال واثر البعد عن التورط فى عمل عدوانى ولم يفكر فى توسيع رقعه بلاده فى الخارج بعد فتره الخمس سنوات الاولى من حكمه والتى قضاها فى حروب طاحنه فى هذه البلاد . وبقيت الحقيقه الاساسيه ماثلـه للعيان وهى ان مصر قبل كل شئ هى القاعده الاساسيه فى سلطان البطالمه ومحور الارتكاز فى ملكهم العريض ولا ينبغى والحاله هذه ، تعريضها لاى خطر او المغامره بها فى عمليات

عسكرية خاسرة وكان الملك بطليموس الثالث يرى بثاقب نظره ان في وسعه استخدام موارد البلاد في تحقيق اهدافه ولكن لا ينبغي عليه ان يرهق مصر بما تكلفه هذه الحروب من مصاريف باهظة واعباء لا قبل لها بها ، خاصة وان مصر قد قدمت له في حروبه في السنين الاولى من حكمه بسخاء ولم تضن مواردها عن تزويده بكل ماكان يلزمه في هذه الحروب التي كان فيها ينتقم لشرف اخته برنيقة زوجة انطيوخوس الثاني • ولكن لم يكن قد غاب عن باله ابدا ان مثل هذه الفتوح لابد ان تعود على مصر بالمغانم والا تكون غرما او سببا في ارهاق موارد البلاد • ان مصر هي المورد الرئيسي الذى يغذى الخزانة العامة في مصر البطلمية وهي في الوقت نفسه تمثل العنصر الاساسي في هذه الامبراطورية ولا ينبغي التفريط في اى شيء يضر بمصلحة البلاد • وهذا هو السبب في ان البطالمة او بالاحرى الملوك الثلاثة الاولين ، اذ صح ان كان قد عن لهم التفكير في تكوين امبراطورية لهم في وقت ما فان هذا التفكير كان مجرد خاطر ما لبث ان تبخر واعرضت عنه مصر كلية - الى ان جاءت كليوباترة السابعة وهي الملكة الاخيرة في هذه الاسرة فعاودت التفكير في امكان تحقيق شيء من هذا البرنامج الذى داعب خيال فيلادلفوس في وقت ما • ولا ينبغي ان ننسى ان الموارد العسكرية والعنصر البشرى القادر على خوض هذه الحروب بكفاية ومقدرة ، كان غير متوفر في مصر وانما كانت موارده مقصورة على بلاد اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى وهذه كلها كانت من البلاد التي احجم حكامها وملوكها عن السماح لمصر باستيراد تلك السلعة البشرية وهي الجنود المرتزقة من قبيل الكيد لمصر وكان حجبهم لهذا العنصر عملا عدائيا ، قصدوا من ورائه التنكيل بمصر وبحكام مصر ، وعندئذ لم يبق امام الملوك البطالمة ، والمقصود هنا عصر بطليموس الرابع فيلوباتور - سوى الاعتماد على اولئك الجنود المرتزقة الذين كان فيلادلفوس قد وطنهم في ريف مصر وحرص على اسكانهم وتوزيعهم في ارجاء البلاد ليكونوا عدتها في وقت الازمات والملمات وقد نجحت هذه السياسة في المحافظة على هذا العنصر البشرى المجلوب من الخارج والمدرب على اساليب حرب الفيالق ونظامها • عمدت حكومة بطليموس فيلوباتور ووزيره سوسيبيوس الى تجنيد العنصر المحارب المصرى وهم الذين اطلق عليهم هيرودوت من قبل اسما مذريا اى الماخيمي ( Machimoi )

أو المحاربين على القتال وكون منهم فيلقا مصريا وقد نجحت الفكرة واثبت أولئك الفلاحون المصريون انهم اكفاء وكسبوا النصر لبطليموس الرابع .

ولما كانت مصر مدينة فى تقدمها وفيما حققته من نجاح لا الى تربتها الخصبة فحسب بل الى تجارتها سواء منها العابرة ( transit ) أو لتجارتها الخارجية ولذلك آثرت مصر أن تركن الى توخى السلم وهو شرط أساسى لرواج التجارة الداخلية والخارجية على السواء . وموقع مصر الفريد جعلها لا تستطيع الاتصال بآسيا الا عن طريق الممر السورى الذى يعتبر بمثابة دهليز ( Corridor ) وكذلك لا تستطيع الاتصال باوربا الا عن طريق البحر ، فهى لذلك وبحكم هذا الموقع ، لا يمكن أن تكون مركزا لامبراطورية عالمية ، لان اتصالها باطراف هذه الامبراطورية ، سوف يكون خاضعا لجيرانها وواقعا تحت رحمتهم . وفضلا عن ذلك فلكى تكون لمصر امبراطورية عالمية ، فان هذا يتطلب بدوره وجود جيش قوى مرابط ، تتجدد عناصره فى يسر وسهولة ، وانى لمصر بذلك . والجيش القوى البطلمى كانت عناصره اجنبية مجلوبة من الخارج كما قلنا ولكنها كانت باستمرار عرضة لان ينضب معينها اذ ماتراءى لجيراتها وخصومها أن يحبسوا عنها هذا المورد البشرى ويمنعوها من أن تتزود منه بخير زاد فأغلب القوات المحاربة يأتى من بلاد اليونان ومن جزر بحر الارخبيل وكريت وهذا الاحتمال واقع لا مناص منه متى شم خصوم مصر أن اطماعها زادت عن الحد وأنها اخذت تتطلع الى تكوين ملك عريض وامبراطورية طابعها الاساسى تكوين امبراطورية بحرية ( thalassocracy ) . وكانت مثل هذه الامبراطورية لا تزال فى حوزة مصر على عهد فيلوباتور ، على الرغم من أن سيلوقيا الواقعة على نهر العاصى ( Orontes ) فى سوريا ارتدت الى دولة السلوقيين وأن اجزاء من بامفيليا فى آسيا الصغرى ضاعت من مصر ، ولكن الوضع بوجه عام هو أن امبراطورية مصر بقت لها بشكل ما حتى بداية عصر ابيفانيس وهو بطليموس الخامس ٢٠٣ - ٢٠٤ ق . م ثم بدأ الانهيار بعد ذلك مباشرة . وكانت الخلافات الداخلية والانقسامات الاسرية هى أخطر العوامل التى أضعفت مصر وافقدتها القدرة على الدفاع عن نفسها ضد خصومها ونظرائها .

وفى عام ٢٠٠ ق.م استطاع فيليب الخامس ملك مقدونيا ان يسطو على املاك مصر فى تراقيا ( Thrace ) وهى مجاورة لبلاده من الشرق وكذلك على ضفاف البسفور والدردنيل • وبذلك اقصى مصر عن هذه المناطق النائية شمالا اما انطيوخوس ملك الشام فقد استولى على سوريا الخالية او سهل البقاع ، كما استولى على فلسطين وعلى جميع المواقع التى كانت فى حوزة مصر فى آسيا الصغرى • وهكذا تقلصت الامبراطورية المصرية فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يبق لملك البطالمة فى ذلك الحين من امبراطوريتهم والولايات الخارجية التى كانت تتبعهم سوى برقة وقبرص وهما وحدهما اللتان حرصت مصر على الاحتفاظ بهما الى اطول مدة ممكنة • وهكذا انكمشت مصر وضاعت امبراطوريتها •

## مصر تنطوى على نفسها بلا امبراطورية

هذه صفحة غير مشرفة من تاريخ مصر البطلمية ، تردت فيها البلاد فى سلسلة من المؤامرات والخلافات الاسرية ونجم عن هذا من الشرور الشىء الكثير وضاعت مصالح مصر وانتهى الامر بارتمائها فى احضان روما التى وجدت الفرصة متاحة كيما تقف موقف الحكم بين الاخوة والاخوات وهم يتنابذون بالالقاب ويتقاتلون ويكيد بعضهم للآخر • وقد سبق ان ذكرنا ان مستهل القرن الثانى شهد مصر وقد تجردت من امبراطوريتها او كادت ، ولكنها على الرغم من كل ذلك كانت لاتزال دولة قوية وثرية وبقيت محتفظة بهذا الثراء العريض حتى جاء عهد الملك البطلمى المفتون وهو بطلميوس "اوليتيس" اى الزمار ، والد كليوباترة السابعة آخر ملكات البطالمة فكان دخل هذا الملك بحسب تقدير ذكره شيشرون الخطيب الرومانى فى احدى خطبه دفاعا عن شخص يدعى رابيريوس ( Pro Rabirio ) يقدر بمبلغ ١٢٫٠٠٠ تالنتوم من الفضة ( التالنتوم الواحد يساوى ٢٤٠ جنيه تقريبا ) فما هو السبب الذى حال دون ان تسعى مصر فى سبيل استرداد اهميتها ونفوذها القديم ؟ هذا سؤال ينبغى ان نجيب عليه فى صراحة تامة فنقول انها قوة روما التى كانت تقف لمصر بالمرصاد ، وتعمل جاهدة على تقطيع اوصالها

وعلى عزلها عن جيرانها والحيلولة دون حدوث أى تكتل بين مصر وسوريا مثلا أو بين مصر واحدى جاراتها ايا كانت هذه الجارة •

وهنا ينبغى علينا أن نستعرض بوجه عام صفحة من تلك العلاقات بين مصر وروما منذ أول الامر أى منذ ٢٧٣ ق • م عندما عقد بطليموس فيلادلفوس معاهدة صداقة مع روما ( Amicitia.. ) وتبادل معها السفراء وأوفد بعثة مصرية الى السناتو الرومانى لاعلان هذه الصداقة وتوكيدها فكانت هذه السفارة بمثابة حركة بارعة تنم عن بعد النظر الثاقب من جانب مصر ومركزها فى معترك السياسة العالمية • وبأن أثر هذا بشكل جلى عندما رتمت الحرب البونية الاولى ٢٦٤ — ٢٤١ ق • م بين كل من روما وقرطاجة والاخيرة جارة افريقية ، محلها الآن تونس وقد وقفت مصر موقفا محايدا تماما وعرضت أن تقوم بدور الوسيط لاصلاح ذات البين بين الطرفين المتقاتلين ، لو شاءتا ولكن للاسف لم يتحقق شىء من ذلك وانتهت الحرب بهزيمة قرطاجة واملاء شروط مهينة عليها وعلى أن هذه العلاقات الذيلوماسية لم ينجم عنها أية نتائج سياسية حتى نهاية القرن الثالث ، مع أن بدء هذه العلاقات الدبلوماسية كان مرجعه الى البلاط السكندرى الذى اتخذ الخطوة الاولى فى هذا السبيل • وعلى الرغم من أمارات الود والاحترام المتبادل والاتصالات التى كانت تتم بين الطرفين من حين لآخر فى صورة بعثات تكريمية متبادلة فى شتى المناسبات ، فلم تكن هناك كمعاهدة عدم اعتداء أو نحو ذلك بين روما ومصر وانما هى صداقة جوفاء لاتغنى ولاتسمن • وعلى أى حال فالسياسة التى انتهجتها ملوك البطالمة كانت سياسة استقلالية ، بل أنها فى واقع الامر كانت تسفر احيانا عن أنها ليست فى صالح مصر ، ومن ذلك مثلا قيام بطليموس فيلوباتور بالتدخل كوسيط فى الحرب التى شنها بعض الحلفاء ضد فيليب الخامس ثم تدخله فى الحرب المقدونية الاولى • وكان هذا التدخل لخدمة مصالح فيليب وليس من أجل روما • وحتى فى صدر عهد الملك بطليموس الخامس ( ابيفانيس ) عمد وزيره اجاتوكليس الى ايفاد رسول لروما من أجل طلب العون والمساعدة من قبل مجلس السناتو الرومانى ضد انطيوخوس الثالث وفى الوقت نفسه

كان هذا الوزير بعينه يوجه جل همه واهتمامه الى التحالف مع ملك مقدونيا مع ان الاخير كان اذ ذاك العدو اللدود لروما ، بل انه كان يتفاوضون طالبين من اجل عقد زواج بين الملك الشاب ابيفانيوس وابنة فليب الخامس ملك مقدونيا ، واثبت بذلك انه كان يخبط فلا يعرف الصديق من العدو ، وفي عام ١٩٦ ق.م. كان لروما موقف ازاء مصر فكانت النصيرة والمدافعة عن مصر ضد الملك السلوقي وتقمصت دور المدافع عن الحرية اليونانية والحامي لملك مصر المسلوب الارادة .(١)

على ان كل شيء مالبث ان تغير بعد ان عقدت روما معاهدة مع انطيوخوس الثالث سميت بمعاهدة اپاميا ( Apamea ) في عام ١٨٨ ق.م. واستولت برجامة ( Pergamum ) بمقتضاها على معظم الاملاك السلوقية في آسيا الصغرى وانكمشت بذلك دولة السلوقيين في الشام واصبحت روما بعد ذلك قوة مهابة في الشرق ومن حقها ان تملي ارادتها بحد السيف . حقيقة ان روما لم تقرض اجزاء من بلاد الشرق الى ملكها في ذلك الحين ولكنها عندما انتصف القرن الثاني ضمت بلاد اليونان ومقدونيا عام ١٤٦ ق.م. وضمت برجامة في الفترة مابين ١٣٣ - ١٢٩ ق.م. وضمت كيليكيا عام ١٠٢ ق.م. وسوف تنقضي فترة طويلة قبل ان تقدم روما على ان تضم اليها مملكتين عظيمتين اخريين هما دولة السلوقيين ثم دولة البطالمة مع انهما كانتا في حالة ضعف ، ومع ذلك فقد بقيت كل من هاتين الدولتين محتفظة بظل من الحياة الاستقلالية ، تنعم به تحت سيطرة روما او خوفا من تهديداتها ، الى ان يحين الوقت المناسب لدخول كل منهما في الحظيرة الرومانية بشكل سافر .

وحتى بداية القرن الاول قبل الميلاد ، كانت روما مشغولة وايديها مغلولة بسبب حروبها الكثيرة والمغامرات العديدة التي تورطت فيها في المياة الغربية من البحر المتوسط. ثم بسبب تلك الازمات الداخلية والخلافات بين الطبقات ( البطارقة او الاشراف والبلبز او العامة ) ثم زاد الطين بلة ان ظهرت طائفة من القواد في الجيش اخذت تهدد روما وتملي على مجلس السناتو شروطها . وعندئذ كان ملوك البطالمة لايزالون قابضين على

(١) هذا هو تاريخ حجر رشيد المشهور وفيه اشادة ببطلميوس الخامس ( ابيفانيس)

ناصيه الحكم ولكن المؤامرات كانت على اشدها بين الاخوه والاخوات وكاد بالبغض منهم مستى غلب على امره لجأ الى روما متوسلا وطالبا التدخل لصالحه ورده الى عرضه المسلوب منه وهناك فريق اخر كانت فرائضه ترتعد وترتجف خوفا ووجلا من روما وبطشها . وهكذا كانت السياسه الخارجيه ماصر لنطوى على جميع الاحوال على عمل الحساب كل الحساب لروما واحتمال تدخلها بطريقه سافره متى شاءت . ثم اقتصرت هذه السياسه الخارجيه على نطاق ضيق فانحصرت عمليا على مجرد تناقش يقبض الاحد وى من ورائه بين من والدولة السلوقيه في الشام وكانت قد اصبحت اذ ذاك عباره عن مملكه سوريا فقط . وتاريخ مصر في الداخل اصبح في هذه الحقيقه عباره عن مناقشات بين افراد الاسره البطلميه ملوكا وملكات على تولى العرش وكانت هذه المساجلات مصحوبه بحروب دمويه وانقامات وانحرافات مما اضعف البلاد وساعد على تفكك اوصالها فالصعيد في ناحيه والوجه البحري في ايدى منافسيه والاسكندريه تطرد الملوك ثم تستفيدهم وهكذا دواليك . وبالطبع كانت اصابع الرومان وراء هذا كله تحت هذا وتوءليه على ذاك من الاخوه والاخوات وكان زعماء الرومان ورجال الاحزاب في روما بل واعضاء السناتو انفسهم يمدون ايديهم ويقبلون الرشاوى من اجل نصره ملك معزول ورده الى عرشه المسلوب او من اجل صد ملك سوريا ورده من مصر . ويذكر التاريخ واقعه مشهوره في سنه ١٦٨ ق.م. عندما انتصرت روما على مقدونيا وهزمت ملكها برسيوس .... Perseus في موقعه بيدنا ........ Pydna وصادف في ذلك الحين ان كان ملك سوريا انطيوخوس الرابع قد غزا مصر ودخل الاسكندريه بالفعل وعندئذ لاحقه السفير الروماني جايوس بوبيد ليوس لايناس ( ........ C.G. Popilius Laenas ووجه اليه انذارا سيئا وخبره من الرحيل فورا من مصر بين صداقه الرومان وطلب اليه امير تجيب على هذا السوءال في الحال قبل مغادرته دائره كان قد رسمها من حوله في الرمل بعصاه كانت تحت ابط هذا السفير الروماني . وقد استجاب انطيوخوس الرابع لنداء هذا السفير مستسلما لمطلب روما ورحل عن مصر وبذا تم انقاذ العرش المصري بفضل تدخل روما .

واصبح ملك البلاد اذ ذاك وهو بطلميوس فليومتو مدينا لروما بعرشه وصارت مصر في الحقيقه تحت الحمايه الرومانيه المقنعه •

على انه لا ينبغي علينا ان نطيل في شرح المؤامرات والدسائس التي كان يحيكها الامراء في الاسره البطلميه وتشارك فيها بنصيب وافر الملكات والاميرات البطلمويات من برنيقات وارسينوات وكليوباترات وقد اشتهرن كلهن في التاريخ بانهن مستأسدات ومتوجلات وقويات الشكومه ولعل من اشهر الامثله على ذلك الملكه كليوباتره الثانيه زوجه فيلوميتور ثم ترملت بعد زوجها ان مات ١٤٥ ق م • اصبحت زوجه لاخيه يورجتيس الثاني ثم هناك كليوباتره الثالثه ابنه كليوباتره الثانيه والزوجه الثانيه لبطلميوس يورجتيس الثاني ثم هناك مثلهن اخران من طراز اخر احدهما ارسينوى الثانيه الزوجه الثانيه لبطلميوس الثاني وحامله لقب فيلادلفوس حبيبه اخيها وكانت امراه بارعه وسندا قويا لاخيها وزوجها وتعتبر مثلا على الملكه البطلميه القديره اما المثل الاخير فهو كليوباتره السابعه ذات التاريخ المشهور والباع الطولى في نهضه مصر والتطلع الى استعاده مجدهـا القديـم (١)

ولعل التزاوج بين الاخ واخته على مدى اجيال وعلى النحو الذى كان يتم به في الاسره البطلميه كان بين اسباب ضعف هذه الاسره وضعف ملوكها الذين افسدهم الانغماس في الملذات واقعدهم عن العمل الجاد اقدام زوجاتهم ونسائهم على المشاركه في الحكم بطريقه منفرده ثم ان الملق والاستسلام من قبل الشعب المصرى جعلهم يرخون الحبل على الغارب ويتمادى الملوك في غلوائهم — كل هذا اخرج لنا صورا بشعه من وحوش كاسره لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا فالاخ يقتل اخيه والام تقتل ابنها وهكذا من الاعمال التى تقشعر لها الابدان وتتفتت من هولها الاكباد • ولو اتيح لكاتب مثل المؤرخ الرومانى تاكيتوس (                ) الفرصه لصور لنا هذه الاحداث بصوره دائمه مثلما فعل بالنسبه لحياه امبراطوريه رومانيين هما تيبريوس ونيرون •

(١) انظر كتاب العالمه الامريكيه ماكردى عن الملكات الهيلينستيات
ثم كتاب كليوباتره السابعه لزكي علي ثم كتاب تارن وتشالزورث عن اكتافيان وانطونيوس وكليوباتره وقد صدر في كبيردج بانجلترا في عام ١٩٦٥ وفيه اشاده بالملكه كليوباتره السابعه وتنويه ببرنامج سياسى لها من اجل رفعة شأن مصر •

ومنذ تولى بطليموس السادس ( فيلومیتور ) وهو ابن الملك ابيفانوس وكان قد ال اليه الملك وهو لا يزال فى مقتبل العمر وكان ذلك فى عام ١٨٠ ق٠م٠ ثم انه بلغ سن الرشد فى عام ١٧٣ ق٠م٠ وعندئذ بدأت المناورات والفتن ٠ حقيقة ان روما استطاعت فى وقت لاحق ان تمنع الملك السلوقى انطيوخوس الرابع من ان يجنى ثمار انتصاراته وغزوه لمدينة الاسكندريه فى عام ١٦٨ ق٠م٠ وذلك على اساس ان روما لم تشأ ان ترى العرشين المصرى والسورى فى تيسواحده خشيه ان يصعب عليها فيما بعد اخضاع هذا العرش المتحد ولكنها لم تكن تبتئس او تشعر بأى ضير او غضاضه فى ان ترى الانقسام يدب بين افراد البيت البطلمى المالك ٠ فلما خلع الكسندريون بطلموس فيلومیتور عن عرشه ، بتحريض من اخيه الاصغر بطلميوس يورجتيس الثانى ومجالاة له ، يم الملك المخلوع وجهه شطر روما ومثل امام السناتو متوسلا وراجيا وطالبا العون فى ذله وامتهان وعندئذ استطاعت روما ان تصلح ذات البين بين الاخوين ٠ وكان هذا الصلح يتضمن اعاده فيلومیتور الى عرشه فى الاسكندريه بناء على استدعاء شعبه له ، بينما يحصل يورجتيس الثانى على حكم برقه ومنذ الحين اصبح يورجتيس الثانى يستمع حياته يوما وسوف تثير الاحراج انه لم يكن جديرا بهذه الحمايه فهو يمثل صوره بشعه لملوك هذا البيت واستحق بجداره ذلك اللقب الذى اسبغه عليه شعب الاسكندريه وهو ( Kakergetes ) اى الشرير بدلا من فاعل الخير وهو اللقب الذى كان يتشدق به وهو منه براء ٠ وقد سجل التاريخ العديد من الجرائم التى ارتكبها ، فمن قتل دماء وتشريد والتورط فى حروب طاحنه بينه وبين زوجته كليوباتره الثانيه وهذا كله سوأ سمعته وجعله ينزل الى الحضيض ٠ انه كان ينفى

ان تعاونه روما فى ضم قبرص لبرقة تحت لواء حكمه المشترك ولم يكف عن الدس لاخيه لدى روما والتشنيع عليه وتصويره بصورة بشعة على انه قاتل ومجرم اثيم ينصب الشباك ويدبر الخطط لقتل اخيه وعلى ان فيلوميتور صادفه التوفيق فى ازالة الجفوة بينه وبين السناتو الرومانى واستطاع ان يكسب لجانبه الزعيم الرومانى المشهور كاتو ( Cato ) الـــذى انبرى للدفاع عنه امام السناتو واخيرا تحقق له النصر فى عام (١٥٣) وقضى بعد ذلـــك ثمانى سنوات فى اخذ وعطاء ومفاوضات بينه وبين اخيه وسط مكائد تدبر له من قبل اخيه هذا ٠

عقب موت فيلوميتور سنة ١٤٥ ق٠م٠ الذى خر صريعا فى ساحة القتال فى سوريا ، اتحدت برقة مع مصر تحت حكم يورجتيس الثانى وكانت المملكة السلوقية يحكمها اذ ذاك ملك سلوقى بسيط ، استطاع ان يلم شملها ، ولذلك رأت روما الا تكون مصر ، وهى جارة لسوريا ، مفككة الاوصال فتكون مطمعا لسوريا ولذلك عولت على اصلاح ذات البين بين يورجتيس الثانى وارملة فيلوميتور وهى كليوباترة الثانية وكانت قد اصبحت زوجة ليورجتيس الثانى وهى اخته كذلك٠

على ان روما استفادت كثيرا ، لا من الولاء والاستسلام الذى كان يبديه الحكام واولو الامر فى كل من مصر وسوريا فحسب ، بل افادت كذلك من ذلك الانقسام الذى كان يفت فى عضد هاتين الدولتين العظيمتين وهما : المملكة البطلمية والمملكة السلوقية وساعـــد على تحقيق هذه البغية التصرفات التى تردى فيها يورجتيس الثانى الذى كان يلقـــب كذلك بالبطين ( Physkon ) وكان السكندريون قد اسبغوا عليه كنية فيهــا اساءة اليه ولكنها نابعة من تصرفاته فلقبوه بالشرير ( Kakergetes ) بدلا مــن فاعل الخير وهو اللقب الرسمى الذى كان يتشدق به ٠ وصفحة اعماله فى مصر ابعـــد عن ان تكون صفحة فخار ، فاعمال القسوة التى تردى فيها ازاء علماء الاسكندرية ورجـــال القلم والفكر فى اكاديميتها ثم ازاء شعب الاسكندرية نفسه والرجال الاحرار المستمتعين

بالمواطنية في تلك المدينة الخالدة ــ كل ذلك جلب عليه كره السكندريين له وكان حقا عليه ان يحظى بالسخط العام الذى لقيه في كل مكان من جراء اعمال القمع التى ارتكبها عقب تنصيبه على عرش الاسكندرية عام ١٤٥ ق.م. وصحب ذلك الوان من التعذيب والتقتيل في الشخصيات البارزة وفى جموع اليهود الذين انحازوا فيما بعد لزوجته كليوباترة الثانية وناصروها وعلى ذلك اقدامه على طرد علماء الاسكندرية واعضاء الاكاديمية بها وتشريدهم وتشتيتهم وكان من بين هؤلاء استاذه السابق والعالم المشهور " اريستارخوس " ( Aristarchos ) . وزاد الطين بلة وقوع تلك الجفوة المسلحة بينه وبين زوجته الاولى كليوباترة الثانية ،فنشب بسببها حرب ضروس قسمت البلاد الى معسكرين . وكانت ابنة هذه الملكة وهى المسماة كليوباترة الثالثة امرأة بشعة ، انضمت الى الملك الذى هتك عرضها ثم تزوجها مع انها ابنة زوجته من فيلوميتور . ادى كل هذا الى سلسلة من المؤامرات والاعتصاب المسلح وثورة جامحة قامت بها مدينة الاسكندرية انتهت بفرار الملك من المدينة في عام ١٣١ ق.م. وانفراد زوجته كليوباترة الثانية بتولى الملك ولكن هذا لم يدم سوى فترة قصيرة ،استطاع بعدها بقليل ان يعود الملك الى الاسكندرية وبلغ من امعانه في الغضب وشهوره أن قتل ابنه الذى كان قد انجبه من كليوباترة الثانية ، بقصد التنكيل بزوجته ام هذا الطفل وعندئذ فرت الملكة الى زوج ابنتها وهو ديمتريوس الثانى ملك سوريا واستمرت هذه الحرب الضروس بين يورجيتيس الثانى وكليوباترة الثانية عدة سنوات والبلاد منقسمة على نفسها واعمال التخريب والتدمير في كل مكان وانتهى الامر باتمام الصلح بين الطرفين في عام ١١٨ ق.م. بعملية تسوية وتراضى اطلق عليه " فيلانثروبا " ( Philanthropa ) ولدينا وثيقة بردية مشهورة نشرت في مجموعة بردى تبتونيس تحت رقم (٥) وفيها بنود هذه التسوية الشاملة واقرار كل طرف من الطرفين بعض من التصرفات والاجراءات التى اتمها كل جانب ،كما تضمنت تسامحات وترضيات عديدة لاقرار السلم ولم يعمر الملك طويلا بعد ذلك اذ مات في عام ١١٦ ق.م. وكانت تصرفاته الهوجاء قد ساهمت الى حد كبير في تفتيت المملكة البطلمية ،اذ انه كان قد اوصى بعرش برقة الى ابن غير شرعى

له اسمه "بطلميوس ابيون ( Apion ) ثم جاء هذا الابن بدوره بعد عشرين عاما فأوصى بمصر برقه الى روما • ثم ان يورجتيس الثاني كان قد اوصى زوجته الثانية وهى كليوباترة الثالثة بأن يكون لها حق الاختيار لاحد ابنيها كيما يكون ملكا على عرش مصر • وكانت كليوباترة الثالثة هذه يلقبها السكندريون بالشقراء ذات الوجه الاحمر • اضطرتها الظروف ان تختار ابنها الاكبر وهو بطلميوس الملقب لاثيروس ( Lathyros ) اى الحمصانى ( = ذو الوجه المبقع بحبات اشبه بالحمص ) وكانت فى الحقيقة تمقت هذا الابن ولكنها اكرهت على الموافقة على تنصيبه ملكا على البلاد وقد تحكمت فيه جملته يطلق اخته كليوباترة الرابعة التى كان يكن لها محبة واخلاصا شديدا ولكن الملكة الام كانت تشك فى اخلاصها وولائها ومن اجل ذلك اطاحت بها وجعلته يتزوج من اخت اخرى له اسمها كليوباترة القمر ( Cleopatre Selene ) ومانظن ان موقفا شائكا كهذا يمر بسلام فى بيت بطلمى كله دسائس ومؤامرات ولذلك خلق هذا الموقف جوا مريبا مليئا بالمتاعب واستمرت الاضطرابات حتى توارت الملكة الام كليوباترة الثالثة عن الميدان وتوفيت فى العام ١٠١ — ١٠٠ ق•م• ثم هدأت الاحوال بعد موت الاخ الاصغر للملك وهو الاسكندر الاول فأزيح من وجه اخيه الاكبر بطليموس لاثيروس وبدا خالا الجو له فأخذ " يبيض فيه وينقر " •

وكان السكندريون قد طردوه من المدينة فى اثناء حياة اخيه الاصغر فذهب الى قبرص يتولى الحكم فيها ولكن الى حين بينما كان الاسكندر الاول يحكم فى الوقت نفسه فى الاسكندرية • وبعد حروب مستمرة بين هذين الاخوين •• استطاع الاخ الاكبر بطليموس لاثيروس ان يدبر العودة الى عرشه فى مصر حيث تولى الحكم مدة تقرب من ثمانى سنوات من ٨٨ حتى ٨٠ ق•م واغلب هذه الحروب كانت تتخذ من سوريا ساحة لها يشن فيها الملكان البطلميان القتال احدهما ضد الاخر ولكل منهما بالطبع مناصرون فى سوريا وفضلا عن ذلك فالملوك البطالمة تورطوا فى حروب ومنازعات من نوع آخر كانت تجرى فى الساحة السورية • ويبدو ان مصر حتى وهى فى النزع الاخير فى فترة عصيبة مـن

تاريخها سلسلة مريرة من الانقسامات والمشاحنات بين الاخوة والاخوات الاشقاء ، لم تتخل مطلقا عن احقية ادعتها لنفسها فى تملك الشق الجنوبى من سوريا ، وكانت المسألة السورية لاتزال تداعب خيال هؤلاء الملوك البطالمة الضعاف حتى وهم وسط هذه المحن والويلات والنكبات الاسرية التى المت بعروشهم فى مصر .

ومن قبل ذلك بكثير رأينا كيف ان البلاط السكندرى كان يأمل خيرا فى اتمام تسوية بهذا الشأن تنجم عن زواج الملك بطليموس الخامس بابنة ( لانطيوخوس العظيم ولكن مصر باءت بالفشل ولم يتحقق شىء من ذلك الحلم المصرى وقد اثبتت الظروف فيما بعد ان انطيوخوس الرابع نفسه كانت له نوايا سيئة ازاء مصر وانه كان يتطلع الى ضمها اليه بطريقة سافرة ولكن روما خلصت مصر من انيابه ، على نحو ماوصفناه من قبل . ولعله كان يتخذ مما فعله ابوه انطيوخوس الثالث من قبل مثلا يقتدى له . وكان انطيوخوس الثالث قد غامر بنفسه فى حروب ضد فيلوباتور ( معركة رفح سنة ٢١٧ التى هزم فيها وكتب النصر لفيلوباتور ) ثم مرة اخرى ضد ابيفانيس منتهزا فرصة ان الاخير كان لايزال فى سن قاصرة وان هذه السن القاصرة يمكن ان تكون فرصة ينبغى استغلالها ولكن هذا التصرف لم يكن له اى جدوى . وهكذا كان اسلوب انطيوخوس الرابع يسير على نفس النهج فهاجم المملكة البطلمية واستطاع ان يستولى على الفرما وان يأسر الملك الشاب فيلومتور الذى ضلل به من قبل ناصحين شريرين هما الوزيران ليناايوس ( Lenaeos ) والخصى يولايوس ( Eulaeos ) وبعد ان استولى انطيوخوس الرابع على الفرما زحف صوب الاسكندرية واصبح على ابواب المدينة . ولكن هذه المدينة الباسلة اعلنت يورجتيس الثانى ملكا عليها وسرعان ماتم تحصين المدينة وجعلها فى حالة دفاع قوى ضد العدو الذى لم تكن لديه ادوات حصار يضربها من حول المدينة ولذلك ارتد انطيوخوس الرابع عن الاسكندرية مكتفيا بأن وضع الاخوين فيلومتور ويورجتيس الثانى فى حالة مواجهة والب احدهما ضد الاخر فأخذا يتنافسان ويقوض كل منهما اركان الاخر ويحط من قدره وبذا ظن الملك السورى انه قد فاز فى تحقيق بغيته وانه قد وجه ضربة

ملائمة تهدد من كيان الاسرة البطلمية • وقد تحقق له ما أراد ، اذ حدث بالفعل ان تضارب الاخوان وعاد الملك السوري الى بلاده ولكن خاب فأله اذ تصالح الاخوان وتمت تسوية العلاقة بينهما بفضل تدخل روما ووساطتها • وعندئذ عاود انطيوخوس الرابع الكرة فجدد الهجوم على مصر ووصل بالفعل الى ظاهر الاسكندرية واخذ يعد العدة لكي يضرب ضربته القاصمة وعندئذ انبرى له السفير الروماني جايوس بوبيليوس لايناس بوصفه مبعوثا من قبل مجلس السناتو الروماني وحال بينه وبين ان ينفذ بغيته • ولم تكن روما بغافلة عما كان يجري في هذه المنطقة وانما كانت عيونها مسلطة على الحوض الشرقي من البحر المتوسط • وروما بالامس لم تخضع انطيوخوس الثالث عبثا ولم تكن مستعدة بحال من الاحوال لكي يسمح لاحد من خلفائه بأن يبتلع مصر ويضمها لاملاكه فتصبح لقمة سائغة ويكون مصير ذلك ان تصبح الدولتان : سوريا ومصر قوة مهابة ،قد يستعصي على روما اخضاعها بعد حين ،طال او قصر • واذا كانت روما لم تسمح لها ظروفها بالتدخل من قبل في هذا النزاع ،فان السبب في ذلك معروف وهو انشغالها في الحرب المقدونية الثالثة • فلما تمكنت من هزيمة برسيوس ملك مقدونيا في موقعة بيدنا عام ١٦٨ ق٠م • على يد القائد الروماني ايميليوس باولوس ( Aemilius Paullus ) ،خلا الجو لروما فرمت القفاز في وجه ملك سوريا وهو انطيوخوس الرابع وجعلته " يكش الملك " ولقنه السفير الروماني "لايناس" درسا قاسيا ، تناولناه من قبل بالشرح وبينا مدى البشاعة والامتهان في معاملة روما لهذا المعتدي وطرده من مصر بطريقة فيها شيء كثير من السخرية والاحتقار لشأنه • تلك حادثة مشهورة ذكرها المؤرخ الروماني ليفي ( Livy ) ورددتها كتب التاريخ من بعده عندما تعرضت لهذه الحقبة من تاريخ مصر على عهد البطالمة وعلاقة مصر بروما • وكانت هذه الحادثة بمثابة اعلان سافر لنوعية العلاقة بين مصر وروما وفيها تحذير مكشوف لاي من جارات مصر من الشمال حتى لايفكر احد من ملوك هذه البلدان في شن عدوان على مصر التي اصبحت منذ ذلك الحين تحت الحماية الرومانية المقنعة • وهذه حقيقة واقعة لاريب فيها ،فمنذ عام ١٦٨ ق٠م• عرف العالم الهيلينستي على سبيل اليقين ان مصر تحميها روما • اما لماذا لم تعلن روما تلك الحماية رسميا ولماذا لم تشأ روما ان تضم

مصر الى امتلاكها نهائيا كما فعلت مع كثير من بلاد اليونان ومقدونيا ، فهذا موضوع آخر ، له اسبابه ، ولكن روما شاءت ان تتوخى التريث والا تستعجل الحوادث ، وان تترك الظروف تمهد السبيل للوصول لهذه النتيجة فى حينها ثم ربما كانت سياسة الاحزاب فى روما هى احد الاسباب الجوهرية فى تأخير ضم مصر الى ملك روما وفى اطالة هـــذه الفترة مدة تقرب من ١٣٨ عاما اى من ١٦٨ ق٠م٠ حتى ٣١ — ٣٠ ق٠م٠

وهكذا كانت الحروب التى شنها انطيوخوس الرابع على مصر تمثل المحاولة الاخيرة التى تورط فيها الملك السلوقى ضد مصر بطريقة عشوائية لا مبرر لها سوى ذلك الطمـــع الاشعبى ، وتعين على مصر ان تنتقم وترد الصاع صاعين ، فتتدخل فى الخلافات والنزاعات التى سوف تؤدى بالملكية السورية الى الدمار ، وعلى ذلك عندما تورط ملك سوريا المسمى ديمتريوس الاول ( Demetrius I ) فى شئون جارة شمالية واقعة فى وسط آسيا الصغرى وهى ولاية كاباد وكيا ( Cappadocia ) شمالى الفرات وجنوبى انقرة ، مثيرا بذلك الكثير من الشكوك فى نفوس الرومان وكشفا للنقاب عن بعض التطلعات والاطماع فى شئون آسيا الصغرى بتدخله فى النزاعات الاسرية حول عرش كاباد وكيا ، فانبرت لــه روما كما انبرى له الملك اتالوس الثانى (Attalos II) ملك برجامة ، ارضاء للرومان وكسبا لودهم ، فقدم احد الادعياء فى عرش سوريا واسمه الاسكندر بالاس ( Balas ) مناهضا لديمتريوس الاول فى عرش سوريا وعندئذ لم يتردد فيلوميتور فى نصرة هذا الدعية وهذا المغامر المسمى الاسكندر بالاس وتوكيدا لهذه الخطوة وتوثيقا لهذه العلاقـــة اعطى ابنته المسماة ثيا ( Thea )او كليوباترة ثيا ( Thea ) اى كليوباترة الالهه لتكون زوجة له ، فكان بتزويجه ابنته له ايذانا من جانب مصر فى انها تؤيد دعـــوى " الاسكندر بالاس " ودليلا ضمنيا على ان مصر لم تطرح ظهريا نواياها القديمـــة وتطلعاتها فى عرش سوريا ، ولما قتل ديمتريوس الاول فى ساحة المعركة واثبت بالاس عدم صلاحيته للاضطلاع بالمهمة الموكولة اليه ، لابد انه كان قد اغضب فيلوميتور الذى قلب له ظهر المجن وانضم الى جانب ابن ديمتريوس الاول وهو ديمتريوس الثانى الذى

زف الى ابنته كليوباترة ثيا • وفي ساحة المعركة ذبح بالاس وتخلصت سوريا من هـذا المغامر ولكن بطلميوس فيلوميتور الذى كان النصر حليفه فى المعركة نقل منها جريحا ومالبث ان لفظ انفاسه الاخيرة عام ١٤٥ ق•م• وهكذا لم تجن مصر شيئا من هذه الحروب السورية • سوى انها افصحت بطريقة عملية عن نواياها البعيدة المدى • وانها لم تكن بعد قد تخلت عن اطماعها السابقة او انها وعت ذلك الدرس القاسى الــذى تلقنته فى عام ١٦٨ ق•م• ولم يخلصها من هذه الورطة سوى السفير الرومانـــى " بوبيليوس لايناس " •

وكان الحال لايزال على ماهو عليه فى نهاية حكم كل من يورجتيس الثانى ( عام ١١٦ ق•م• ) فى مصر وديمتريوس الثانى فى سوريا من حيث التواطؤ وعمل الدسائس والزج بمدعين فى عرش سوريا •تساندهم مصر وتشد من أزرهم • وتلبية لدعوة موجهـة من قبل السوريين الذين كانوا يمقتون ديمتريوس •بعث اليهم يورجتيس الثانى بابن غير شرعى لبالاس ( Balas ) كيما يكون ملكا عليهم وكان هذا الابن اسمه الاسكندر زابيناس ( Alexander Zabinas ) وبعد حرب شعواء استمرت ثلاث سنــوات قتل ديمتريوس واعتلى زابيناس عرش سوريا فى انطاكيه• ولكن سرعان مادب الخـــلاف بينه باعتباره سنيعة •وبين يورجتيس الثانى الذى تخلى عن تقديم العون له •فكان هذا التخلى عنه سببا فى ضعف مركزه ومالبث هذا المغامر ان خلع عن عرش سوريا عقب ثورة قامت ضده وانتهت بقتله والتخلص منه • وجاء بعده امير سلوقى أصيل اسمه انطيوخوس الثامن Antiochus VIII الملقب جريبوس ( grypos ) فخلف زابيناس على عرش سوريا وتزوج من ابنة للملك البطلمى واسمها كليوباترة تريفاينـــا ( Cleopatra Tryphaena ) •

على ان مصر لم تستطع ان تجنى اى ثمار من وراء هذه الحروب التى كانت تمولها ولا من الاشتراك فى الدسائس التى كانت تحيكها وتدس انفها فى شئون البلاط السورى وقضت الظروف بأن تورط نفسها بتقديم العون والسلاح لعديد من مدعى العرش السورى • ان

روما كانت دائما تقف بالمرصاد لمصر وتحول دون ان تزداد قوتها او يتدعم مركزها فى هذه المنطقة الحساسة • ولربما كان الخوف من روما هو الذى جعل كلا من فيلو ميتور ويورجتيس الثانى يختار اسماء تحوم الشكوك حول احقيتها فى عرش سوريا • ولما جاء الملك بطليموس لاثيروس " الحمصانى " وجد نيام تصدر الى سوريا سلسلة من النزاعات التى كانت تجيش مضجعها من قبل ولكن لم ينجم عن هذا الاسلوب اى توطيد لمركز مصر فى سوريا ذلك ان " لاثيروس" بوصفه ملكا اذ ذاك على البلاد قد اراد ان يوطد مركز انطيوخوس التاسع ضد اليهود فى فلسطين وهم الذين كانوا باستمرار فى حالة ثورة وغليان ويكونون دولة داخل دولة سوريا • وعلى ذلك تخاصم مع كليوباترة الثالثة التى كانت تعتمد على تأييد الحزب اليهودى فى الاسكندرية • ولما عزل لاثيروس عن العرش وحل محله اخوه الاصغر "الاسكندر الاول " • وطد مركزه فى قبرص • على الرغم من الجهود التى بذلتها امه كليوباترة الثالثة من اجل اقصاء لاثيروس عن قبرص • وكان جميع القواد العسكريين التابعين لها قد تخلوا عنها وخانوها فيما عدا قائدين يهوديين هما خلكياس ( Cheloias ) وأنانياس ( Ananias ) • ومن قبرص استدعى " لاثيروس " بواسطة مدينة بطلمية بالصعيد كيما يعاونها ضد اليهود وقد كانت هذه فرصة متاحة كيما يعود مظفرا الى مصر عن طريق سوريا وبفضل اعوانه فى سوريا • ولكن كليوباترة الثالثة ذهبت الى ساحة القتال فى بطلمية بالصعيد لمنازلته ومطاردته وعندئذ آثر لاثيروس" ان يعود ادراجه الى قبرص ومنها حاول مرة اخرى التدخل فى شئون سوريا والاشتراك فيما يجرى فى ساحتها من نزاعات اسرية وخلافات فرقت ذات البين بين افراد الاسرة المالكة هناك • ولكن جميع الجهود باءت بالفشل ولم تجن مصر من ورائها اى طائل وانطوت على مشروعات غير مجدية اما ماكان يجرى فى ساحة الاسكندرية فانها اعمال فى غاية البشاعة • تردى فيها الملك الاسكندر الاول ونجم عنها تحطيم كل آماله • بل والقضاء على نفسه آخر الامر • اذ مالبث السكندريون ان ثاروا عليه وعزلوه عن عرشه فى عام ٨٩ ق٠م٠ ثم قتلوه اربا اربا جزاء فعلته الشنيعة وهى قتل امه البغيضة كليوباترة الثالثة عام (١٠١ ق٠م٠) وهى التى جوزيت جزاء سنمار ونسى لها مافعلته من اجله

وما ارتكبته من جرائم وموبقات من اجل تولية وهو الذى سمح لروما ان تستولى على برقة باعتبارها ارثا اوصى به ابيون لها.

استدعت الاسكندرية لاثيروس فحضر فى عام ٨٨ ق.م. وتولى الحكم لمدة ثماني سنوات حتى ٨٠ ق.م. قضاها فى سلام وطمأنينة بعد موت اخيه وقضائه على ثورة نشبت فى الاقليم الطيبى . وبعد ذلك تخلت مصر عن اطماعها السياسية فى سوريا ولم تعد تنادى بعد ذلك بأن لها سياسة سورية تبغى تحقيقها.

## حكم الملك بطليموس اوليتيس (٨٠ - ٥١ ق.م.)

### الاستقلال المصرى فى خطر :

منذ ذلك الحين لم يعد من حق مصر ان تدعى ان لها سياسة خارجية معينة على الاطلاق ، اذ لايمكن بحال ان يطلق على تلك الدسائس الدنيئة التى كانت مصر تحيكها لجارتها فى الشمال ، انها تنطوى على سياسة مرسومة وذات تخطيط معلوم . وكان من الاولى بمصر ان تعنى بوضع خطط تصون بها استقلالها ضد روما . وعقب فترة الحكم القصيرة جدا التى حكمتها ابنة " لاثيروس " وهى برنيقة الثالثة التى قتلها زوجها الاسكندر الثانى بن الاسكندر الاول وبعد موت الاسكندر الثانى نفسه فى اثناء ثورة جامحة شنتها عليه الاسكندرية ، غضبا منه وبغضا لسياسته ، كان النسل الشرعى لبيت البطالمة قد انقرض تماما فى عام ٨٠ ق.م. وكان الاسكندر الثانى نفسه مدينا لروما بعرشه الذى حصل عليه بفضل تأييد الدكتاتور الرومانى سلا ( Sulla ) عام ٨٢ ق.م. وكان اذ ذاك سلا صاحب الحول والطول فى العالم الرومانى . وهنا نقف حيارى ازاء المصير المحتوم لبلد اصبح عرشه خاليا من المطالبين الشرعيين به ، بينما دولة روما متطلعة الى هذا البلد الذى فرضت حمايتها عليه منذ امد طويل اى منذ عصر فيلومتور وعام ١٦٨ ق.م. بالذات . وازاء هذه الحيرة وخشية سوء العاقبة لو طال الامد على هذا الشغور ( interregnum ) ، سارع السكندريون

بتنصيب ابن غير شرعي للملك الراحل " لاثيروس " وذلك الابن هو بطليموس الزمار ( Auletes ) الذى عرف بهذا اللقب غير الالهى بسبب موهبة تميز بها ، بل وكان يفاخر بهذا الفن فى اللعب على الارغول او المزمار ، مع ان هذه موهبة غير خليقة بأى ملك ، وقد عرف عنه انه كان يلقب نفسه بديونيسوس الجديـــــد ( Neos Dionysus ) امعانا منه فى التشبه بألة الخمر والفن .

وعندئذ اخذ الحديث فى روما يتواتر عن وجود وصية مزعومة من مخلفات ذلك الملك الاسكندر الثانى الذى قيل أنه اقتدى بما فعله من قبل ملوك غيره وهـــم ملك برجامة ( اتاللوس الثالث ) ( Attalos III ) وبطليموس ابيون ( Apion ) فى برقة وملك بيثينيا ( Bithynia ) المسمى نيقوميديس ( Nicomedes ) فيما بعد ذلك بقليل وكأنما الاسكندر الثانى تشبه بهؤلاء ووهب بلاده ارثـــا خالصا لروما ، وسواء اصحت هذه الرواية ام لا ، فان روما كانت قد الفت هـــذا الاسلوب وهو النص على ذكرها بصورة او بأخرى فى وصايا ملوك ذلك العصر مـــن قبيل الملق او التودد او من سخرية القدر . ان القصة التى كانت تحوم حول هذه الوصية المنسوبة الى الاسكندر الثانى ، وربما كانت فرية ومحض اختلاق ، فان الموضوع برمته اصبح مطروحا بالفعل على بساط البحث فى الدوائر السياسية بروما ، وكانت الاحزاب الرومانية المتنازعة على السلطة فى الجمهورية الرومانية ، مؤيدة بالقـــواد من امثال يوليوس قيصر وبومبى ، تتسابق فى الاضطلاع بهذه المهمة وهى ضم مصـــر الى روما ، ولكن هذه الاحزاب السياسية اختلفت فيما بينها على من يكون صاحـــب الفضل فى الاستيلاء على هذا الارث العظيم .

وضم هذه الدرة وهى مصر الى سلطان الحكم الرومانى فى اواخر العصر الجمهورى . وهكذا اصبح تاريخ مصر مرتبطا ايما ارتباط بتاريخ روما وتطور الاحداث الداخلية فيهـــا فى هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الجمهورية الرومانية وهى اذ ذاك فى سبيل الاختصار

يتنازعها القادة والزعماء العسكريون ويملون شروطهم على مجلس الشيوخ او السناتـــــو الرومانى العتيد •

وكان قادة الحزب الديمقراطى وهم من نعرفهم باسم الاحرار ( populares ) يحبذون بشدة ضم مصر ، نظرا لان هذه السياسة وماتنطوى عليه ، راقت فى نظر العامة او جماهير البلبز ( plebs ) فى روما وكانوا يعرفون باسم البروليتاريا proletarii وقد استهوتهم الثروة الطائلة التى كانت لدى مصر والغلال التى كانت تنتجها ارض مصر ، املا فى ان يجرى توزيع هذا وذاك عليهم وقد يصحب هذا توزيع رقع من الاراضى كأنصبة يحظى بها عامة الشعب الرومانى • ثم ان هذه الموارد الوفيرة قد تيسر السبيل امام زعماء حزب الاحرار للوصول الى تولى السلطة فى روما ، وهذا امر لايروق لزعماء حـــزب الاشراف ( Optimates ) وناضلوا من اجل تعطيله وعدم تحقيقه بأى حال مـن الاحوال • وكان من رأيهم انه اذا ترك هذا الموضوع معلقا الى حين ، فقد ينجـــم عن ذلك ميزة اخرى وهى ان يجزل الملك المصرى العطاء ويسخو فى تقديم الرشـــاوى كيما يضمن كسب الاشراف له فى سياسته • وقد كان من اليسير استبعاد مطالبين تقدمت بهما كليوباترة القمر (Cleopatra Selene ) وهى اخت لاثيروس وارملته وكانـــت قد تزوجت ثلاثة من السلوقيين على التوالى ، فطالبت بعرش سوريا لاحد ابنائها وكانت سوريا اذ ذاك فى ايدى تيجرانيس ( Tigranes ) ملك ارمينيا وصهر ميثرداتيس ( Mithradates ) احد اقطاب ملوك الشرق القديم ، كما طالبت بعـــرش مصر لابن آخر لها • ولكن لم يحظ احد المطلبين بالرضا وصرف النظر عن هذا وذاك • وفى عام ٦٥ ق•م• عندما كان الزعيم الرومانى ماجنوس بومبى يطارد القرصان ويضيـــق عليهم الخناق فى عرض البحر ويطهر المياه الشرقية منه من شرهم وكان مشغولا كذلك بالحاق الهزيمة بعدو روما اللدود "ميثريداتيس" انبرى احد زعماء الحزب الديمقراطى واحد رجال الحكم الثلاثى الاول وهو ليسينيوس كراسوس ( Licinius Crassus ) وتقدم باقتراح مقتضاه اكراه مصر على دفع اتاوة ( Tributum ) باعتبارها ولاية

( Provincia ) تابعة للشعب الروماني ، على ان يوكل تنفيذ هذه المهمة ليوليوس قيصر • وفي العام التالي ( ٦٤ ق•م• ) بان في الافق خطر مماثل ،جاء من ناحية اخرى فمن ثنايا لائحة خاصة بتوزيع الاراضي تقدم بها سرفيليوس رولوس ( Servilius Rullus ) اقترح فيها ان يجرى توزيع جميع اراضي الدومين والاملاك العامة الواقعة في خارج ايطاليا ، على المواطنين الرومان الفقراء ولكن النبلاء او الاشراف في روما هزموا كلا من الاقتراحين السالفي الذكر وانبرى شيشرون في خطبة عصماء عنوانها ( De lege Agraria ) يندد بالاقتراح الاخير ويدعو الى رفضه وبذلك فشلت الجهود في ادماج مصر في برامج اصلاحية •

وعلى هذا النحو اصبحت المسألة المصرية احد الموضوعات الرئيسية في برامج الاحزاب الرومانية ، يسيل لها لعاب العامة وتستهوى القادة والزعماء في الجمهورية الرومانية بما تثيره من خلافات في الرأى وماتوقظه من اطماع وآمال • كانت سنة ٦٣ ق•م• في روما تعرف بسنة كاتيلينا ( Catilina ) عضو السناتو الفوضوى وهو الذى انبرى لـه شيشرون وكان يشغل وظيفة القنصل في ذلك العام فندد به وبأساليبه في عدة خطب مشهورة عرفت بهذا الاسم " ضد كاتيلينا ( In Catilinam ) كشف فيها امام مجلس السناتو مبلغ ماتردى فيه هذا العضو من جرائم واعمال تخريبية • وصحب هذا عودة بومبى من حملته المظفرة في الشرق بعد ان تم له النصر على " ميثريداتيس " وقيامه عقب ذلك بتنظيم الولايات الجديدة التى دانت لروما في الشرق او في آسيا ،وكان من جراء هـذا التنظيم ان احكم الخناق من حول مصر بوقوع كل هذه البلاد في حوزة روما فالسلوقيون كانوا قد سقطوا في يد روما واصبحت سوريا ولاية رومانية خالصة ( provincia ) وبجانب ولاية آسيا التى كانت في وقت ما تمثل مملكة برجامة ،نجد كلا من بيثينيا وبنطس جنوبى البحر الاسود يشتركان في حكومة واحدة ،كما نجد غير ذلك سلسلة اخرى من الولايات التى وقعت تحت الحماية الرومانية ومن هذه مملكة كبادوكيا وجالاتيا ومملكة البسفور على ضفاف القرم • اما الاحداث الجارية في روما فقد كان لها تأثيرها المباشر على مستقبل

مصر ، ذلك انه فى عام ٦٠ ق٠م٠ تألفت الحكومة الثلاثية الاولى ( Truimvirate )
من ثلاث رجال عظام ( triumviri ) هم يوليوس قيصر وبومبى وكراسوس وثالثهم مليونير ، وكان امرا طبيعيا ان يثير قيصر موضوع تلك المشروعات التى سبق ان اقترحها " رولوس " وان يحاول اقرارها ، ولكن عيون الملك بطلميوس اوليتيس لم تكن غافلة عما يجرى فى روما وانما كانت مسلطة باستمرار على خبايا هذه السياسة الرومانية وكان يتوجس خيفة من نتائجها على مستقبله ومستقبل مصر وقد استطاع بأساليبه الخاصة ان يشترى ذمة يوليوس قيصر ودفع له رشوة قدرها ستة آلاف من التالنتات وبذلك استثنيت مصر واخرجت من نطاق المشروعات الخاصة بتوزيع الاراضى وصدر قانون مشهور يعرف بقانون الملك السكندرى ( De Rege Alexandrino ) وبمقتضى هذا القانون اصبح بطلميوس اوليتيس هو الصديق والحليف للشعب الرومانى ( amicus et socius populi Romani )

وهكذا استطاع بطلميوس اوليتيس ان يحقق بغيته ، ولكنه اغفل شيئا مهما ، لم يكن قد عمل له اى حساب ـ ذلك هو شعب الاسكندرية ومن ان هذا الشعب كان يتألف على حد قول المؤرخ اليونانى بوليبيوس ( Polybius ) من جماعة من الغوغاء الذين نده بهم هذا الكاتب ، فان فيهم حمية القومية والوطنية الجامحة وفيهم اعتزاز بالنفس باعتبارهم من سكان مدينة الاسكندرية وهى اذ ذاك اعظم مدينة فى حوض البحر المتوسط ، بل وفى العالم المأهول بالسكان ، وكان هذا الشعب السكندرى بطوائفه العديدة يكن البغضاء والكراهية الشديدة لروما ويخشى الاثار الناجمة عما حققته من انتصارات فى الشرق ٠

وفى عام ٥٨ ق٠م٠ جاء احد الترابنة المأجورين وهو كلوديوس ( Clodius ) وهو صنيعة من رجال يوليوس قيصر ، اشتهر بالافك والبهتان ، وتقدم باقتراح بغيض يمس سمعة مصر فى الصميم ويحط من كرامتها وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح وهو يقضى بأن تلحق جزيرة قبرص بالجمهورية الرومانية وتسلخ عن مصر وتصبح تابعة لروما اى ( annex ) ، وماكان فى وسع هذا الملك الصديق والحليف للشعب الرومانى

وهو اولتمس لن يحرك ساكنا او يعترض على مثل هذا الاجراء التعسفى والقاضى بتقطيع اوصال المملكة المصرية على هذا النحو المشين ، على ان الاسكندرية ضاقت ذرعا بهذا الافلال وانحت باللائمة على الملك اوليتيس لتفريطه وطردته من مصر فى نفس العام ٥٨ ق.م . وقد لاذ بالفرار بأقصى سرعة ، ميمما وجهه شطر روما ، طالبا منها العون والتأييد فى هذه المحنة التى حلت به ولم يكن هو السبب المباشر فيها .

وهنا قد يعرض لنا ان نتساءل عن موقف روما ازاء هذا الملك الطريد . وهل هناك احتمال بأن يستجيب الرومان لدعوته ويسارعوا بنجدته ورده الى عرشه المسلوب ؟ أم ماذا يكون حل هذا المشكل ؟ وكانت هذه المهمة مربحة للغاية ، يتسابق عليها عظماء الرومان اما علانية او فى السر وكانوا يفكرون فى الاضطلاع بها لما تنطوى عليه من مكاسب مادية ومعنوية لامحيص عنها ، مآلها الفخار بالاشتراك فى عمل مجيد كهذا . وصادف فى ذلك الحين ان كانت الجمهورية الرومانية تسودها الدسائس والمؤامرات وتتنازع فيها اهواء القادة وتشتد الكراهية بين مختلف الاحزاب . وكانت ساحات الفوروم ( Forum ) او سوق المدينة فى روما مسرحا لمعارك شتى تنشب كل يوم بين الخطباء وذوى المآرب والغايات . وكان يوليوس قيصر قد ذهب الى بلاد الغال ( فرنسا حاليا ) املا فى ان يكسب من وراء غزو هذه البلاد نفوذا وموارد كان يحلم بالحصول عليها من قبل من مصر . ثم فى الوقت نفسه ترك محسوبه وهو التريبون المهرج كلوديوس ليراقب ما يجرى من الاحداث فى سوق الفوروم ويتصرف فيها بما يتفق ومصلحة سيده يوليوس قيصر . ولما عرض موضوع المسألة المصرية فى هذا الجو المكهرب ، كان ذلك بمثابة وضع الزيت فوق النار فازدادت لهيبا وسط تلك المشاعر المتأججة والملتهبة . وبسبب عن هذا سفك الكثير من الدماء وارتكاب اعمال العنف . وقد استخدم بطلميوس اوليتيس بعض السفاحين والقتلة المأجورين من اجل التخلص من مائة من السفراء الموفدين من قبل اهل الاسكندرية للدفاع عن قضيتهم فى روما ضد هذا الملك الطريد . وكان رئيس هذه البعثة وهو ديون ( Dion ) عضو الاكاديمية السكندرية قد لقى نفس المصير فقتل الجميع وتسبب عن هذه الجرائم خلق

جو من الخزى والعار حتى ان الموضوع برمته اثير امام الحاكم فى روما ونوه عنه شيشرون فى احدى خطبه (Pro Caelio, 10) ومن ذلك ففى عام ٥٧ ق.م. قرر السناتو بفضل الذهب الذى اسبغه بطلميوس على زعمائه ، ان يعاد الملك الى عرشه بواسطة كورنيليوس (P.Cornelius Spinther) حاكم كيليكيا (الاناضول) ولكن حزب الاستقراطية الذى كان ضد هذا المشروع مؤيدا من قبل الزعيم بومبى الذى كان يطمع فى ان يوكل اليه مثل هذه المهمة ـ شل قرار السناتو هذا حتى اصبح هذا القرار حبرا على ورق . وعندئذ اوى بطلميوس الى الاعتصام بمعبد افسوس فى آسيا الصغرى حيث وجد هناك مصرفا يستطيع ان يقرضه المال اللازم لتنفيذ بغيته وعندئذ استطاع ان يؤثر على الحاكم الرومانى فى الشام واسمه اولوس جابينيوس (Aulus Gabinius) وهو معروف بصداقته لبومبى . وقد اغراه طمعه فى ان يحصل على عشرة آلاف من التالنتات كان قد وعده بها هذا الملك اذا مارده الى عرشه المسلوب . وكان السكندريون فى هذه الاثناء قد نصبوا ابنته الكبرى برنيقه ملكة عليهم وكانوا فى واقع الامر يشعرون بالخطر الداهم عليهم ، فأخذوا يبحثون عن زوج لهذه الملكة واتجه تفكيرهم بالطبع الى احد افراد سلالة السلوقيين باعتبارهم اصهارا سابقين وكان هذا الشخص الذى وقع عليه اختيارهم يعيش فى سوريا ولكن جابينيوس منعه من مغادرة سوريا وبذلك حطم آمال السكندريين ثم هداهم البحث الى العثور على شخص آخر من سلالة السلوقيين كان يلقبه السكندريون بالسماك او الفسخانى (Cybiosactes) وهذا اللقب الذى اسبغ عليه ، دليل على نوعية هذا الشخص والطباع التى كان يتحلى بها . وقد ضاقت الملكة بسلوكه وهالها ماكان يتطبع به ، فدبرت قتله والتخلص منه . وعندئذ اتجهت وجهة السكندريين نحو شخص آخر يدعى اركيلاوس (Archelaos) وهو ابن احد قواد ميتريداتيس وقد تمت الموافقة على قبوله زوجا للملكة ولكنه اظهر عجزا عن التصدى لجحافل الرومان والدفاع عن مصر ورد الفرق الرومانية الزاحفة من سوريا بقيادة جابينيوس . وقد تم رد بطلميوس الى عرشه ولكنه لم يعمر طويلا فمات فى عام ٥١ ق.م. تاركا ولدين وبنتين احداهما كليوباترة السابعة وكانت كليوباترة هذه ذات

شهرة واطماع بعيدة المدى • وقد حكمت مصر بالاشتراك مع احد اخويها وهو اصغر منها ببضع سنوات وكان هذا بناءا على وصية والدها الذى وكل الى روما تنفيذ هذه الوصية • وبذلك دخل تاريخ مصر فى اطار تاريخ روما •

## كليوباترة السابعة (٥١ ب • ٣٠ ق•م•)

## يقظة مصر ومحاولة احياء الامبراطورية المصرية

هذه صفحة اخيرة فى تاريخ دولة البطالمة •تربعت فيها على دست الحكم الملكة المشهورة كليوباترة السابعة •وكانت فيها هى البطلة والمحركة لدفة الشئون وقد مثلت دورها بعناية وتفكير جاد وكادت الاخطار تجرفها بين حين وآخر ولكنها استطاعت النجاة فى هذا البحر المتلاطم الامواج الى ان عصفت بها الاحداث الوافدة من الخارج وقد استعانت فى تحقيق مآربها بفضل قائدين رومانيين عظيمين هما يوليوس قيصر وماركوس انطونيوس وهما اللذان آرت اليهما وجذبتهما اليها واستخدمتهما الواحد تلو الاخر فى تحقيق مآربها وكادت تنجح فى تحقيق برنامج سياسى واسع المدى • ولكن الحظ خانها آخر الامر والظروف التى احاطت بالسياسة الرومانية الهوجاء لم تكن مواتية لها • فلما انجبت ابنا من يوليوس قيصر وسمته قيصر الصغير او قيصرون (Caesarion) •كشفت عن نواياها البعيدة بهذه التسمية وعن استعدادها فى الوقت المناسب لكشف النقاب عن احقية ابنها فى ارث ابيه وتجلى هذا بصورة سافرة بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق•م• فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس وهو يوم مشهود ومشهور كان يطلق عليه (Ides of Mars = March) فى التقويم الرومانى •

حقيقة ان مصر منذ عهد فيلوميتور كانت قد خرت على اقدامها وكانت تستجدى بين حين وآخر شيئا من العطف والعون من روما وكانت روما تستجيب لمطالب ملوك البطالمة المستضعفين فى مختلف الازمان • ولكن الانسان المنصف لا يسعه الا ان يعجب لهذه الحيوية التى اظهرتها مصر فى عصر الملكة كليوباترة • ومصر كانت اذ ذاك هى البلد

الوحيد الباقي فى حوض البحر المتوسط بشقيه الغربى والشرقي دون ان تخضعه روما وتضمه الى املاكها • بل اننا نستطيع ان نقول ان مصر عادت تتطلع الى استعادة امبراطوريتها وتتحسس السبل التى تمكنها من تحقيق هذا الهدف ، وكان فى هذا التطلع بادرة خطر داهم على الجمهورية الرومانية فى فترة دقيقة كانت فيها الجمهورية الرومانية فى محنة كلها خلافات وانقسامات بين القواد الرومان والاحزاب واشتدت ازمة الجمهورية بظهور نفر من الجمهوريين المطالبين بالعودة الى الاسس والقواعد السليمة التى بنيت عليها الجمهورية ( Res Publica ) وادى هذا الى مقتل يوليوس قيصر وقيام الحزب الجمهورى برياسة بروتس ( Brutus ) وكاسيوس ( Cassius ) وآخرين بحملة مؤداها الانشقاق والخلاف بين هؤلاء الزعماء الجمهوريين من ناحية وبين اكتافيوس ( Octavius ) وماركوس انطونيوس ( Marcus Antonius ) من ناحية اخرى • والزعيمان الاخيران هما الممثلان لارث يوليوس قيصر والمطالبان بالانتقام لدمه من القتلة • وسوف نرى كيف يحسم هذا الخلاف فى معركة برية فى شمال بلاد اليونان هى فيليباى ( Philippi ) فى سبتمبر من عام ٤٢ ق٠م٠ ثم ان سكستوس ( Sextus ) بن بومبى كان يقود حربا قرصانية فى مياه البحر المتوسط وهى حرب كانت تقض مضجع اكتافيوس وانطونيوس وهكذا كانت الاخطار تهدد الجمهورية من كل مكان • ولكن الامر الغريب حقا هو ان تلك الامبراطورية التى داعبت خيال كليوباترة كان الاعتماد فيها على الاسلحة الرومانية وعلى سواعد الجند الرومان والفرق الرومانية ( legiones ) وهذا وضع شاذ وامر غير مستقيم ولايمكن الاطمئنان الى سلامته • ومما زاد الطين بلة ، ان رومانيا هو القائد والبطل ماركوس انطونيوس كان يمثل الداعية لقيام هذه الامبراطورية المصرية والسند القوى لها بعد عام ٣٧ق٠م٠ على ان مجرد التفكير والرغبة فى احياء هذه الامبراطورية المصرية ، اظهر حقيقة واضحة ، هى مبلغ مافى وسع اى زعيم قدير ان يفعله متى توافرت لديه كل تلك الموارد المصرية والاموال الراكدة فى خزائن مصر بوفرة ، لايمكن أن ينضب لها معين • ولاينبغى ان ننسى انه عندما احتدم الخلاف بين اكتافيوس وانطونيوس واخذا يتنازعان على السلطة فى الجمهورية الرومانية وعلى من تكون له الغلبة

منهما ، كان هذا الخلاف ماثلا في الاذهان ، ونراه كذلك مجسدا ومتمثلا في فريقين هما روما ويمثلها اكتافيوس والاسكندرية ويمثلها انطونيوس وكليوباترة • وهكذا تبلور الرضى واحتدم الخلاف في معسكرين هما روما ضد الاسكندرية او الغرب ضد الشرق •

وها نحن نستعرض بعض الاحداث الجارية ونحاول سرد اهمها لنرى كيف تطورت الامور وكيف زج بمصر في معارك عسكرية وسياسية هي في الحقيقة من صميم تاريخ الجمهورية الرومانية • بعد موت بطلميوس اوليتيس بسنتين اقدم يوليوس قيصر على عمل خطير وهو تنكره للنظم الرومانية السليمة ورمية القفاز في وجه مجلس السناتو او الشيوخ الروماني بأن عبر من بلاد الغال الى شمال نهر بواليو ( Cisalpine gaul ) كما كانت تسمى اذ ذاك ثم اجتاز نهيرا صغيرا في شمال ايطاليا اسمه الروبيكون ( Rubicon ) بجيشه مندفعا صوب روما وكان في هذا العمل منتهكا لحرمة الدستور الروماني • ويعتبر هذا العبور في عام ٤٩ ق•م• ايذانا ببدء مرحلة جديدة وخطيرة في تاريخ الجمهورية الرومانية وشاكلة القادة والزعماء الذين استهانوا بالنظم الدستورية المرعية في روما • وكان هذا العبور فاتحة عصر مرير من الحروب الاهلية ( CivilWars ) التي شهدها العالم الروماني بين قائدين عظيمين هما يوليوس قيصر وماجنوس بومبيوس • وقد كان من سوء حظ مصر ان انساقت الى مجال هذه الحروب الاهلية ، مع انه لم يكن لها في هذه الحرب لا ناقة ولا جمل ، ولكنها كانت ضالعة مع جانب يوليوس قيصر بالتبعية • وكان اولى بها ان تناصر جانب بومبي فهو الذي كان قد اسدى للملك بطلميوس اوليتيس جميلا بأن اوحى الى جابينيوس الوالي على الشام وهو احد صنائعه ، ان يرد الملك المخلوع الى عرشه وتم هذا بالفعل منذ بضع سنوات وسوف نرى ان ابن بطلميوس اوليتيس وهو وهو بطلميوس الرابع عشر وزوج كليوباترة وكان يصغرها سنا تنكر لهذه العلاقة وكان السبب والمحرض في اغتيال بومبي في المياة المصرية عند مرفأ الفرما ( بيلوزيوم ) وكان بمبي قد فر من المعركة بعد هزيمته على يد يوليوس قيصر في فارساليا ( Pharsalus ) في بلاد اليونان عام ٤٨ ق•م• ظنا ان مصر هي المكان الامن الذي يأوى اليه ولكن هذا

الملك المصرى الشاب كان اذ ذاك فى خلاف مع زوجته واخته كليوباترة والاثنان يتقاسمان وجهها اوجه على راس جيوش متناحرة ، ظنا منه ان اغتيال بومبى هو خير قربان يقدمه ليوليوس قيصر المظفر ، وكان اقحام مصر فى حرب اهلية رومانية قد جاء بطريقة غير مشرفة وغير خليقة بمصر ولا بملكتها الشريحة على عرش البلاد. وهى كليوباترة السابعة التى ساقها طمعها الى الزج بنفسها فى نزاع رومانى لحما ودما . وقبل معركة فارسالوس اوفارساليا كما كانت تسمى احيانا وهى التى حسمت ذلك الخلاف والنزاع المحتدم بين القائدين الرومانيين العظيمين : يوليوس قيصر وماجنوس بومبيوس ، كانت كليوباترة قد تورطت وقدمت سفنا لسكستوس بن بومبيوس العظيم صاحب اليد الطولى على البيت البطلمى ،وكان سكستوس هذا يقوم بحرب قرصانية فى المياه الغربية والشرقية من البحر المتوسط ، وماكان فى وسع كليوباترة ان ترفض طلبا كهذا . ولما منى بومبيوس بالهزيمة فى فارساليا واصبحت كفة يوليوس قيصر هى الراجحة ،صار موقف كليوباترة وزوجها وهو اخوها الاصغر حرجا للغاية بعد هذه الهزيمة ،على ان العلاقة بين كليوباترة وبين زوجها هذا كانت على غير مايرام فهى فى سن السابعة عشر بينما هو يصغرها بسبع سنوات والخلاف بينهما على اشده ،فتركت كليوباترة الاسكندرية ولجأت الى القبائل العربية المرابطة على تخوم الحدود الشرقية من مصر ، ومن اجل محاربة كليوباتره حشد اخوها وزوجها قواته عند الفرما ( بيلوزيوم ) حيث اعد العدة لاستقبال بومبى بعد فراره من معركة فارسالوس مهزوما مدحورا ولكن هذا الاستقبال قدر له ان يكون فيه نهاية غير كريمة برجل اسدى للبيت البطلمى جميلا فجوزى جزاء سنمار واغتيل بومبى بتحريض من الملك وهو يتأهب للرسو بسفينته فى ميناء الفرما عام ٤٨ ق٠م٠ ولما وصل يوليوس قيصر وهو يتعقب خصمه ،تعرف على جثمانه وعلى خاتمه وبكاه بكاء مرا وكم تمنى لو مات كرومانى فى ساحة المعركة ميتة شريفة وخليقة بقائد عظيم مثله ، ولكنها الخيانة وقصر النظر تؤدى بالانسان الى مواقع التهلكة . اما يوليوس قيصر فقد الف بين الاخ واخته واصلح ذات البين وطلب اليهما ان يتوليا الحكم بالاشتراك سويا وذلك تنفيذا لوصية ابيهما المودعة لدى روما.

ومنذ ذلك الحين ان منذ عام ٤٨ ق.م. اخذ نجم كليوباترة في الصعود واصبحت تتقدم الصفوف وكلمتها هي المسموعة التي يتردد صداها في كل مكان ، فهي المؤيدة والمؤزرة من قبل يوليوس قيصر ، البطل المغوار . وهنا قد يتساءل الانسان هل كان في وسع الملكة كليوباترة ان تختار طريقا غير الذي سلكته ، وان تقتدي باخيها وباختهـا الكبرى وبما فعله الشعب الابي في مدينة الاسكندرية ، فتعلن حربا شعواء على يوليوس قيصر في الاسكندرية ، وهي الحرب التي عرفت في التاريخ الروماني بحرب الاسكندريـة ( Bellum Alexandrinum ) وصنفت احداثها ووقائعها واستراتيجيتها باللاتينية ونسبت الى كاتبها المسمى هرتيوس ( Hirtius ) وقد انتهت هـذه الحرب بعد مقاومة عنيفة من جانب السكندريين وملكهم بهزيمتهم وموت ملكهم وانتصار يوليوس قيصر عليهم . انها لو فعلت شيئا من هذا ، لكان مسلكها محفوفا بالمخاطر ، ولربما كان في ذلك خسارة محققة لكل شيء ، بل فيه خسارة لحياتها نفسها ولكنهـا بعقلها الراجح وبعد نظرها ، آثرت طريق الامان وغلبت الحكمة على العاطفة وتقديـر الواقع الملموس بدلا من السير وراء الخيال متأثرة بروح الوطنية الجوفاء . ولذلك انطوت كل سياستها على ان تجذب الى جانبها ذلك الرجل الذي ابتسم له الدهر واصبـح المستقبل بين يديه ، مبشرا اياه بأنه سيكون سيد العالم . وقد تحقق هذا بالفعـل ولكن الى حين .

وبعد انتهاء حرب الاسكندرية التي استمرت سنتين او نحو ذلك من ٤٨ حتى ٤٧ ق.م. وكان السبب فيها شعلة من الوطنية المتأججة ، انتابت اهل الاسكندريـة وجرفتهم نحو التورط في ثورة جامحة ضد يوليوس قيصر الذي كان قد اتصل بكليوباترة وعاشرها معاشرة الازواج وبما هذا الى زوجها وهو ملك البلاد ، فخلع التاج من فـوق رأسه وقاد هذه الحرب فكانت ثورة عارمة وسمم الابار واقام المتاريس في الشوارع والطرقات الضيقة وبذلك وضع اخته وزوجته وشقيقها في مراكز حرجة للغاية . ولكن يوليوس قيصر استطاع بما اوتى من براعة في وضع الخطط والاستراتيجية ومعرفة بالاوضاع الطبيعية ،

ان ينجو من هذه المحنة وان يتحقق له النصر . وقد حكمت كليوباترة بالاشتراك مع اخيها الاصغر وتزوجته بعد مقتل زوجها الاول فى ميدان الحرب وكانت الجيوش الرومانيــة بالطبع تؤيد عرشهما فى مصر . وقد بلغت كليوباترة قمة مجدها واوج عظمتها بعد ان كللت هاماتها تلك الانتصارات التى كسبها يوليوس قيصر . وعقب الحرب التى شنهــا يوليوس قيصر فى شمال افريقيا وعرفت بالحرب الافريقية . دعاها يوليوس قيصر للحضـــور الى روما لتقيم فى قصر اعده لها على ضفاف نهر التيبر ( Tiber ) وقد استجابت لهذه الدعوة وعاشت فى روما فترة طويلة كانت معززة مكرمة . حتى انها ظنت انها اصبحت ملكة العالم . ولكن المفكرين من الرومان من امثال الخطيب شيشرون كانوا يضيقون بها ذرعا وينظرون اليها كما لو كانت قذى فى عيونهم ويتمنون رحيلها عن روما حتى يتنفسوا الصعداء ولكنهم لم يكونوا يملكون لها نفعا ولا ضرا . فيوليوس قيصر هو سيدها ووالــد ابنها قيصرون وهذا الابن شبيه بأبيه فى سحنته ومشيته . وشاء القدر ان يكون فى هذا الابن سر عظمتها وسر نكبتها فى الوقت نفسه وفيه تكمن المتاعب وبسببه تشتعل حروب اهلية اخرى بين زعماء الرومان بعد ان يتوارى يوليوس قيصر عن الميدان ويغتال فى يوم مشئوم فى شهر مارس من عام ٤٤ ق.م . نتيجة المؤامرة التى دبرها له جماعة من المؤمنين بالتقاليد الجمهورية فخر صريعا فى احد دهاليز مجلس السناتو الرومانى عند اقدام تمثال مقام لبومبى فى هذا الدهليز . ولا ريب ان مصرع يوليوس قيصر وهو فى قمة مجده يعتبر كارثة محققة بالنسبة لكليوباترة . إنه كان من الصعب عليها بل ومـــن المستحيل الا تتعاطف مع القيصريين وهم الحزب المنادى بضرورة اخذ الثأر مـــن الجمهوريين وهم حفنة من السفاحين والقتلة . ولكنها حاولت الا تورط نفسها فاتخـذت موقفا وسطا يتسم بالحذر والتأنى . انها ارسلت بالفعل جيوشا كانت معسكرة بمصـــر وهى اصلا جيوش رومانية جلبها جابينيوس معه عندما قدم لرد والدها الى عرشه منذ عام ٥٥ ق.م . ثم تركها لتؤيد عرش هذا الملك . فذهبت هذه الجيوش الى القائد الرومانى المسمى دولابلا ( Dolabella ) وهو من دعاة الانتقام لدم قيصر . وكان القصد من وراء ذلك تقديم العون لهذا القائد فى محاولة فاشلة . اريد بها الاستيلاء على

سوريا وانتزاعها من كراسوس الجمهوري . ولربما هداها تفكيرها ان تؤثر التريث في هذا الجو العاصف المليء بالاحداث الجسام حتى قيل انها هي التي دبرت تعطيل خروج السفن التي طلبها منها كل من انطونيوس واكتافيوس كيلا تصل في موعدها ويكون تأخير وصولها فيه الضمان لها والنجاة من اللوم اذا ماتذرعت بشتى الاسباب والمعاذير كقيام عاصفة . أخرت ابحار هذه السفن او نحو ذلك . وهكذا ارادت انتظار المصير المحتوم وقد جاء هذا في سبتمبر من عام ٤٢ ق.م . اذ حسم الموقف في معركة فليباى ( Philippi ) التي قررت مصير العالم وانتصار حزب يوليوس قيصر على هؤلاء القتلة من الجمهوريين . وكان الشرق كله فيما وراء بحر الادرياتيك من نصيب انطونيوس بينما الغرب بما في ذلك ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا وبلجيكا وغيرها من نصيب اكتافيوس وهو الوريث ليوليوس قيصر بحكم وصيته .

على ان مهمة انطونيوس في الشرق هي التي تعنينا في الصميم لارتباطها ارتباطا وثيقا بمستقبل مصر وخاصة بعد ان توثقت صلات كليوباترة بهذا الزعيم الروماني وهو ماركوس انطونيوس الذي وكلت اليه روما تنظيم شئون الشرق كله وذلك بمقتضى اتفاق تم بينه وبين اكتافيوس ولبيدوس وهو الاتفاق الثلاثي ( Triumvirate ) الرسمي والذي قدر له ان يعمر خمس سنوات ثم جدد لخمس اخرى وانتهى في عام ٣٢ ق.م . وهذا الاتفاق كان في حقيقة امره اتفاقا ثنائيا ( Duumvirate ) اكثر منه ثلاثيا فانطونيوس هو رجل الشرق واكتافيوس هو رجل الغرب وهما بطلا العالم وليس لهما ثالث يقف في سبيل ايهما . وكانت مهمة انطونيوس في الشرق تنطوي على تهدئة الاحوال ووضع حد للثورات المشتعلة في الشرق وتصفية المشاكل التي تجمعت في ارجائه ثم الاخذ بالثأر لمقتل الزعيم الروماني كراسوس ( Crassus ) الذي لقي مصرعه بعد معركة كاري ( Carrhae ) عام ٥٣ ق.م . في العراق بواسطة الاشغانيين الذين كان الرومان يطلقون عليهم اسم البارثيين ( Parthians ) وكان الخطر يتهدد املاك روما في الشرق من جانب هؤلاء البارثيين . وفي طارسوس ( Tarsus ) بآسيا الصغرى حدث لقاء

تاريخى ومسرحى فى الوقت نفسه . وكان انطونيوس قد بعث فى طلب كليوباترة لسؤالها عن اسباب تقاعسها فى تقديم العون والمساعدة لمن تصدوا للأخذ بالثأر من قتلة يوليوس قيصر . ولكن الملكة آثرت الذهاب لملاقاة انطونيوس لا كمتهمة وانما فى صورة الالهة افروديتى الجديدة ، تحف بها مظاهر العظمة والابهة التى تخلب اللب وتفتن بها العقول . ولم تجد الملكة اية صعوبة فى تبرير موقفها ، اذ مالبث انطونيوس ان تحول من قاضى الى محب متيم فى الغرام بها وقد صحبها فيما بعد الى الإسكندرية حيث نعم بمباهج المدينـــة العظيمة وبحياة كلها مغامرات ، لم يسبق لها مثيل ، وهى حياة ليس فى مقدور احد ان يقلدها او يحاكيها وكان هذا كله فى عام ٤١ ق.م. ولابد ان الملكة جال بخاطرهـــا حينذاك انها تستطيع بواسطة هذا الجندى العظيم ان تحقق مآربها وان تتخذ منــه عونا على تحقيق الامبراطورية التى كانت تحلم بها هى واسرتها فى سالف الزمان .

ولكن انطونيوس لم يترك لنفسه العنان حتى يغرق فى مباهج الاسكندرية ، فبعد ان قضى فيها فترة من الزمان ، شدته المتاعب التى سببتها له زوجته فولفيا (Fubvia) عقب فشلها فى حرب عرفت بحرب بيروسيا ( Perusia ) كانت هى المحرضة على اشعالها ضد اكتافيوس وعندئذ يممت وجهها شطر الشرق كيما تنتزع زوجها من احضـــان كليوباترة وترده الى ايطاليا ، بعيدا عن مباهج الشرق ومفاتنه . ولكن القدر خلص انطونيوس من زوجته انطونيوس واكتافيوس ، وتوثق هذا الصلح بزواج انطونيوس من اخت اكتافيوس واسمها اكتافيا وعقدت بذلك معاهدات فى برنديزى وميسينوم وهما ميناءان فى جنوب ايطاليا عام ٤٠ ق.م. وكان انطونيوس لايزال حتى ذلك الحين محافظا على طابعه الرومانى الاصيل بوصفه قائد الجيش الرومانى المعتز بولاء جنده له . وبعد ان اقام فى اثينا فترة مع زوجته الشابة ، اخذ يتأهب ويستعد لخوض حرب آل علـــى نفسه ان يشنها ضد البارثيين وكانوا قد غزوا آسيا الصغرى واجتاحوا سوريا ولكن فنتيديوس ( L. Ventidius) صدهم وانقذ تلك البلاد من شرهم ( عام ٤٨ ق.م. ) على ان سياسة الدفاع هذه ليست بكافية واصبح من المتعين على انطونيوس ان يشـــن

هجوما يتوغل به فى ارض العدو لردعه والتنكيل به ولذا اخذ يستعد لهذه الحملة المرتقبة ،فطلب الى زوجته اكتافيا ان تعود ادراجها الى روما وان تتركه وشأنه ثم ذهب هو الى انطاكيا فى الشام حيث كانت الملكة كليوباترة فى انتظار مقدمه وفى صحبتها اولادها منه ومن يوليوس قيصر •

وابتداء من هذا اللقاء ،طرأ تغيير واضح على انطونيوس بفضل تأثير كليوباترة عليه بالطبع ،فأخذ يتحلل من الافكار والمبادىء الرومانية الصحيحة وينحاز الى الملكة كليوباترة بطريقة سافرة ،غير آبه ولا مبال بما يتقول به الرومان عليه من اقاويل ، والبعض منها مبالغ فيه بالطبع • ولكن الحقيقة لم تكن خافية على احد • فلقد حاولت الملكة كليوباترة فى اول الامر ان تستعين به فى استرداد اجزاء من الامبراطورية البطلمية القديمة فجعلته يمنحها بعض اجزاء من سوريا الحالية او سهل البقاع فى لبنان ثم يقدم لها كذلك جزيرة قبرص والبلدان التى كانت لمصر فى اقليم كيليكيا بآسيا الصغرى وفى جزيرة كريت ثم اقتطعت من املاك الملك هيرود فى بلاد اليهودية ( Judaea ) اقليما غنيا بأشجار البلسم هو المعروف باقليم ( Jericho ) • على ان الخطط التى وضعتها هذه الملكة بالاشتراك مع حبيبها ،اتخذت صورة مختلفة جاءت اكثر تحديدا عندما عقد العزم على غزو بلاد الشرق ومحاربة البارثيين • حقيقة ان هذا البرنامج ربما اعتبر فى حد ذاته جزءا من المهمة الاصلية التى وكلت اليه باعتباره احد الرجلين العظيمين فى العالم اذ ذاك ( duumvir ) ،ولكن سرعان ما اتضح ان هذا الحاكم الرومانى لم يكن يفعل هذا من اجل روما وان افكاره قد تطورت واصبحت بعيدة كل البعد عن هذا المجال ،فمصلحة روما لم تعد هى الرائد والمحرك الاساسى فى خاطره •

انه لم يكن يبغى تحقيق اهداف واطماع قوامها تكوين ولايات رومانية او محميات تسبغ عليها روما سلطانها ،وانما انطوت احلامه على تكوين حلف مؤلف من الممالك الشرقية مآله ان يصبح قوة موحدة تكون الاسكندرية عاصمة لهذا الحلف الموحد • وهذا

البرنامج هو ادنى مايمكن تصوره من الخواطر التى ربما علقت بأذهان كل من انطونيوس وكليوباترة .

وليس هنا مجال التعرض لاى وصف مسهب لتلك الحملة التى شنها انطونيوس على اولئك البارثيين فى عام ٣٦ ق.م . ولا لأى شرح لما لقيه من هزيمة اليمة ومن خسائر فادحة فى اثناء عودته . وقد اعقب هذا المصير قيامه بشن حرب على أرمينيا فى ٣٤ — ٣٣ ق.م . ولعل قصده من وراء ذلك تغطية فشله السابق . وقد انساق فى هذه الحملة الى التوغل فى قلب ارمينيا وانتهت تلك الحملة بأسر الملك الارمينى ومعه اسرته . وقد احتفت كليوباترة بهذه الانتصارات بصورة تجلت فيها العظمة والروعة واسترعت جميع الابصار فى الاسكندرية وفى العالم الرومانى وبانت فيها بصورة واضحة تلك الاطماع التى كانت تجيش فى صدر كل من كليوباترة وانطونيوس . فكليوباترة بالاشتراك مع انطونيوس جالسا على منصة فى الاسكندرية ومن حولهما الابناء والبنات وقد اعلنت كليوباترة نفسها ملكة الملكات ولم يكن هذا باللقب الاجوف . لانها قدرت ان تكون لها السيطرة التامة على جميع الممالك التى وزعت فى هذا الحفل على ابنائها وبناتها من انطونيوس الذى كانت قد اعلنت من قبل زواجها منه . فأرمينيا والاقاليم المنتظر اقتطاعها من امالك البارثيين . تكون من نصيب الاسكندر هليوس ( الشمس ) الذى زوجته من يوتاتى ( Jotape ) ابنة ملك ميديا ( Media ) اما سوريا فكانت من نصيب بطلميوس فيلادلفوس وكانت كل من قبرص وبرقة من نصيب كليوباترة القمر . وتوزيع هذه الممالك على هذا النحو السافر فيه اثارة لغضب روما وكشف للنقاب عن حقيقة نوايا انطونيوس وكليوباترة ازاء روما . ولكن معركة اكتيوم فى عام ٣١ ق.م . حطمت هذا البناء قبل ان يكتمل صرحه وتم تحطيم هذا البناء كله بعد موقعة نيقوبوليس ( Nikopolis ) فى ظاهر الاسكندرية سنة ٣٠ ق.م . وكانت روما تعلم علم اليقين انه لو ترك الحبل على الغارب حتى يتم ذلك البناء لكان فيه خطر داهم على روما نفسها . ولذلك عقد اكتافيوس العزم على تكتيل قواه وجعل ولايات الغرب وعلى رأسها ايطاليا تقسم له يمين الولاء ( Conjuratio )

فى حرب يمتقى شنها ضد كليوباترة التى كان الرومان يعتبرونها العدوة اللدودة فهى ( hostis ) اما انطونيوس فاعتبر متخليا عن رومانيته ، بتصرفه فى املاك روما فى الشرق تصرف الشخص المفتون والغارق الى اذنيه فى حب كليوباترة وقد حسم الموقف عندما التقى الشرق تحت لواء انطونيوس والغرب تحت لواء اكتافيوس فى موقعة مشهورة فى المياه الغربية من بلاد اليونان وفى خليج امبراشيا ، فى اكتيوم سنة ٣١ ق٠م٠ وهى تعتبر اشهر موقعة فى العالم القديم وكانت الهزيمة من نصيب انطونيوس وكليوباترة اللذان فرا من المعركة وعادا الى مصر ثم تلى ذلك موقعة نيقوبوليس التى حققت نصرا مؤزرا لاكتافيوس وانتهت بضم مصر الى حظيرة الحكم الرومانى وانتهاء دولة البطالمة بانتحار كل من انطونيوس وكليوباترة ٠

وهكذا منذ وفاة الاسكندر الاكبر حتى معركة اكتيوم وهى فترة تبلغ نحو ثلثمائة عام ( من ٣٢٣ حتى ٣١ ق٠م٠ ) تراوحت خلالها السياسة البطلمية بين المد والجزر وكان فيها تاريخ البطالمة يشتمل على حقب معلومة ، وكل حقبة منها تتميز بخصائص من القوة والضعف ٠ وكان ابرزها تلك الحقبة التى شهدت انهيار تلك الامبراطورية فى نهاية القرن الثالث واوائل القرن الثانى ويعتبر بدء هذا الانهيار فى عهد فيلوباتور واتخذ صورة متسمة بالحروجة والخطورة فى عهد ابيفانيس وحوالى عام ٢٠٠ ق٠م٠ سار هذا التداعى والانهيار بخطى سريعة ٠ وسواء اكانت مملكة البطالمة تمثل مملكة محصورة فى وادى النيل ام اتسعت رقعتها وانبسطت فى الشرق والغرب والشمال فكانت ذات ثروات لابد من المحافظة عليها واحرزت امبراطورية مترامية الاطراف وتطلبت سلطانا بحريا شاملا للحوض الشرقى من البحر المتوسط ، فان مصر بمعناها الضيق (١) كانت هى القاعدة وهى الاساس الذى كان يرتكز عليه كل هذا الكيان الهائل وكانت هى الشغل الشاغل للملوك المتعاقبين فى هذه الاسرة فلم تغب مصالحها عن بالهم ولم تغفل عيونهم عن الاهتمام بالجهاز الحكومى حتى فى احلك الظروف واسوأ الاحوال ٠

(١) رقعة وادى النيل لاتزيد كثيرا عن مساحة مملكة بلجيكا حاليا والمسافة من رأس البرلس شمالا حتى اسوان وجزيرة فيلة جنوبا تقدر بـ ٤٩٢ ميلا اذا طار الغراب رأسا اما اذا سرنا مع تعرج نهر النيل فالمسافة تبلغ ٧٥٠ ميلا ٠

## الانفتاح على دول عالم البحر المتوسط وعلاقة مصر بروما

بعد ان سردنا اهم الاحداث التى جرت داخليا وخارجيا على عهد ملوك البطالمة المتعاقبين ، يحسن بنا ان نجمل هنا معالم بعض الموضوعات ذات الاهمية الخاصة فى تاريخ مصر البطلمية ومدى الارتباط بين السياستين الداخلية والخارجية وأثر كل منهما على الاخرى ، من الحقائق المعروفة ان الاضواء من جميع الجهات فى الحوضين الشرقـــى والغربى من البحر المتوسط ظلت مسلطة بشدة على مصر ، عقب فتح الاسكندر الاكبر لتلـــك البلاد فى عام ٣٣٢ ق.م. اى فى مستهل الثلث الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، بل ومن قبل ذلك بكثير ، ولعل الفضل الاكبر فى ذلك كان راجعا الى ذلك الوصف الشامل الذى كان هيرودوت قد دبجه فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عن مصر فى الكتاب الثانى من موسوعته التاريخية وشاء هذا المؤرخ اليونانى ان يسهب فى وصف ما شاهده من امجاد تلك البلاد واثارها وماخبره من عادات قومها ، وقد عن له ان يبرز ماكان لها من عظمة حضارية ومن تقاليد دينية متميزة وماكان لاهم معالمها الاثرية من روعة وماكان لطوائف سكانها من نشاط متعدد الجوانب ، اخذ كل هذا بألباب القراء فى العالم اليونانى وبخاصة من اتيحت لهم الفرص لزيارة هذه البلاد ، وملك عليهم نفوسهم وقلوبهم ، وهكذا استجاب كثيرون من اليونانيين لدعوة هيرودوت ولبوا النداء فرادى او جماعات ، فلما جاءت غزوة الاسكندر لمصر ، فتحت البلاد ابوابها على مصاريعها مرحبة بأولئك الوافدين الذين جاءوا من كل صوب وانهالوا على مصر كالسيل المنهمر ، متهافتين عليها ، اما لمجرد مشاهدة معالم تلك البلاد او للانضواء فى سلك الخدمة المدنية او العسكرية لدى ملوك البطالمة ، وبخاصة الملك بطلميوس فيلادلفوس وهو الذى كان صيته قد طبق الافاق حتى بلغ السماكين وذلك بفضل اصلاحاته التقدمية العديدة وسعة افقه وتشجيعه للعلم والعلماء والمؤسسات الثقافية والحضارية التى اقامها واسبغ عليها من فضله وماله الشيء الكثير ، فاكسبه هذا شهرة عالمية واسعة ، وكانت اصلاحاته العمرانية وحكومته البيروقراطية مضرب الامثال ، كما كانت انتصاراته بفضل قواده فى البر والبحر محل تفاخر وتباهى ، مما اوحى للشعراء اليونان ان يشيدوا بذكرها وكان شاعر البلاط السكندرى ثيوقريطـــس

( Theocritus ) أحد الاعلام الذين دبجوا سلسلة من الاشعار والقصائد الرعوية (Idylls ) التي طالما تغنى بها الرعاة • وجاءت فيها إشارات مطولة الى امجـــاد هذا الملك والى سخائه وتشجيعه للوافدين من اليونانيين وبخاصة من كان يروم منهـــم الانضواء فى سلك الجندية • دعاهم الشاعر ثيوقريطس الى التبكير بالحضور الى مصر ففيها على حد قوله «كل شيء جميل وفيها ملك جواد • يجزل العطاء للضباط والجنود ويقدم لهم افضل الاجور عن سعة وسخاء «فلا هو بالضنين الشحيح وانما يبسط لهم الرزق ويؤمن مستقبلهم بما كان يمنحه لهم من اقطاعات ومنح عينية ومساكن كان يوطنهم فيها وينزلهم على بيوت المصريين «يشاركونهم فى بعض طوابقها كنزلاء طبقا لاوامر ملكية صادرة فى هذا الشأن سار اغلب ملوك البطالمة من بعده على منوال بطلميوس فيلادلفوس ونهجوا على نهجه بصفة عامة فى مجالى السياسة الداخلية والخارجية وفتحت مصر ذراعيها مرحبة بمقدم شعــوب كثيرة بين اوربية واسيوية واستجابت البلاد لجهود فئات نشطة من هؤلاء المغامرين والمفكرين والحرفيين الذين اوتوا مقدرة فائقة على العمل الجاد والنشر والاصلاح فى شتى الميادين فأثمرت جهودهم وايعنت بذور هذه السياسة وانتعشت البلاد اقتصاديا وماديا وادبيا •

وكان من بين المتطلعين الى مصر المزدهرة بل والمتربصين بها دولة ناهضة فـــى الحوض الغربى من البحر المتوسط «وتلك هى روما الغنية والدولة الناهضة فى وسط ايطاليا • كانت هذه الدولة الغنية منذ بدء عهد بطليموس فيلادلفوس ترقب الاحداث الجارية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط وبصادف أنذ ذاك ان كانت فى كفاح مرير وصدام وعراك مع دولة افريقية هى قرطاجة وهى دولة بحرية تجارية عتيدة وفى اثناء الصدام المسلح بين روما وقرطاجة فى الحرب البونيقية الاولى ٢٦٤ ــ ٢٤٢ ق•م «كانت مصر حذرة ووقفت موقفا محايدا متسمـــا بالحكمة والروية وعرضت ان تقوم بدور الوسيط بين جارتها الافريقية وبين روما من اجل تسوية هذا الخلاف المسلح «ولكن كليهما هذا رفض • وعلى اى حال فمصر ارتبطت بروما منـــذ ٢٧٣ ق•م• برباط من الود والصداقة واخذت الصلات بين الطرفين تأخذ شكلا وديا وتوثقت الروابط والعلاقات بينهما على مضى الزمان وتوطدت شيئا فشيئا • ولكن روما كانت تدبــر وترسم وتضع الخطط • متطلعة الى المستقبل البعيد وقد استطاعت

ان تنصب الشباك التي كبلت بها اعناق ملوك البطالمة المتعاقبين وخاصة بعد ان دب الخلاف والنزاع الاسرى بين افراد البيت المالك واستفحل هذا الخلاف واتخذ صورة مسلحة بين اخوين غير متحابين هما بطلميوس السادس فيلوميتور وبطلميوس الملقب يورجتيس الثاني ثم مرة اخرى من بين الاخير بعد أن آل اليه ملك البلاد وحده عقب موت اخيه وبين اخته وزوجته كليوباترة الثانية • وحوادث ووقائع تلك الحروب التي نجم عنها انقسام البلاد وانفصال الصعيد عن الوجه البحرى ليست بخافية على أحد • وقد امتدت آثارها الى جميع مرافق البلاد وتعطلت حركة التقدم الى ان تم الصلح في عام ١١٨ ق•م• بين الطرفين المتحاربين وسلم كل فريق للآخر بقبول ماتم من اوضاع وحقوق على نحو ما فصلته لنا وثيقة بردية مشهورة هي رقم ٥ في مجموعة بردى تيبتوس فهدأت الاحوال ولكن الى حين وكانت روما تتدخل وتنصح وتوفق بين المتقاتلين • وتجددت الخلافات بين ابناء كليوباترة الثالثة الزوجة الثانية ليورجتيس الثاني وهما بطلميوس الاسكندر الاول والاسكندر الثاني وجاء بطلميوس لاثيروس فاشتط في سلوكه وتجددت الثورات والقلاقل — كل ذلك وروما ضالعة من وراء ستار •تارة تتدخل للتوفيق بين الزوج وزوجته والاخ واخته واخرى بين الاخوة المتنافسين على العرش •

وليس من قبيل الاستطراد ان يجرنا هذا الحديث الى الكلام عن الاوضاع في مصر والآفاق التى اتجهت اليها في سياستها الداخلية والخارجية في حقب حاسمة من تاريخها ثم التعرض على الظروف والاحوال الاجتماعية والاقتصادية في عصر شامل لملوك ثلاثة هم بطلميوس فيلوباتور ٢٢١ — ٢٠٣ ق•م• ثم بطلميوس ابيفانس ٢٠٣ — ١٨١ ق•م• ثم بطلميوس فيلوميتور ١٨١ — ١٤٥ ق•م• وفي هذا الصدد ينبغى ان نذكر دائما حقيقة اساسية وهى انه بينما كنا في العصر السابق وهو عصر كل من بطلميوس فيلادلفوس وبطلميوس يورجتيس الاول نعتمد اساسا فيما نستقيه من معلومات على النصوص الادبية والوثائق البردية وهى وفيرة ثم على مجموعة من النقوش والعملة •اذا بنا في العصر التالى وهو عصر الملوك الثلاثة المشار اليهم نواجه بحالة اخرى فيها ضحالة نسبية من حيث المصادر التى نستقى منها المعلومات •فالمصدر الادبى إقتصر اغلبه على فقرات من المؤرخ اليوناني بوليبيوس ( Polybius ) الذى عاش في عصر بطلميوس

يورجتيس الثانى وزار مصر اذ ذاك ثم ان وثائق البردى والنقوش المسطرة على الحوائط والالواح الحجرية والجيرية والرخامية والبوابات اقل فى القرن الثانى مما كانت عليه فى القرن الثالث • على ان هذا الوضع قد يكون بمحض الصدفة ولاينهض التعويل عليه اذ قد تكشف الايام عن ارشيف اشبه بأرشيف زينون الذى القى اضواءا ساطعة على عصر بطلميوس فيلادلفوس وفترة الاثنى عشر سنة من صدر عهد بطلميوس يورجتيس الاول او قد نعثر على وثائق ذات قيمة واهمية تكشف لنا الغامض من الامور وتضيف اشياء كثيرة لما لدينا من نتف المعلومات ثم ان تلك الفقرات التى كشفت حديثا عن قرار مهم اصدره الملك بطلميوس فيلوباتور عن عبادة الاله ديونيسوس والطقوس والمراسيم الخاصة بهؤلاء العباد وضرورة حصرهم وتسجيل اسمائهم لدى ديوان فى الاسكندرية ودعوتهم من شتى انحاء البلاد للمثول فى الاسكندرية أمام موظف معين اسمه ارسطوبولوس الخ مما جاء فى وثيقة بردية منشورة فى مجموعة بردى برلين — هذا القرار لايقل اهمية وقيمة عما جاء فى حجر رشيد من عهد بطلميوس ابيفانيس وصدر عن الكهنة ورجال الدين وهم يشيدون بذكر هذا الملك ويشيدون بأعماله • ثم ان العملة زودتنا بقسط وفير من المعلومات لايقل اهمية عما جاء فى نظيراتها مما يرجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

وعندما نعرض لهذه الحقبة ينبغى ان نتوخى الحذر الشديد فلا نعمد الى التعميم والاستنباط جريا على مبدأ مرعى او طبقا للقاعدة التى تقول بأن السكوت وعدم النص يخول لنا التسليم بالوضع الراهن ( argumenta ex silentio ) فمثلا اذا ماتوافرت لدينا الادلة على وجود وظيفة ما مثل وظيفة وزير المالية ( dioecetes ) فى القرن الثالث ولم نجد شيئا يدل على بقائها فى القرن الثانى • فليس من الضرورى ان نستنبط انها توارت عندئذ واصبحت فى خبر كان والعكس بالعكس اذا وجدنا اشارة لوظيفة عامة فى القرن الثانى مثل وظيفة الاديولوجوس ( Idiologos ) او الابيستراتيجوس ( Epistrategos ) فليس معنى هذا ان احدى هاتين الوظيفتين او كلتيهما كانتا موجودتين فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد وكذلك الحال اذا ماوجدنا

ظاهرة مهمة من صميم الحياة الاجتماعية او الاقتصادية او الدينية غاب ذكرها فى اى من الوثائق الخاصة بالقرن الثالث ثم ظهرت فجاءة ولاول مرة ثبت اشارة ثبت اليها فى وثائق القرن الثانى ، فقد يكون هذا من قبيل الصدفة البحتة ، ذلك لان معلوماتنا عن القرن الثالث ، على وفرتها وتنوعها ، ليست بالوافية ولايزال يعتورها النقص والقصور كذلك فى نواحى كثيرة . وعلى ذلك ينبغى علينا ان نأخذ حذرنا فلا نعمد الى التعميم ولا الى استقراء الحوادث او استنباط الاحكام العامة حتى لانتهم بالاسراف فى احكامنا او التغالى والافراط فى حسن النية.

ومما لاريب فيه ان مصر فى هذه الحقبة اى فى عصر الملوك الثلاثة وهم فيلوباتور وابيفانيس وفيلوميتور ، كانت تمر بمحولة فى غاية الدقة والحروجة من تاريخها . وباليتها مرحلة انتقال عابر وانما هى سلسلة متصلة ومتلاحقة من الازمات السياسية بين داخلية وخارجية وفيها مواجهات لمراكز قوى فى الداخل وفى الخارج . وكان اولى بها ان تتأهب وتستعد لكل هذه المواقف والمواجهات حتى لاتباغت فتتعثر وتقع فى شراك ينصبها لها الخصوم فى الداخل وفى الخارج . وهناك اتجاهان اثنان لابد من التنويه عنهما . ومع انهما ليسا بجديدين تماما ، الا انهما برزا بصورة جدية فى سياسة البطالمة ، مما استرعى انظار الباحثين والكتاب . والاتجاه الاول كان متعلقا بمعاملة الملك لطوائف الاهلين من عامة الشعب المصرى ونظرته اليهم . وقد شاب ذلك تغيير ملحوظ فى هذه الحقبة ، قوامه الاهتمام بعناصر الشعب وجموعه الغفيرة ( Laoi , plethos ) ومايمكن ان تؤديه هذه الاعداد الهائلة من خدمات لحكومة الملك البطلمى ، المتقوقع فى وادى النيل والمعتصم بين جنباته ، متخذا استراتيجية طبيعية من موقع البلاد الفريد ومستعينا فى ذلك بطوائف الشعب المصرى ، وبخاصة طبقة المحاربين المصريين وهم جموع الماخيموى (Machimoi ) وقد اسفرت هذه السياسة عن نتائج باهرة بالنسبة لتدعيم مركز الاسرة البطلمية فى مصر . وقد اختلفت هذه السياسة عما كان متبعا من قبل فى صدر عصر البطالمة الذين كان ملوكهم الثلاثة الاولون وهم بطلميوس سوتير وبطلميوس فيلادلفوس وبطلميوس يورجتيس الاول

فى فترة طوالها (٨٤) اربعة وثمانون عاما من ٣٠٤ حتى ٢٢١ ق.م. يتبعون سياسة تتسم بحب السيطرة والتحكم وان كانت تهدف الى حب الخير والصالح العام وعرفت بالاسم الاتى (benevolent domination) وكانت هذه السياسة موجهة نحو جموع الشعب المصرى ونحو طوائف الى ونانيين على السواء وهى فى مجموعها تنطوى على البطش والجبروت والتفرقة فى المعاملة ، فالملك باعتباره سيد البلاد كان مسيطرا على كل مقاليد الامور ومتحكما فــى شئون عامة الشعب ومستعينا فى ادارة البلاد بالعناصر الاجنبية فى تسيير دفة الشئـــون الدينية والعسكرية وكان اغلب هؤلاء الاعوان من الاغريق او الاسيويين المتهللنين اى المصطبغين بصبغة يونانية ، فلما جاء فيلوباتور تبدل الامر غير الامر وابتدعت سياسة جديدة كانت لاتزال فى دور التجريب والاختبار فأسفرت عن نجاح تام وقد تحسستها الحكومـــة البطلمية شيئا فشيئا بعد ان وجدت الا جدوى من انتهاج سياسة السيطرة والتسلـــط والتحكم واتخاذ هذا المبدأ قاعدة اساسية فى سياسة الحكم الداخلى وقد حل محل هذه السياسة المنطوية على شيء كثير من التعنت وقصر النظر ، روح من التعاون والمشاركة الاخوية (association) وكان من جراء هذه المزاملة ان اقدمت الحكومة البطلمية علـى عدة تنازلات فى مجالات شتى من اهمها الشئون العسكرية والشئون الدينية فانضوى المصريون فى سلك العسكرية وتعلموا نظام الفيالق واثبتوا جدارة وكفاية فى معركة رفح ثم اسبغـــت الحكومة على المعابد المصرية فى مختلف انحاء البلاد وكثير منها فى قرى الفيوم وبخصوصهـا معابد صغيرة اسبغت حق الايواء والجيرة (heira asyla) وهو حق كان يخول للمعبد ايواء المستجيرين واللاجئين كما قدمت الحكومة منحا وامتيازات لبعض الشخصيات البارزة من بين طوائف الشعب المصرى وبذلك كسبت عطفه وتأييده .

اما الاتجاه الثانى فيتعلق بالسياسة الخارجية لملوك البطالمة وانعكاسات مايجرى فـى الشئون الداخلية على توجيه تلك السياسة الخارجية والحد من اهدافها واطماعها . ذلك ان هذا الاتجاه المتطور فى تصريف الشئون الداخلية قد صاحبه تغيير جذرى فى الاسلوب الذى اتبعته الحكومة فى الشئون الخارجية ، ولتفسير ذلك نعاود الكرة فنقول ان الملـوك

البطالمة الاولون كانوا يحاولون جهد استطاعتهم فى كل من الداخل والخارج تحقيق غايتين أساسيتين اولاهما الاستقلال التام ( autarchia ) ثم الكفاية الاقتصادية ( autarkeia ) فى الناحيتين السياسية والاقتصادية وثانيهما قوامه متوقف على ما يحققه الامر الاول والهدف منه تحقيق اكبر قدر مستطاع من السيطرة والسيادة (Hegemonia) فى معترك شئون العالم المتحضر والمشاركة فى توجيه السياسة الخارجية وبهذا تتحقق السيطرة والعظمة لمصر وتضمن حرية الارادة والحركة وقد حدث هذا بالفعل واصبحت بلدان العالم فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط تخطب ود مصر التى صارت حرة طليقة ذات كفاية اقتصادية وسياسية تحرك دفة امورها بنفسها ولا يتحكم فيها احد وبذلك كفلت لنفسها قدرا لا بأس به من العظمة والسيطرة واحتفظ الملوك الثلاثة الأولون بقدر متوازن فى هاتين الناحيتين . فلما جاء بطلميوس الرابع الملقب فيلوباتور وخليفتاه بطلميوس ابيفانيس ثم بطلميوس فيلوميتور حاولوا جهد استطاعتهم الاحتفاظ بالكفاية الاقتصادية والسياسية ولكن الامر الثانى وهو السيطرة تردى اعتوره شيء من القصور واخذ هؤلاء الملوك الثلاثة يتخلون شيئا فشيئا عن هذا الوضع ومتطلباته ، فالسيادة او بالأحرى ال( hegemonia) كانت عبئا ثقيلا كلف البلاد من الجهد فوق طاقتها فلم تعد تتمسك بهذه النعرة التسلطية . وعصر فيلوباتور كما نعرفه من ثنايا ماكتبه المؤرخ بوليبيوس ملىء بالقلاقل والاضطرابات والنشاط العسكرى تأهبا للحرب ضد انطيوخوس الثالث وهى التى انتهت بالنصر المؤزر لسياسة سوسيبيوس وزير الحربية للملك فيلوباتور ونجاحه فى رد الملك انطيوخوس الثالث وهزيمته فى موقعة رفح سنة ٢١٧ ق.م . وعقب انتهاء هذه الحرب قام المصريون بتأييد من القوات المحاربة المصرية وهى ال machimoi بثورة جامحة وعمت البلاد حرب اهلية كبدت مصر ضحايا كثيرة وجعلت كلا من فيلوباتور ووزيره سوسيبيوس يفكر ان فى تدبير الامر من اجل مواجهة تلك المصروفات الباهظة فى حربين متعاقبين : حرب خارجية وثورة داخلية . وقد اضطر الملك الى احداث بعض التغييرات فى التنظيمات المالية والادارية وكانت لهذه المستحدثات عواقبها وآثارها البعيدة المدى ، فيما شهدناه من ظهور اجهزة جديدة مثل جهاز ديوان الاديولوجوس ومن فرض بعض ضرائب بعضها على ايجار الاراضى وغلتها وبعضها

الاخر مستحدث مثل ضريبة هي اشبه ماتكون بضريبة الرأس ( syntaxis ) وهي لم تكن معروفة في القرن الثالث وجاءت البينات الدالة على ظهورها لاول مرة في العصور المتأخرة من الحكم البطلمي وكان اول من فرضها هو فيلوباتور • ومن المحتمل كذلك ان الدولة عمدت الى تشديد الخناق على الناس من اجل تحصيل الايجارات والضرائب والوفاء بالمتأخرات ومطالبة الجماهير بالقيام بأعباء شتى والتزامات عديدة ذات طابع استثنائي ،مما يجري عادة في اوقات الاخطار وفي اعقاب الحروب • وفي اغلب الظن كانت مثل هذه الاجراءات ينجم عنها ادخال بعض الاصلاحات في الجهاز البيروقراطي • والثابت انه في القرن الثاني قبل الميلاد لوحظ وجود بعض التغييرات الهامة في الادارة المالية : فشدد النكير على الناس واحكمت الرقابة من جانب الحكومة على الافراد وحددت العلاقة بين الموظفين الموكلين بجباية الضرائب وبين المسئولين ماديا عن تحصيلها وذلك كيلا يفلت احد من الوفاء بما عليه من التزامات • وقد يجوز لنا القول بأن هذا الاصلاح الضريبي والتغيير في اسلوب الجباية تم على يدي فيلوباتور • ونظرا لان التشدد في جباية الضرائب والاصرار على توقيع المسئولية المادية على الموظفين والملتزمين والضامنين ،جر بالتبعية الى عمل مصادرات لاملاك بين حين وآخر ،فإن تكدس هذه الاملاك المصادرة نتيجة لهذه السياسة المتشددة ،استتبع بالطبع التفكير في انشاء جهاز خاص يضطلع بمثل هذه الاعباء والمسئوليات ،واذا ماوجدنا أدلة وبينات ابتداءا من عام ١٧٩ ق•م• رما بعدها ،على ظهور ادارة جديدة او جهاز مالي جديد اطلق عليه " ايديولوجوس " ( Idiologos ) مهمته مرتبطة بالاملاك المصادرة والاملاك التي لاصاحب لها ،اليس يحق لنا والحالة هذه أن نتصور ان هذا الجهاز ربما كان يرجع تاريخ تنظيمه او ابتداعه مع ابراز الاهمية المتزايدة له في عهد بطلميوس فيلوباتور ( ٢٢١ – ٢٠٣ ق•م ) على ان هذا كله من قبيل التكهنات وليس لدينا في الوقت الحاضر اي سند يؤيد هذا الادعاء • ونظرا لان بعض الشك والريبة لايزال يحيط بهذا الموضوع الذي تشوبه شوائب ولايعدو ان يكون سوى احتمالات ،نسوقها هنا من قبيل الاستدلال ،فإنه من الأحوط الا نجزم برأي قاطع ،فقد تسفر الاوراق البردية المكتشفة عن بينة دامغة تؤيد هذه الفكرة او تدحضها • على ان الثابت الآن والقول المتداول هو

ان هذه الوظيفة ظهرت فى عهد فيلوميتور عام ١٦٨ ق.م • على أن أهم اصلاح ينسب الى فيلوباتور وقامت البينة والادلة المؤيدة لذلك هو ما ادخله على نظرية الحكم وتغيير فى اهداف الحكومة ، فانتقل من سياسة التحكم والسيطرة والجبروت على المصريين الى خط مغاير تماما هو مراعاة اللين والمشاركة والتعاون مع طبقات الشعب المصرى وذلك بقصد كسب ودهم وكسر حدة كرههم للحكم المقدونى •

وعندما نتحدث عن السياسة الداخلية وماطرأ عليها من تغيير فى الاسلوب والاهداف ، ينبغى أن تكون انظارنا مسلطة على روما لان علاقة مصر بروما كانت هى كذلك فى تطور وتغيير مستمر وقد اخذت تلك العلاقات تتوطد وتتوثق على مضى الزمان • وكانت روما فى الوقت نفسه تتطلع لمستقبل بعيد المدى وترسم وتخطط لصالح الشعب الرومانى ووجدت فى مصر المناخ الصالح والميدان الخصب لتنفث فيه سمومها وتحقق اغراضها واهدافها ولكن على مهل وبدون تعجل للاحداث فنصبت من الخطط والشباك ماكبلت به اعناق ملوك البطالمة ابتداء من الملك فيلوميتور ومن تبعه من ملوك البطالمة الاخيرين الذين انحى عليهم استرابون بالائمة وعممهم أوفول الصفات ونسب اليهم الضعف والمسكنة واطلق عليهم صفة المخمورين والمنبذلين وضرب المثل بالملك بطلميوس " اوليتيس " او الزمار والد كليوباترة السابعة • وكان الخلاف الاسرى على اشده ، فدب بين الاخ واخيه والزوج وزوجها والد والد وابنته ، واتخذ صورا رهيبة ، امتشق فيها الجانبان السلاح وكان من ابرز الامثلة على ذلك ماوقع بين الاخوين فيلوميتور وبطلميوس السابع او الثامن الملقب يورجتيس الثانى ثم ماوقع بعد ذلك من خلاف اسرى مسلح بين هذا الاخير وبين زوجته كليوباترة الثانية ، مما ادى الى وقوع حرب اهلية ، انقسمت فيها البلاد على نفسها وبذلك أتيحت الفرص الذهبية لروما كيما تتدخل فتصلح ذات البين وتمعن فى الوقت نفسه فى اذلال هؤلاء الملوك الضعاف او المستضعفين • وقد وصف لنا المؤرخ اليونانى بوليبيوس بعض الاحداث التى وقعت وكان معاصرا لبعض منها فوصفها لنا باسهاب وتفصيل وحكاها بأسلوب رصين ، متوخيا الحيدة والاتزان ، فكان خير مرجع لنا عن هذه الحقبة • ولدينا وصف آخر جاء على لسان مؤرخ رومانى مشهور هو ليفى ( Livy )

يؤكد نفس هذه المعانى المتضمنة روح الضعف والاستسلام والتدخل الرومانى بصورة سافرة فى شئون مصر وتأييد هؤلاء الملوك الضعاف من البطالمة وقد سرد لنا بعض الاحداث الاخرى والنيفية التى كانت تتبعها روما فى ارسال السفراء لمصر لاملاء الشروط والتحكم فى مصائر الامور وحادثة السفير الرومانى " جايوس بوبليوس لايناس " مشهورة وهو الذى املى شروطه على انطيوخوس الرابع ملك سوريا وارغمه على الرحيل من الاسكندرية والتخلى عن جنى ثمار نصر كان قد حققه فى مصر وبذلك خلصت روما مصر من عدوها هذا وصانت العرش البطلمى المتأرجح ولكن كان هذا لفترة • وعندما سنحت الفرصة وقعت مصر فريسة ولقمة سائغة فى يد الرومان بعد حين سلطان او قيصر • والرومان كانوا منذ اول الامر يعرفون جيدا اهدافهم ويتلمسون افضل السبل لتحقيق هذه الاهداف • وقد وقفوا لمصر بالمرصاد ولم يتورعوا عن استخدام الوقيعة فى بعض الاحيان بين الاطراف المتنازعة من الملوك والامراء والاميرات فى البيت البطلمى ولم يكفوا عن التدخل فى شئون مصر الداخلية والخارجية ونصرة هذا على ذاك ولم يتأخروا عن حماية عرش البلاد من الوقوع فريسة فى حوزة الملك السلوقى ، انطيوخوس الرابع ، عندما هم بالفعل فى احتلال البلاد والحضور الى الاسكندرية لجنى ثمار انتصاراته على الجيش البطلمى فكان تخليص عرش مصر من انيابه على هذا النحو السافر بمثابة وضع مصر تحت الحماية الرومانية ، ولو ان هذه الحماية لم تعلن رسميا • وهكذا سارت امور العرش البطلمى فى تخبط وتأرجح فى مهب الريح • ويبدو ان ملوك البطالمة الاخيرين قد استكانوا واصبحت وآثروا ان يسيروا فى ركب روما ويصبحوا تحت حمايتها وان يفاخروا بما كانت تسبغه عليهم من القاب جوفاء لاتغنى ولاتسمن من جوع مثل اللقب الذين اسبغه مجلس الشيوخ الرومانى على بطلميوس اوليتيس وهو الحليف والصديق للشعب الرومانى " Socius et Amicus populi Romani " وهذان لقبان حصل عليهما بالرشوة والعطايا لاعضاء الشيوخ ولقادة الرومان وزعمائهم من امثال يوليوس قيصر وبومبى واولوس جابينيوس • وهكذا تمشى هذا الوضع المشين بصورة تجلت فيها البشاعة على عهد ذلك الملك المستضعف بطلميوس اوليتيس (٨٠ – ٥١ ق.م ) ، عندما ثار عليه السكندريون

وطردوه سنة ٥٨ ق.م. لتفريطه في المحافظة على املاك مصر والسماح لروما بالاستيلاء على جزيرة قبرص دون ان يحرك ساكنا وعندئذ سارع الى روما مستنجدا . وجال وصال في روما واخذ يوزع الرشاوى ويرتكب مختلف الحماقات الى ان تمكن من ان يحظى بعطف الزعيم بومبى وباقناع اولوس جابينيوس (aulus gabi-nius) وهو الوالى الرومانى على سوريا ووعده له بتقديم رشوة ضخمة تعني عشرة آلاف من التالنتات اذا ماقدم له العون في ردة الى عرشه بفضل جحافل الجيش الرومانى وقد تحقق له ماأراد. وجاء الجيش الرومانى زاحفا من الشام وبقى في الاسكندرية منذ عام ٥٥ق.م. لتأييد هذا العرش فكان لبقائه فيها مغزاه واصبح بمثابة جيش احتلال ، بل هو احتلال فعلى مقنع وبذلك اصبح الطريق ممهدا للحكم الرومانى السافر في عام ٣٠ ق.م.

هذا عرض سريع لاهم الاحداث وتطوراتها مع تحليل لمغزاها ومرماها وليس من سرد هذه الاحداث اى مناص لكل من يتصدى لتاريخ مصر في الحقبة الاخيرة من الحكم البطلمى . والشيء الذى يسترعى الابصار هو ان الاحتلال الرومانى لمصر لم يأت فجاءة ولم يكن ابن ساعته ولم تكن روما متعجلة للاحداث ، بل تربصت لمصر وتحينت الفرص من اجل تحقيق مآربها في غير ما جلبة ولاضوضاء ولم تتسرع اطلاقا في اقتطاف هذه " الكمثرى " الدانية ، بل تركتها حتى نضجت وسقطت تلقائيا كما يسقط الفرخ في عب صاحبه وهو مستلقى على ظهره تحت الشجرة ينتظر في غير تلهف اقتطاف هذه الثمار في الميقات والموعد المعلوم . ويدل هذا على مدى الاحكام في وضع الخطط السياسية ومبلغ الاتقان في رسم روما لها.

## تعقيب المؤرخ والجغرافي استرابون

وان خير مايمكن ان نختتم به هذا البحث في تبيان الوان من الحضارة التى سادت في مصر على عهد ملوك البطالمة وشرح سيرة اهم ملوكهم سواء من حيث القوة او الضعف هو ان نقدم هذه العجالة التى دبجها مؤرخ جغرافي لامع هو استرابون الذى كان معاصرا للحقبة الاخيرة من حكم البطالمة ، بل وشاهد عيان اذ زار مصر في صدر الحكم الرومانى

فى عام ٢٤ ق٠م٠ بدعوة من صديقه الوالى الرومانى الثانى على مصر واسمه ايليوس جاللوس ( aelius gallus ) ( ٢٦ — ٢٤ ق٠م ) ٠ وقد عاش استرابون فى مصر لبضع سنين وجاب ارجاء هذا القطر واتيحت له فرص فريدة كيما يتجول ويتقصى وقد وصف لنا معالم البلاد وآثارها ونظم الحكم فيها ٠ ومن الطريف انه عرج على تاريخ الاسرة البطلمية وعقب على احوال ملوكها مع الاقتضاب الشديد ٠ ولكن احكامه وآراءه اتسمت بالاتزان والتعمق فكان كالخبير والعليم ببواطن الامور ولذلك لايجب ان نغفل ذكر بعض هذه الآراء وهو عندما سرد لنا قصة مصر البطلمية وما احاط بها من ظروف قبيل الغزو الرومانى ٠ افاض فى ناحيتين هما الكيفية التى كانت تدار بها شئون البلاد فى عهد ملوكها الاخيرين مع التنويه بصفة خاصة بتصرفات كل من الملك بطلميوس يورجتيس الثانى الملقب " فيسكون " مع السكندريين الذين ناصبوه العداء فأغلظ لهم القول واساء معاملتهم ثم انحى كذلك باللائمة على الملك المفتون بطلميوس اوليتيس الذى ساءت صحيفته وتردى فى سلوكه وتعثر فى تصرفاته مع السكندريين اما الامر الثانى فهو نظام الحكم الذى وضعه الرومان لمصر والضمانات التى اتخذوها لكى يصونوا البلاد من التعرض للهزات التى واجهتها فى اواخر حكم البطالمة٠

ولما كان استرابون فى جملته ممن يوثق فى روايته ويعتد بما ذكره وما دبجه كتصوير منه لحالة البلاد حتى اننا كثيرا مانجد فى الكتب والمراجع عبارات مقتبسة منه من قبيل التدليل على اوضاع معينة فى سياسة الحكم والاختصاصات والتوجيهات فى هذا السبيل فقد اثرنا ان نسوق هنا ترجمة لبعض الفقرات والفصول من كتابه السابع عشر ٠ ايمانا منا بأن قول استرابون لابد ان يؤخذ بأخذ الجد ويكون له الاعتبار قبل كل شئ وهاهى مقتبسات من الكتاب السابع عشر (١) ٠ ١١ ( ٧٩٦ ) " ذلك ان بطلميوس بن لاجوس خلف الاسكندر ثم جاء من بعده فيلادلفوس وخلفه ابنه يورجتيس ) الاول ) ثم فيلو پاتور بن اجاثوكليا ثم جاء من بعده ابيفانيس وخلفه فيلوميتور وهكذا كان الابن يخلف دائما اباه حتى جاء فيلوميتور فخلفه اخوه يورجتيس الثانى الذى كان يلقب كذلك

فيسكون ثم جاء من بعده بطلميوس لاثوروس (أ) وفى آخر المطاف جاء بطلميوس اوليتيس ( الزمار ) المعاصر لأيامنا وهو والد كليوباترة • ومعنى هؤلاء الملوك فيما عدا الثلاثة الاولون ، قد افسدتهم حياة الترف والدعة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فأداروا شئون الحكم فى البلاد على نحو بالغ من السوء • على ان أسوأ هؤلاء جميعا هم اولئك الملوك الذين يرقم لهم بالرابع والسابع ثم الاخير وهو الزمار • وفضلا عن ان هذا الملك الاخير كان فاسقا ومفتونا ، انصرف الى الملذات والشهوات ، فانه كان يهوى مصاحبة الجوقات بمزماره وكان يفاخر بما يبديه من مهارة فى هذا الفن ، الى حد انه لم يكن متردد لحظة فى اقامة مباريات ومسابقات من هذا النوع فى القصر الملكي • وفى هذه الحلقات والمباريات كان يجول ويصول ويحرز قصب السبق من باقى المتنافسين • وانتهى به المطاف بأن نفاه السكندريون ( عام ٥٨ ق•م• ) ولما كان له من البنات ثلاثة ، كبراهن هى الابنة الشرعية (برنيقه ) فقد اعلنها السكندريون ملكة عليهم • اما ابناه الذكور فكانا لايزالان فى سن الطفولة واقتضى هذا اقصاؤهما عن معترك الحياة السياسية فى ذلك الحين • ولما استقر بها الحكم وتربعت على عرش البلاد ، بعثوا الى سوريا يبحثون لها عن زوج ووقع الاختيار على شخص يُدعى النسخانى ( Cybiosactes وكان يدعى نسبته الى ملوك الشام ولكن الملكة بعد بضعة ايام تخلصت منه ودبرت خنقه اذ لم تطقه لفظاظته وغلظته ثم حل محله زوج آخر يسمى اركيلاوس تسلل الى مصر دون علم جابينيوس اذ احضره بعض العلماء الى الملكة ونودى به ملكا على مصر ( حكم مدة ستة اشهر فقط ) وانتهى امره بذبحه بواسطة جابينيوس • وفى الوقت نفسه كان بومبى العظيم (أ) اى بطلميوس الثامن ؛ وهنا اسقط استرابون كلا من بطلميوس التاسع الملقب بالاسكندر الاول واسقط كذلك اخاه بطلميوس العاشر الملقب الاسكندر الثانى ولعل السبب فى اغفال ذكرهما ان هذه القائمة كانت تضم اسماء الملوك الشرعيين وهما فى اغلب الظن ليسا كذلك قد استقبل اوليتيس الذى كان قد وفد الى روما ( فأكرم وفادته ) وقدمه الى السناتو حيث اسبغت عليه كنيتان هما الصديق والحليف للشعب الرومانى واستطاع بومبى ان يضمن له التأييد لا فى

رده الى عرشه المسلوب فحسب ، وانما كذلك في الحكم باعدام اغلب السفراء الوافدين من مصر والبالغ عددهم مائة وكانوا قد اوفدوا في بعثة الى روما لمناهضة الملك المخلوع وتفنيد حججه . وكان من بين هؤلاء "ديون" الفيلسوف الاكاديمي ورئيس هذه البعثة . وعلى ذلك اعيد بطلميوس الى عرشه (مؤيدا بجيش روماني) بواسطة جابينوس . قتل بطلميوس كلا من اركيلاوس وابنته . ولكن لم تنقض فترة طويلة في حكمه حتى وافاه اجله فمات اثر مرض انتابه تاركا من بعده ابنين وبنتين كبراهن تسمى كليوباترة . وعندئذ اعلن السكندريون كلا من الابن الاكبر وكليوباترة على عرش البلاد . ولكن الرفقاء والخلان في صحبة الابن الاكبر اوقدوا الفتنة والبوا الرفاق الصغير على كليوباترة وسعوا الى نفيها فأقلعت من الاسكندرية مصطحبة معها اختها الصغرى ويممة شطر سوريا . وقد صادف في ذلك الحين ان (أتت الرياح بما لاتشتهي السفن) اذ جاء بومبي العظيم فارا من فارساليا وعند رسوه في ميناء الفرما عند جبل كاسيوس ، وقعت خيانة كبرى ، فذبح بومبي العظيم بواسطة رجال حاشية الملك (وبتحريض منه) ولما جاء يوليوس قيصر ، امر بقتل الشاب (١) واستدعى كليوباترة من منفاها ونصبها ملكة على عرش البلاد ثم عين الاخ الباقي زوجا لها وشريكا معها في الملك على الرغم من انه كان صغيرا جدا . وبعد مقتل يوليوس قيصر في مارس سنة ٤٤ ق.م . وبعد معركة فيليباي عام ٤٢ ق.م . التي اندحرت فيها قتلة يوليوس قيصر من الجمهوريين عبر انطونيوس الى آسيا وبعث الى كليوباترة يستدعيها كيما يسائلها عن تصرفاتها (وتقاعسها في تقديم العون ضد قتلة يوليوس قيصر) ولكنه كرمها واحتفى بها احتفاءا كبيرا ثم اتخذ منها زوجة وانجب منها ذكورا واناثا ثم خاض غمار حرب في موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م . بصحبتها ولكنه آثر الفرار في اعقاب الملكة عندما خرجت بأسطولها من الميناء امبراشيا ميممة شطر مصر . وبعد ذلك اقتفى اغسطس قيصر اثرهما وقضى عليهما وسلب مصر . هذا كان خاتمة لحكم مصر التي كانت شئونها موضع عبث فئة من المتهورين

(١) هنا استرابون اسقط حرب الاسكندرية بين يوليوس قيصر وشعب الاسكندرية واشعال الثورة بتحريض من هذا الشاب الذي ثار لكرامته وخاض الحرب ثم مات في خضمها .

والمخمورين " • ويمضى استرابون فى الفصل الثانى عشر مستهلا كلامه ببدء عهد جديد هو وقوع مصر فى حوزة الرومان ومفصلا لنا اركان الحكم الرومانى ووجهة نظر الامبراطور الاول فى وضع البلاد ومنهاجه فى حكمها • وقد عرج استرابون على اختصاصات بعض كبار الموظفين الذين نصبهم اكتافيوس ، وهاك يقول " لما كانت الحكومة البطلمية قد تنكبت سواء السبيل ولم تنهج النهج السليم فإن مستقبل مدينة الاسكندرية ور فاهيتها كانت فى تدهور وانهيار بسبب حالة من الفوضى كانت قد ضربت اطنابها فى كل مكان • وعلى اى حال فالمؤرخ " بوليبيوس " الذى كان قد زار المدينة وساءته حالتها المتفشية فى ارجائها فقال ان طبقات ثلاثة اصبحت هى التى تقيم فى المدينة اولاها العنصر المصرى من عامة الشعب وهؤلاء شديد و الانفعال وسرعان ما يتملكهم الغضب وليس لهم اى ميل او استعداد لتقبل الحياة المدنية وثانيتها الطبقة المأجورة او المرتزقة وهؤلاء فى قلوبهم قسوة واعدادهم كبيرة ولايمكن ان تسلس لهم قيادة ، ذلك انهم بحكم عادتهم القديمة كانوا يحتفظون بقوات اجنبية مسلحة وهذه القوات دربت واهلت لكى تَحكم بدلا من ان تُحكم ، نظرا لضعف الملوك وميلهم للاستكانة وماعرفوا به من تفاهة • اما الفئة الثالثة فهى تتمثل فى عنصر مؤلف من السكندريين وهؤلاء كذلك لم يكن من شيمتهم الرغبة فى الاخذ بأسباب الحياة المدنية ولكنهم على اى حال كانوا خيرا من غيرهم لانهم مع كونهم امشاجا مخلطة ، كانوا بحكم اصل نشأتهم يمتون لليونان بأوثق الصلات ويمضيهم فى الصميم المحافظة على العادات والتقاليد المرعية لدى عامة اليونان • ولكن حالتهم مالبثت ان تدهورت بعد ان انقض عليهم الملك بطلميوس يورجتيس " فيسكون " وشتت شملهم • وكان فى عصره ان وفد لزيارة الاسكندرية •

الكاتب اليونانى المشهور " بوليبيوس " وسجل انطباعاته • وعندما تحزبت المدينة وجابهت هذا الملك يورجتيس الثانى وكنته بالشرير بدلا من فاعل الخير وعصت اوامره ، صوب عليهم جنده الذين قضوا على كثيرين منهم ـ تلك كانت حال مدينة الاسكندرية

وهذه هي الاوضاع السائدة فيها وهي على حد قول بوليبيوس ينطبق عليها قول الشاعر الخالد هوميروس في الكتاب الرابع من الياذته ( السطر ٤٨٣ ) حيث قال ان الذهاب الى مصر طريق وعر وطريق محفوف بأشد المخاطر ".

## مظاهر القومية المصرية على عهد البطالمة

ان هذا الموضوع طريف للغاية ، وقد يشوق الدارس المصري ان يعرض له بشيء كثير من التفصيل وهو يتطلب من المؤرخ استعراض الكثير من الاحداث واستنباط الكثير من النتائج من ثنايا تلك الاحداث وماكان يجري خلالها من تصرفات الملوك البطالمة المتعاقبين بل ومن قبلهم الاسكندر الاكبر مؤسس تلك الحضارة الهيللنستية التي عمت أرجاء الشرق وتسربت الى مصر بخطى وئيدة وثابتة فأفادت منها مصر اكلها في كل حين واقتطفت خير الثمار من مناهلها الاصلية في بلاد اليونان وحوض البحر المتوسط اما بصفة مباشرة او على يد اولئك الوافدين من تلك الاقطار ، ثم مالبثت مصر أن اصبحت هي نفسها قبلة الانظار في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

والامر يستدعي منا ان نذكر بعض الاحداث التاريخية ، فنقول ان غزوة الاسكندر الاكبر لمصر في عام ٣٣٢ ق.م . كانت ضمن حملته الكبرى على دولة الفرس ، انتقامـا للحروب الشعواء التي كان الفرس قد شنوها في صدر القرن الخامس قبل الميلاد على المدن اليونانية في شبه جزيرة اليونان ونكلوا فيها بالمدائن واشعلوا النيران في أثينا . وسرعان ماكللت مساعي الاسكندر بالنجاح والتوفيق على عدوه الفارسي دارا الثالث وتقوضت دولة الفرس وتمزقت عقب موت ملكها ، دارا الثالث هذا ودخلت مصر لأول مرة في تاريخها المعروف ، في زمام حضارة اوربية بعد استسلامها للاسكندر وترحيبها بجيوشه باعتباره المخلص والمنقذ لها من بطش الفرس وظلمهم وبذلك انضوت مصر في منطقة النفوذ الغربي والحكم الاوربي . والغزاة من مختلف الشعوب كانوا قد تسللوا من قبل الى وادي النيل في الاجيال السالفة من الشرق والغرب والجنوب وبعض هؤلاء الغزاة استقروا في مصر لفترات طويلة ، ولكن البلاد كانت دائما في حرز مكين من

الغزو من ناحية الشمال ، بفضل ذلك الحاجز المنيع الذى هيأته واوجدته تلك المستنقعات الكثيرة المنتشرة فى شمال الدلتا ، بل ان نهر النيل نفسه كان بمثابة الحائط الواقى من الغزو الخارجى من ناحية الشمال ، فصان مصر ضد "برديكاس" عندما هدد بطلميوس بن لاجوس فى فترة ولايته على مصر واراد تأديبه ولكن حملته باءت بالفشل ومات برديكاس نفسه فى هذه الحملة التأديبية الفاشلة . فالنيل اذاً كان فى كثير من الاحيان خير واقى من غزوات الاعداء وشرهم . ولما اتيحت الفرصة السانحة لليونان والمقدونيين على السواء لغزو غرب آسيا وسقطت آسيا الصغـــــرى والشام فى ايديهم ، اصبح الامر يسيرا عليهم فتغلبوا على مصر وسيطروا عليهـــــــا ووقعت البلاد ، كما قلنا ، فى قبضة الاسكندر فى يسر وسهولة . ولم يكن اليونانيون شعبا يجهله المصريون تماما قبل ذلك ، بل كانوا على معرفة وثيقة بهم فاختلطــــوا بهم وعركوهم ايام الفرعون ابسماتيك والاسرة الصاوية ( السادسة بعد العشريــن ) ، وسمحوا للايونيين والميليطيين بالذات ( وهم سكان مدينة ميليطوس( Miletus ) فى آسيا الصغرى) بالإقامة والاستقرار فى مدينة اسسوها وكانت خاصة بهم وتلـــك هى نقراطيس ( Naucratis ) مركز ايتاى البارود فى غربى الدلتا وقد اقام اليونانيون فى كنف هذه المدينة وسمح لهم باقامة جميع الخصائص والمقومات اللازمـة للتمتع بحياة يونانية خالصة ومباشرة نظم الحكم المألوفة من مجلس البولى ( الشيوخ ) ومجلس يضم الاحرار ( اكليسيا ) ومعابد للالهة اليونانية ومؤسسات ثقافية وحضارية مما كان اليونانيون يألفونه ويحرصون على الاحتفاظ به أينما ذهبوا . ثم فضلاً عن هذا كله كانوا يباشرون تجارتهم بحرية تامة ــ تم كل هذا على سبيل الترضية والتشجيـــع لهم على السكنى فى مصر والانضواء فى خدمة ملوكها كجنود مرتزقة ، فكانوا بذلك نواة صالحة لنشر الثقافة اليونانية فى مصر منذ ابكر العصور . وهكذا كانت التجارة متبادلة بين مصر والبلاد اليونانية فى فترات متباينة طوال القرون التى سيطرت فيها كريت على ساحل الشام وفلسطين وهناك ادلة كثيرة على قيام مثل هذا الاتصال بين كريت ومصر

ولما انتقلت مراكز السيطرة اليونانية الى ميسينى اوميكيناى ( Mycenae ) الواقعة فى شبه جزيرة المورة ( البلبونيز ) ثبت بالادلة المستنبطة من الكشوف الاثرية ان المدن فى بلاد اليونان احتفظت بسبل الاتصال والتبادل التجارى مع مصر • ولما ظهرت هيلاس الجديدة ( Hellas ) واخذت مدائن اليونان مثل أثينا وكورنثة وارجوس وطيبة فى التوسع وحرصت على ارسال ابنائها للخارج لاقامة مستعمرات ومستقرات مدنية ، حافظت على بقاء الصلة بينها وبين المدائن الام • وسارعت المدن التجارية مثل ميليطوس وغيرها فى آسيا الصغرى الى المشاركة فى هذا المضمار ، فأقامت مراكز فى مصر ، كانت بمثابة مستودعات واختارت من مدينة نقراطيس قاعدة فى غرب الدلتا • على ان الاثر الذى كان لهؤلاء التجار اليونان على مصر ، سواء من الناحية الادبية او المادية ، لايمكن الاعتداد به ولا مجال لذكره لتفاهته • ذلك ان هؤلاء التجار كانوا قد وفدوا الى مصر لمجرد التبادل التجارى ومباشرة الاعمال ، املا فى تحقيق مكاسب وتحسين احوالهم المادية • ولعلهم كانوا فى احسن الاحوال يجوبون ارجاء البلاد ويزورون مناطقها الاثرية بوصفهم سائحين • ويصدق هذا القول على اولئك الجنود من المرتزقة اليونان الذين قدموا الى مصر لتأدية خدمات عسكرية بوصفهم مأجورين ، مجلوبين خاصة لهذا الغرض واتصلوا فى خدمة الفرعون ابسماتيك ثم امازيس وغيرهما من فراعنة مصر فى العصر الصاوى •

وان بقايا نتف ادبية او تاريخية دالة على ما أسماه الكتاب اليونان بحكمة المصريين ووجود اشارات عابرة الى ذلك المعنى فى ثنايا المصنفات التى دبجها الكتاب اليونان فيما قبل عصر الاسكندر ، لهى شذرات لاتكشف عن اى معرفة وثيقة بكنه الحياة المصرية ولا بألوان من الادب المصرى الخالص ، بل ان كاتبا ومؤرخا مشهورا مثل هيرودوت وقد جاب المدن المصرية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وتقصى احوال البلاد واختلط بأهلها وسأل كهنتها ، لم يتعمق فى الكتاب

الثاني من موسوعته التاريخية وهو الجزء الذى خصصه لوصف مصر واحوالها وعادات شعبها وآثارها ولم يزد فيما كتبه عن ذكر بعض المظاهر الخارجية والحالة الاجتماعية والدينية فى شيء من الاطناب ولذا جاء وصفه بعيدا عن اى تعمق متسما بالسطحية واصبح لا يمكن التعويل عليه ولا يعدو ان يكون من قبيل الكلام العابر الذى يروق للصحفى المتجول ان يسطره . وزاد الطين بلة انه كان يحكى ما يذكره له الكهنة دون اى تمحيص ، فأوقعه هذا فى " مطبات " وجر عليه نقدا ، فرمى بالبساطة وعدم تحرى الدقة فى الرواية وقد خرص فيما ذكره عن المصريين على أن يصمهم بتهمة النفور من الاجانب والغرباء ( Xenophobia ) وقال أن المصريين يخشون الاختلاط بالاجانب ويحرصون على ان ينأوا بجانبهم حتى يكون هناك بينهم وبين الاجانب حجاب. وهذه تهمة لصقت بالمصريين على مدى سنين طويلة .

وفى الوقت نفسه لانجد من الناحية المصرية اى اثر دال على ان بعض المصريين شغفوا بالتغلغل فى حياة جيرانهم من اليونانيين او حتى عرفوا شيئا من قبيل حب الاستطلاع عن الافكار اليونانية او اظهروا بعض الاكتراث بالوقوف على لون من الوانها او انهم نهلوا فى وقت ما من عيون الآداب اليونانية والفكر اليونانى والفلسفة ابتداء من طاليس او سقراط وافلاطون وارسطاطاليس او اقتبسوا شيئا من الاشعار التى جادت بها قرائح الشعراء اليونان ابتداء من شعراء الملاحم هوميروس والتراجيديين ايسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس والكوميديين من امثال ارسطوفانيس وميناندر وكتاب القرن الخامس قبل الميلاد وهو القرن الذى كان يمثل العصر الذهبى فى تاريخ الامة اليونانية جمعاء . والامر الغريب ان المصريين نأوا بجانبهم الى حد ما عن مناهل الحضارة اليونانية هذه ، اعتزازا منهم بحضارتهم المصرية العريقة ولم يلتفتوا الا الى اليونانيين ومواهبهم الطبيعية من صفاء الذهن ودقة الحس [illegible] بين اليونانيين وبين المصريين [illegible] الشعور [illegible] القدرة على الابتكار وحسن التنظيم والتبويب . ولعل السر فى [illegible]

من الاجانب حسبما عبر عنه هيرودوت فكان لهذا الشعور اثره في عقلية المصريين وجعلهم يحبون العيش بمنأى عن الاجانب ، متوجسين بعض الخيفة ، وسواء أكان المصريون على حق فى تصرفهم هذا ام لا ، فان هذه الظاهرة كانت بادية للعيان فى تصرفاتهم ازاء اليونانيين الذين عايشوهم وسكنوا فى بيوتاتهم وعملوا فى المصانع والحقول معهم جنبا الى جنب.

وعلى ذلك فان قيام مملكة مقدونية فى مصر في اعقاب دولة الاسكندر وتقسيمها بين نفر من قواده واركان حربه ثم استئثار بطلميوس بن لاجوس بوادى النيل بعد عام ٣٠٥ - ٣٠٤ ق.م. واعلانه الاستقلال بالمملكة المصرية وتأسيسه حكومة ملكية بيروقراطية على هذا النحو العاجل والسافر - كل هذا قد أثار مجموعة من المشاكل لها جدتها وطرافتها فى الوقت نفسه. وفى اغلب الظن لم يتيسر لاى من الاسر الاجنبية التى حكمت مصر من قبل ، ان تكون على هذا النحو من الاختلاف التام فى افقها وعقليتها ، وعلى هذا البعد الواسع المدى عن قلوب المصريين الصميمين مثلما كان عليه الحال على عهد البطالمة . ومع ذلك فإذا كان الحكم الاجنبى البطلمى يروم الا يقتصر على مجرد كونه احتلالا عسكريا بحتا ، فان الضرورة كانت تقضى بأن يتحقق نوع من الاختلاط والمزج بين اليونانيين والمصريين فى شتى النواحى وبالاخص فى الناحية الدينية . وكان لابد ان يحدث شىء من التماثل والتطابق او التوفيق بين شتى المذاهب والعقائد والطقوس الدينية. ولم يجد اليونانيون الى ضير فى هذا ، مع تسليمهم بأن اليد المصرية كانت هى العليا فى الشئون الدينية وان المصريين كان قدمهم راسخا فى هذا المجال. وقد اصيب اليونانيون بشيء من الرعب والخوف والوجل ازاء مايجرى فى المعابد المصرية من طقوس ومراسم دينية ومايقيمه الكهنة المصريون من مختلف العبادات فى شتى انحاء مصر وماحرصوا عليه من مظاهر العظمة والجلال . ووقف اليونانيون مبهورين ومبهوتين ازاء معبد الكرنك بطيبة وشتى المعابد الاخرى بمفيس والفيوم ودندرة وفيلة واسوان وادفوا ، وحيثما

ذهبوا فى أرجاء الوجهين القبلى والبحرى وجدوا معابد مماثلة ذات عظمة وجلال ، تتضاءل امامها معابد اليونان فى بلادهم وفى شتى جزر بحر الارخبيل . ثم ان سياسة الاسكندر الاكبر كانت تنطوى فى مجموعها على قيام امبراطورية عمادها المزج والاختلاط والتوفيق بين الشعوب دون تفرقة بين اليونانى وبين الافريقى أو الاسيوى فالجميع سواء ، متآلفون فى النهوض بحضارة عالمية . وفى دعوة الاسكندر هذه ، كان متقدما على عصره وكان سباقا الى العمل الجاد من اجل تحقيق وحدة البشر وهى فكرة ربما كان الموحى بها استاذه ومعلمه الكبير الفيلسوف ارسطاطاليس وكان هدف الاسكندر الاسمى ان يتحقق مثل هذا المزج بين الشعوب فى كل ولاية من ولايات هذه الامبراطورية . وبمعنى آخر كان يبغى ان "يهلن" الشرق الادنى برمته ويصبغه بالصبغة الهيلينية ، المشوبة بالطابع الشرقى وان تسود مصر حضارة هيللينستية ، فلاهى مصرية صميمة ولاهى يونانية خالصة وانما هى مزيج منهما ، بحيث يكون التركيب فيها منسجما متسقا ومتحدا بعضه فى بعض . على ان وفاة الاسكندر الاكبر فى سن مبكرة ، اذ وافته المنية وهو لايزال فى مقتبل العمر لم يجاوز الثلاثين الا بقليل ، جعله يترك برنامجه الذى عمل جاهدا على تحقيقه ، فى صورة "كروكية" ، لم يكتمل اطارها ولم تتضح معالمها ولاتعدو ان تكون سوى خط بيانى ، اهتزت بعض اجزائه ، ولكنه على اى حال كان السبب المباشر فى ان مصر انفتحت على العالم الاوربى وسارت فى ركب حضارة اوربية ، محور ارتكازها فى مقدونيا وبلاد اليونان وجزر بحر الارخبيل .

وقد قيل فى وقت ما انه كان من حسن حظ مصر ، عند تقسيم الولايات فى هذه الامبراطورية بين قواد الاسكندر واركان حربه ، ان وقعت من نصيب رجل حصيف من هؤلاء القواد ، كان قد جاوز الاربعين من عمره وعركته الايام وعرف من اين تؤكل الكتف والكيفية التى يتمكن بها من ان يصيد بحجر واحد عدة عصافير على الشجرة . وفضلا عن ذلك فانه كان يؤمن بأن عصفورا فى اليد خير من

عشرة على الشجرة ــ ذلك هو بطلميوس بن لاجوس المقدونى ، الذى اشتهر بأنه من خيرة قواد الاسكندر واقربهم واحبهم الى نفسه واكثرهم دهاءا وحنكة ، وبالاضافة الى هذا كله فان الظروف كانت قد اتاحت له ان يكون فى صحبة الاسكندر ورفقته عندما غزا مصر ثم أنه لازمة طوال الفترة التى قضاها الاسكندر فى مصر وصاحبه فى رحلته الشاقة الى واحة سيوه من اجل زيارة معبد آمون فيها ثم حضر تخطيط مدينة الاسكندرية واختيار هذا الموقع الرملى على الشاطئ الشمالى الغربى بالقرب من قرية تسمى راقوده يسكن فيها الصيادون . وفى هذا المقام القصير الذى لم يزد الا قليلا على المدة التى يقضيها السائح العادى فى مصر وهى بضعة اشهر ، استطاع بطلميوس وهو فى صحبة الاسكندر ان يطلع بحكم الظروف وملازمته للاسكندر فى جميع خطواته وتحركاته ،على جميع الخطط والمشروعات التى كان الاسكندر ينوى تطبيقها وتنفيذها فى مصر ،فأفاد من ذلك وتعلم الشئ الكثير وهو كما قلنا ،يمثل الرجل الحصيف والحريص بطبعه والعليم ببواطن الامور ، وفى اغلب الظن كان البرنامج الذى اتخذه بطلميوس بن لاجوس لنفسه وعمل فيما بعد على تطبيقه هو بحذافيره صورة من تلك الافكار التى كانت تداعب الاسكندر وتجول بخاطره بشأن مصر ،فهناك اوجه شبه كبيرة بين هذه الخطة التى طبقها بطلميوس وبين تلك التى كانت لدى سيلوقوس فى سوريا وهو احد النظراء لبطلميوس ومن رفاق الاسكندر وقواده . وهذا التطابق فى حد ذاته يعتبر اكبر دليل على ان المصدر الذى استقى منه الطرفان المصرى والسورى ، واحد وان كلا النظامين كان مقتبسا من المرجع واحد .

والخطة الاساسية التى انتهجها بطلميوس الاول وقام عليها برنامجه كانت تنطوى على ضرورة تسرب تلك العناصر الاجنبية من يونان ومقدونيين ومتأغرقين من الشعوب الاسيوية ومن سكان جزر بحر الارخبيل وتغلغلها فى جميع ارجاء مصر على ان يكون هذا التسرب بطريقة انسيابية ويراعى فيها ان تكون سلمية وطبيعية

ولا أثر فيها لاستعمال الغصب او استخدام القوة الغشومة . وكان اسلوبه يعمد الى عدم التظاهر بما لديه من قوة عسكرية او اللجوء الى الاكراه والبطش او الجبروت . وانما ترك الامور تجرى فى أعنتها فى شئ من الاسترخاء وعدم التعجل ودون اى ايحاء او استجداء . ومما ساعد على تحقيق هذا الاسلوب فى التعامل من المصريين وجود منطقة واحدة كبيرة ذات رقعة واسعة متاخمة للصحراء الغربية هى واحة الفيوم ، استهوت اليونانيين واختارها ملوك البطالمة كيما يستقر فيها بعض الجند وتوزع عليهم الاراضى فى كنفها ، وكان اختيار بطلميوس الاول لهذا الموقع بالذات ينم عن حصافة ومهارة فائقة فتلك الواحة النائية كانت تسمى اقليم البحيرة ( Limné ) باعتبارها واقعة فى احضان بحيرة قارون ثم لما جاء بطلميوس الثانى غيّر اسمها واطلق عليها الاقليم الارسينوينى تخليدا لذكرى اخته وزوجته الثانية ارسينوى الثانية . وهذا الاقليم متحكم فى شريان كبير للمواصلات عند رأس الدلتا ويؤلف نقطة بارزة صوب الغرب ، يمكن ان تتخذ منها قاعدة ناتئة لحماية الحدود الغربية لمصر . وفضلا عن هذا وذاك فهى متاخمة للصحراء ويمكن الزحف منها وعمل توسع عمرانى فى جوف الصحراء . وقد تم استصلاح اراضى شاسعة على حساب تلك المستنقعات والاراضى الملحة او القلوية الواقعة فى جنوب بحيرة قارون وعلى جانبيها . ثم ان هذه الواحة النائية كانت بعيدة عن المجرى الرئيسى لنهر النيل والوادى الواقع على جانبيه ، ولكنها فى المتناول وهى محصورة ويمكن الاطمئنان الى ان الجند اليونان المستقرين او المستوطنين فى نطاقها اصبحوا فى مأمن ، بعيدين عن اى عائق وليسوا مصدر اثارة للروح القومية المصرية وهم الذين كانوا فى عيون العناصر الوطنية اشبه بالقذى ، يضيق بهم المصريون ذرعا ويتوجسون منهم خيفة . وهكذا اكتظ اقليم الفيوم بالقرى والمدائن وعرف منها ستة وستون قرية تحمل اسماء يونانية وكان من بينها اربعة عشر قرية تحمل اسماء بعض افراد الاسرة المالكة فكان هناك فيلادلفيا وثيادلفيا وفيلوتيريس وبيرنيقى وثيودوتى [illegible]

( ديمى السباخ في شمال بحيرة قارون ) وغيرها من مستوطنات اليونانيين ومؤسساتهم العمرانية • وهكذا آثر اليونانيون الاقامة في تخوم الفيوم بعيدين عن المناطق المكتظة بالسكان وعن معاقل الوطنية المصرية واهمها طيبة •

والمركزان الرئيسيان للحياة اليونانية الصميمة وهما اللذان قدر لهما ان يكونا بواتق لعملية التهلين والتمدين والتحضير في مصر هما الاسكندرية على الشاطئ الشمالي الغربي وبطلمية في اعماق الصعيد في محافظة جرجا • وكلاهما مؤسستان حضاريتان بحكم نشأتهما وطبقا للغرض الاساسي من تأسيس كل منهما • وقد تم تنظيم الحياة في كل منهما على النسق اليوناني الصميم باعتبارهما مدينتين متمتعين بالحكم الذاتي • وليس في احدى هذه الحالات الثلاث ماكان يستوجب اخراج احد من العناصر الوطنية من مكانه او السطو على أرضه واغتصابها منه اوطاردة السكان الاصليين بدرجة تستحق الذكر فالجنود المستوطنون في الفيوم حلوا في اراضي تم استصلاحها في اغلب الاحوال على ايدى هذه العناصر الاجنبية وكان بعضها اما من المناطق الصحراوية المتاخمة او مستنقعات جففت ومهدت بفضل العقول والاساليب المتطورة على ايدى عناصر خبيرة من مهندسين ومقاولين يونان• اما الاسكندرية فكانت نشأتها واختيار رقعتها موفقة للغاية فهي عبارة عن سلسلة من الكثبان الرملية الممتدة على شاطئ البحر المتوسط الى الغرب من الفرع الكانوبي في دلتا نهر النيل • وكان يسكن هذه البقعة من قبل جماعات قليلة متناثرة من الصيادين الذين اقاموا عليها اكواخهم في راقودة • لكن ذلك لم يكن هناك ضير على احد او افتئات على اراضي الغير عندما وقع اختيار الاسكندر بذكائه الفذ وبعد نظره على ذلك المكان • وقيل إنه كان متأثرا بما شاهده عند حصاره لمدينة صور وهو في طريقه الى مصر وماوجده في جزيرة فاروس تجاه الشاطئ السكندرى من تشابه اوحى اليه بأن يربط هذه الجزيرة الصغيرة الرابضة في عرض البحر بالشاطئ بواسطة جسر طويل أقامه لهذا

الغربى وعرف باسم الهبتاستاديوم او السبع الفراسخ من حيث الطول وبذلك كانت هناك ميناءان شرقية وهى المستعملة وغربية تشتد فيها رياح البحر وتخشاهـــا السفن ولكن الفنار المقام فوق جزيرة فاروس كان خير مرشد يهدى السفن لترسو فى هذه الميناء • وقد قيل فى صدد اختيار الموقع الذى أسست فيه المدينـة أن اهل نقراطيس من اليونانيين ادلوا الى الاسكندرية بالنصح والارشاد بصدد اختيار هذا الموقع الفذ وماينتج به من اهمية نظرا لبعده عن مصب النيل فى الفرع الغربى وهو الكانوبى وعدم تأثره بما تجلبه مياه الفيضان هناك • اما عن مدينة بطلمية فقد اسسها بطلميوس الاول وشاء القدر ان تكون المدينة الوحيدة التى اسسها ملوك البطالمة واقتصروا على ذلك ولم يساير الركب فى السياســة التى انتهجها الملوك السلوقيون وكانوا سباقين فى انشاء المدن ولم يتقاعسوا عن ذلك مثلما فعل البطالمة الذين خشوا اذا ماتوسعوا فى انشاء المدن ، ان يقطعوا اوصال البلاد ويفتتوا من وحدتها والرابطة التى اوجدها نهر النيل • ولعلهم ارادوا بتأسيس مدينة واحدة أن يثبتوا للعالم أنهم يستحقون الجدارة بأن يكونوا خلفاء الاسكندر وأنهم لم يتأخروا عن الركب الحضارى ، بل ساروا فى هذا المضمار اسوة بملوك سوريا وغيرهم من خلفاء الاسكندر الذين ساروا فى هذا الشوط الى مدى بعيد فتوسعوا فى تأسيس المدن • وكان تأسيس بطلمية على موقع به قرية مصرية تسمى " ابسوى " ( Psoi ) وهى قرية ليست بذات اهمية ولم تترك لنا سوى اسمها القديم ولم نعرف عنها شيئا كثيرا وقامت محل بطلميـــة فى العصر الحديث مدينة المنشاة وهى مركز فى محافظة جرجا مخلدة لذكرى بطلمية مؤسسة بطلميوس الاول وحاملة اسمه المجيد ويقال انه قصد بهذه المدينة أن تكون اداة تحضير وتمدين فى الصعيد وان تراقب الاحوال الجارية فى طيبة ، معقل الوطنية الوطنية حتى تتعادل الموازين والاوضاع وتكبح جماح الغلاة من المناهضين للحكم الاجنبى اذا ماثارت ثائرتهم •

ومن ثنايا هذه المراكز ، انبثق نور الثقافة والحضارة اليونانية في طابعها الهيللينستى وتسربت الى شتى ارجاء مصر حتى وصلت الى الواحات والاقطار النائية والمتطرفة من مصر ، بما فى ذلك الريف والحضر على السواء . ولكن بطلميوس الاول كان حصيفا وحريصا للغاية فآثر الحذر الشديد فى اختيار الطرق التى يمكنه ان يسلكها ازاء تسرب تلك الافكار والعادات اليونانية والنظم الحكومية المرعية عند اليونان وقد شاهدناه وهو عازف عن المغالاة والتوسع فى انشاء المدن ، مكتفيا بالنصيب اليسير واتباع القسطاس ومقتصرا على تأسيس مدينة واحدة هى بطلمية . ويمكن اعتبار موقف بطلميوس الاول من العبادات المصرية وتسامحه ازاءها دليلا على السياسة التى انتهجها نحو العناصر القومية ودعاة الفكر المصرى الصميم ، فهو لم يتدخل فى شئون العبادة المصرية ، ولو فعل شيئا من ذلك ، لكان متناقضا مع نفسه وماجرى عليه العرف اليونانى ، فكان الاهالى احرارا فى مباشرة العبادات التى سار عليها اجدادهم واستمروا بالفعل يعبدون آلهتهم التقليدية فى معابدهم القديمة . وكان فى مصر ، على حد قول العالم البريطانى الراحل سير "هارولد ادريس بل " ملغمة وثنية حقة ، تعددت فيها الالهة المصرية والالهة اليونانية الى درجة يحار الانسان فى فهم ، مدلولاتها وسر تعددها وقد جرت عدة محاولات للمطابقة والمقابلة بين بعض هذه الالهة المصرية ونظرائها عند اليونانيين مثال ذلك الاله امحتب اله الشفاء يقابل عند اليونانيين الاله اسكلبيوس . على أن بعض هذه المحاولات كانت غير منظمة وفيها شئ كثير من الافتعال وسارت فيها الامور على غير هدى . اما الملك البطلمى فقد اتخذ لنفسه المركز التقليدى المخول له باعتباره فرعون البلاد فهو اله ممجد وهو فضلا عن ذلك يعتبر المالك لكل شئ ولا راد لكلمته وعلى اى حال فالعبادات السائدة فى مصر كان مظهرها يساعد على ابراز صورة فيها شيئ من التوافق بين المصالح المشتركة .

على ان المفتاح الذى ييسر لنا تفهم الخطة البطلمية ، نجده فى سياسة هذا الملك البطلمى الاول الرامية الى ابتداع عبادة جديدة ، تجمع بين الافكار المصرية والافكار اليونانية فى مجال دينى واحد ، الا وهو عبادة الاله المبتكر " سيرابيس ( Sarapis ) " . وقد حيكت حول نشأة هذه العبادة الجديدة قصص كثير وفسرت مظاهرها وطقوسها المتفشية والمنتشرة بين طوائف عديـــدة بأساليب وطرائق كثيرة وشابتها احلام ذكرها لنا الكاهن المصرى مانيثون السمنودى وردد ها من بعده كثير من الكتاب اليونان والرومان من امثال المؤرخ الرومانى تاكيتوس ( Tacitus ) واصبح هذا الاله والالهة الاخرى المشتركة معه فى محرابه ( Theoi Synnaoi ) محور اهتمام الناس والحكومة اليونانية على السواء وانتشرت المعابد المكرسة له فى كل مكان حتى وصلت الى اعمـــاق القرى المصرية . وتجمع الناس بين يونان ومصريين حول هذه العبادة التى اتخذت منذ نشأتها طابعا رسميا واولتها الحكومة كل تشجيع . وفى اتخاذ هذه الديانة الجديدة عبادة رسمية مايوحى بخطة انتوتها الحكومة وهى العمل على اطمـــاس جميع الالهة الاخرى ذات الاهمية الضئيلة ، بقدر المستطاع ووضع الكثير منها على الرف ، إن امكن . وعلى ذلك يمكن القول ان السياسة التى كانت الحكومة البطلمية تهدف الى تحقيقها ، هى السعى الى ضم الشمل والعمل على التوحيد بين العناصر الساكنة فى مصر وبين الاجانب الوافدين والجمع بينهم فى صعيد واحد وهذا هدف قومى بالطبع وفكرة صائبة ، ومن شأنها ان تسلس قيادة المحكومين متى اشتركوا فـى عبادة اله واحد ، ابتدعته لهم الحكومة البطلمية ، وانه لحدث خطير حقا فى تاريـخ نشأة العبادات والديانات ، ان يزمع الملك البطلمى الاول على تكليف هيئة مشتركة من العلماء ، يتمثل فيها العنصران ، المصرى فى شخص مانيثون واليونانى فـــى شخص تيموثيوس اليومولبيدى وهو فقيه ومتضلع فى الديانة . وقد قامت تلك الهيئـة بصياغة الطقوس اللازمة لهذه العبادة وبالطبع كان للعنصر اليونانى الغلبة واليـد

العليا ، وكان مانيتون متجاوبا ومستسلما لأقصى حد • وهكذا وضعت مراسم هذه العبادة التى انشأها بطلميوس الاول واقتبست عناصرها من ديانات عديدة سائدة فى امم مختلفة وذلك استجابة لمطالب الساعة حسبما تراءى لهذه اللجنة وطبقا لمقتضى المفاهيم التى وضعت لتسير عليها اللجنة وتنهج على منوالهـا • فكان الاله سيرابيس ممثلا لشخص الاله اوزيريس واخته وزوجته ايزيس وابنهمـا " حورس " او كما يسميه اليونانيون هاربوقراتيس ( Harpocrates ) فكان ذلك عبارة عن ثالوث مرموق فى نظر اليونانيين والمصريين على السواء وكان هذا الثالوث بمثابة حلقة اتصال ورباط دينى وثيق بين الشعبين : المصـرى واليونانى — قد آلف القلوب واتحدت الاهداف وهذا وضع له قيمته فى حد ذاته بالنسبة للحاكم والمحكوم ولاينبغى ان نغفل ذكر هذا الاثر فى تقديرنا وتقييمنا لنشأة القومية المصرية • وفى الوقت نفسه قد أتاح هذا الاجراء فرصة سانحـة للدولة كيما تتحكم فى شئون تلك العبادة المصرية دون حاجة لأى تدخل او عبث بالاوضاع القائمة ، فالعبادات القديمة كان امرها هينا ، اذ امكن وضعها فى يسر وسهولة تحت اشراف موظفين حكوميين ثم تركت بعد ذلك تلك المؤسسات الدينية القديمة وشأنها ، على امل ان تتضاءل وتنكمش شيئا فشيئا وينتهى بها المطاف الى ان تذبل امام تلك العبادة الجديدة ذات الرونق الباهر او على اقل تقدير يجرى امتصاصها وتغلغلها فى داخل عبادة سيرابيس عن طريق التوافق والتطابق وهو امر كان يكنى له فى كتب التاريخ البطلمى بعملية المطابقة بين المعتقدات ( syncretism ) • ومهما كانت الاساليب المختارة من اجل سير العبادة الرسمية الجديدة وتغليف عبادة سيرابيس بالمراسم والطقوس المقتبسة من مصـادر مصرية ، فان الروح اليونانية كانت هى الغالبة والبارزة • وتمثلت هذه الصبغـة فى الفكرة الاصلية التى كانت السبب فى ابتداع الاله سيرابيس بقصد واضح لالبس فيه وهو جلب كل أولئك الذين عبدوا هذا الاله الى الدائرة اليونانية وضمان ولائهم

للملك البطلمي بالانضواء في عبادة مشتركة كهذه ،فكأنما الغرض الحقيقي من وراء هذه العبادة هو سياسي .

وهناك اساليب اخرى غير مباشرة شبيهة من ذلك الاجراء الذى اتبع في ابتداع عبادة سيرابيس . وقد روئ اتخاذها وسيلة او اداة من اجل "تهلين" المصريين وطبعهم بالطابع اليوناني وهذه الاساليب تناولت المظهر والجوهر على السواء وكان لابد ان تؤتي ثمارها في كل حين ، بل وفي شتى المجالات . فليس من المعقول ان يقف المصريون مكتوفي الايدى امام حضارة هيلينية متفتحة لتقبل العناصر الشرقية والاسيوية ولاحتضان الصالح منها ،على ان يكسى هذا كله ويطلى بقشرة رقيقة او سميكة من غشاء " هيليني " . وبعض هذه الاساليب يمكننا التنقيب عنها في اماكن اخرى ،ففي مجال اللغة ،كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية واستمر هذا الوضع مرعيا طوال العصرين البطلمي والروماني اى نحو الف سنة . وعلى ذلك كان على المصريين ان يجاروا هذا الوضع ويتقبلوه صاغرين ويتأقلموا معه . ونحن نعرف ان الامية كانت متفشية في مصر وان عدد الاميين ( hoi agrammatoi ) كان يمثل العنصر الغالب في السكان وان الكتبة العموميين ورجال الدين هم الحفظة على هذا التراث الفكرى واللغوى . ومع انه لايوجد من الدلائل ما يشير الى وجود اى اثر لروح الاكراه في استعمال اللغة اليونانية واستخدامها في المكاتبات والشكاوى ،اذ بقيت اللغة المصرية القديمة والخط الديموطيقي مرعيين في شئون الديانة المصرية والادب المصرى والمعاملات وعقود الزواج بين المصريين ثم في النقوش والمراسم الدينية ، فإنه كان من الطبيعي ان الشبان المصريين الراغبين في شق طريقهم في سلك التوظف والترقي بقصد التعاون مع الحكومة اليونانية ، تعين عليهم تعلم اللغة اليونانية والاخذ بنصيب من الثقافة اليونانية المجلوبة ،تمشيا مع روح العصر وتجاوبا مع سادة البلاد الجدد . ومن اجل تحقيق هذه الاهداف انشئت المدارس لتعليمهم .

وقد جلبت هذه المدارس اليونانية فى ركابها الوانا من المؤسسات والنوادى وحلبات المصارعة والندوات الثقافية والرياضية وهى المعروفة باسم ( gymnasia ) ثم الحمامات • ويؤم كل هذه المنتديات جماعة من الشبيبة او الفتيان (ephebi) ويتخرجون منها بعد فترة قصيرة شبانا صالحين ومواطنين مستكملى المواطنية وكان هذا مقصورا بالطبع على العناصر اليونانية وحرم على المصريين الانضواء فى هذه المؤسسات الثقافية وكل من تسلل اليها •كان يقصى عنها ويعاقب فالاب المصرى الذى يعمد الى تسجيل اسم ابنه فى سلك الشبيبة بطريق التدليس كان يعاقب بمصادرة ربع املاكه وذلك بحسب ماجاء فى البند الرابع بعد الاربعين من مقننة الاديولوجوس وهى الدستور المرعى فى اواخر الحكم البطلمى وفى العصر الرومانى • وقد انتشرت الجمنازيات فى مصر البطلمية حتى وصلت الى اعماق الريف والى القرى النائية • ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت هذه المؤسسة فى وسط المدينة المصرية العريقة وهى طيبة معقل الوطنية المصرية ومركز عبادة الاله آمون • اما متحف الاسكندرية واكاديميتها الثقافية الا وهى الموسيوم ( Museum ) حيث كان التاسوع الالهى ( Musae ) المراعى لربات الفنون التسع ثم المكتبة اليونانية المشهورة فكانت هذه معالم ذائعة الصيت ومفخرة لمصر البطلمية وفيها عكف نخبة من العلماء اليونان الذين جاءوا من بلاد اليونان والجزر وآسيا الصغرى ينعمون بضيافة الملك البطلمى الذى اغدق عليهم من عطفه وتشجيعه الشيء الكثير فعكفوا على اعداد الموجزات والملخصات من كتب العلم والمعرفة مصرية ويونانية وتم لهم اخراج مصنفات بوبوها فى ثوب يونانى قشيب لصالح العالم اجمع وبذلك اثرى الفكر العالمى واصبح لدينا تراث ادبى وفكرى هائل يعرف بالادب السكندرى بعد تنقيح اعمال المفكرين والكتاب والشعراء اليونانيين الاولين • ثم ان سبل التجارة المصرية كانت قد اخذت تتأثر كذلك وتنسجم فيها المعاملات مع التقاليد والعرف اليونانى وذلك باستخدام العملة المسكوكة كوسيلة ميسرة فى التبادل التجارى وعرفت

قواعد البيع والرهن والائتمان والهبة واليونان حذقوا فى كل هذه الانواع من المعاملات •

بانت امارات المعالم الرئيسية التى جرى تخطيطها لبرنامج " التهلن " والتحضر فى مصر قبل موت بطلميوس الاول ( سوتر ) فى عام ٢٨٣ قبل الميلاد ( او فى ٢٨٢ ق•م ) وان كان ابنه بطلميوس الثانى الذى توج فرعونا علـــى البلاد فى يوم ٢٦ يونية من عام ٢٨٤ ق•م • قد نهض بمصر وهمّ باضافة الكثير من المشروعات الاصلاحية فى شتى الميادين وادخل على برنامج التعمير الكثير من التحسينات والتصويبات وسار على هذا المنوال بروح حماسية •فكان كالمحموم • لايأبه بالصعوبات ولا بضخامة المشروعات التى عقد العزم على تنفيذها • واستجاب البلاد الى التنظيمات التى ادخلها وتقبلت التشريعات الكثيرة التى وضعهــا • واغلبها متسم بالطابع الاقتصادى والمالى والادارى • وقد حاك لمصر حكومـــة بيروقراطية منسقة احسن تنسيق حتى اصبحت هذه الحكومة المركزية مضرب الامثال فى العالم الهيللينستى • على انه بعد ذلك بقليل ظهرت بوادر اليقظة او الصحوة من جانب الشعب المصرى وبانت امارات حركات دالة على رد الفعل • وظهر ذلك بشكل جلى فى التسليم والاستجابة للميول الشعبية وللمشاعر المصرية فى اكثر مـن اتجاه • فمثلا فى موضوع العملة •كان بطلميوس قد اقام نظام عملته طبقا للطريقة اليونانية المألوفة وذلك على قاعدة الفضة •مع اعتبار معدن الذهب معيارا بالنسبة للفئات ذات القيمة العالية والنحاس كأداة لعملة مساعدة • ولكن التجار المصريين كانوا قد ألفوا حساب اثمان الاشياء عند تصريف بضائعهم بالنحاس •فكان امرا طبيعيا ان يعترضوا على ادخال معدن غريب عليهم كوسيلة للتعامل • وعلى ذلك منذ عام ٢٧٠ ق•م روى فى عهد بطلميوس فيلادلفوس • اعادة تنظيم الاسلوب المتبع واصبح العنصر الاساسى فى العملة يتألف من النحاس وذلك ارضاءا للمصريين واستجابة لمطالبهم ولم يعد النحاس يعتبر عملات صغيرة كما كان مألوفا فى التداول عند المدن

اليونانية ، بل اصبح قطعا كبيرة ضخمة ، معيارها فيما يبدو على صورة سبيكة .
ويقول العالم الروسي رستوفتزف في كتابه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العالم الهيلينستي طبعة ١٩٤١ ص ٤٠٠ ثم ١٤١٦ " إنه في النصف الثاني من عصر فيلادلفوس كانت العملات النحاسية الضخمة وقد رسمت على وجوهها رؤوس الالهة المصرية ، تسك في مصر وهي لم تعد تتداول كعملات رمزية وانما اصبحت قطعا من العملة المعتادة يقبلها الناس حسب قيمتها المعدنية الحقيقيـــة " .
وكانت هذه المرحلة اولى الخطوات في عملية كان من شأنها ان تؤدى خلال بضع سنوات اخرى الى الاعتراف بالنحاس كمعيار للعملة المستعملة في داخل البــلاد والمعترف بها في دار " السكة " بالاسكندرية ، وذلك في وقت اصبح فيه استعمال الفضة يأتي في المقام الثاني . وانه لمن الجدير بالذكر ان ننوه بأن وجه العملة في هذه القطع النحاسية الكبيرة الحجم ، كان مرسوما عليه رأس إله له من الخصائص مايشبه الى حد كبير الها محليا هو اقرب مايكون الى آمون ، الاله المصرى العتيد ، بينما انواع العملة التي كانت مستعملة من قبل كانت تحمل صورة رأس الاسكندر " ذى القرنين " وبطلميوس او الاله اليوناني الكبير رب الالهه ، على جبــــل اوليمبوس وهو زيوس ( Zeus ) .

ومن الادلة على يقظة العناصر الوطنية والشعور القومي مانجده في تلــك الاعداد الضخمة من اناس ملقبين باسماء مصرية صميمة وقد جاء ذكرهم على انهـــم يشغلون مراكز رسمية ومناصب مهمة في خلال القرن الثالث وفي الحقبة الاخيرة منــه بالذات ( اى قبيل معركة رفح في عام ٢١٧ ق.م. ثم مابعدها ) . وقد يرد علــى ذلك بالقول بأن هذا انما يدل فقط على ان المصريين اخذوا يستغلون تعليمهــم اليوناني وذلك بالانضواء في سلك الخدمة الحكومية عن طريق التوظف او شغل المناصب الاخرى ذات الاهمية والجاه والنفوذ . ولكن هناك مقياس آخر نستدل منه على مبلغ ماجلبوه معهم من افكار مصرية صميمة وما ادخلوه في عملهم من روح قومية واعتداد

بالشخصية المصرية • ولعلنا نستطيع تبين هذا بشكل جلى من عمل مقارنة بين نقشين عظيمين مشهورين فى تاريخ البطالمة • دبجت كلا منهما هيئة دينية من الكهنة المصرية خلال فترة تتراوح بين اقل من خمسين عاما تفصل احد النقشين عن الاخر والنقش الاول يرجع تاريخه الى عام ٢٣٧ ق•م فى حكم الملك بطلميوس الثالث الملقب يورجتيس الاول وهذا النقش معروف باسم قرار كانوبوس وقد صدر فى هذه الضاحية ومحلها الآن " ابوقير " بظاهر الاسكندرية • والمتصفح لهذا النقش الذى خرج به الكهنة المصريون بعد اجتماعهم على شكل مؤتمر عام او مجمع دينى • يجد ان هذا القرار روعى فى صياغته ان يجئ على نسق يتفق مع اى قرار يونانى من حيث المنهاج والاسلوب والديباجة وان الاصل فيه هو النص اليونانى ومن هذا الاصل ترجم النص الهيروغليفى وكتب كذلك بالخط الديموطيقى وعلى ذلك يمكن ان تقول ان الروح اليونانية هى الغالبة والحال بالمثل فى نقش مسطر على حجر مماثل من عهد بطلميوس الثانى ويعرف هذا النقش بحجر منديس تخليدا لذكرى زيارة هذا الملك الى منديس فى شرقى الدلتا وكان كذلك مصاغا باللغة اليونانية واللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقى وهو من باب اولى باعتباره اقدم من حجر كانوبوس كان الاصل فيه اللغة اليونانية • ولكن هذا الحال تبدل فى الحجر الذى سطر فى عهد بطلميوس الخامس وعرف بحجر رشيد وقد صدر فى عام ١٩٦ ق•م • وفيه تجلت حالة من الردة او العودة الى الصيغ المصرية الصميمة واتباع الاسلوب المصرى فهو اذا • نقش اكثر مصرية من النقش الاول • ومع انه فى جميع هذه الحالات ورد نص باللغة اليونانية ولكن شتان بين هذا وذاك فبينما فى نقش كانوبوس كانت اللغة اليونانية هى الاصل وعنها نقلت الصيغة المصرية اذا بنا فى حالة حجر رشيد جاءت الصيغة المصرية هى الاصل اما الصيغة اليونانية فما هى الا ترجمة عن الاصل المصرى • واى فقيه له دراية بقواعد اللغة واهتمام بالنواحى الفيلولوجية وعلم اشتقاق الكلمات واساليب صياغتها • يستطيع التعرف على كنه ذلك وتمحيص هذه الفكرة بعمل دراسات مقارنة • ذات طابع لغوى بحت•

وهناك حدث آخر مهم ، نوهت عنه جميـــع الكتب التي عرضت لتاريخ الاسرة البطلمية ، لما له من اهمية بالغة في التدليل على ظهور روح القومية المصرية بصورة سافرة وبشكل بارز . ذلك انه عندما تعرض بطلميوس الرابع ( الملقب فيلوباتور ) لغزوة من الشام شنها عليه انطيوخوس الثالث في الفترة مابين عامي ٢١٩ ، ١٨ ـ ٢١٧ ق.م . كان الملك البطلمي يماطل في المفاوضة حتى اعد العدة بتوجيه من وزيره اليوناني المسمى "سوسيبيوس" فكون فرقة مصرية صميمة دربها على نظام الفيلق اليوناني وكانت تضم عناصر مصرية خالصة فلما خاضت المعركة ابرزت جدارتها وابلت بلاءا حسنا في معركة رفح في يوم مشهود في تاريخ الامة المصرية هو الثاني والعشرين من شهر يونية عام ٢١٧ ق.م . وفيه تم النصر للقوات المصرية على جيش انطيوخوس الثالث وكان للمصريين دور هام في هزيمة السوريين وردهم على اعقابهم . وقد وصف لنا المؤرخ اليوناني "بوليبيوس" الاحداث التي جرت وفصل لنا الاستراتيجية التي اتبعها الفريقان المتقاتلان ودور الفيلق المصري في كسب هذا النصر المؤزر . وعقب هذا النصر ، شعر المصريون بكرامتهم واصبحوا يعتدون بشخصيتهم بعد ان تبين انهم اصحاب فضل في توطيد العرش البطلمي بعد ان كان هذا العرش قد اهتـــز تحت اقدام الملك بطلميوس الرابع وهكذا كانت نتائج معركة رفح بعيدة المدى بالنسبة للمصريين وقد قامت ثورات مصرية واضطرابات في شتى انحاء البلاد عقب هذا النصر واخذ المصريون يطالبون بثمن غالي لهذا النصر وكانوا قد عقدوا العزم على استرداد كرامتهم المهدرة وكسب الحقوق المهضومة . ولذلك اعتبرت معركة رفح نقطة تحول هام ومنعطف خطير في تاريخ الدولة البطلمية . وقد تلى هذا سلسلة من الترضيات والتسويات المنطوية على تعطف وتسامح ( philonthropa ) قوامها الاخذ بيد المصريين ورد بعض الحقوق اليهم . ولعل المرسوم الذى انهيت به الحرب الاهلية التي نشبت بين بطلميوس الثامن ( يورجتيس الثاني ) وبين زوجته الاولى كليوباترة الثانية سنة ١١٨ ق.م ، جاء شاملا لعدة نقاط وفيه تسوية لكثير من الاوضاع وارضاء لجميـــع الاطراف من قبيل تهدئة الخواطر .

أما عصر كليوباترة السابعة ( ٥١ ــ ٣٠ ق٠م ) ففيه اكثر من مؤشر يدل على الأخذ بيد المصريين وفيه مايدل على ان هذه الملكة كانت تحظى بالتأييد من جانب العناصر المصرية وان هذه الملكة كانت في نظر الشعب المصري تعتبر بطلة وانه كان مستعدا للمضي في تأييدها الى ابعد شوط باعتبارها ملكة مصرية ٠ يكن لها الحب والتقدير ٠ ولكن الظروف الخارجية لم تكن مواتية وخارت قوى زوجهـا الروماني ماركوس انطونيوس في معركة شنها في مرسى مطروح ضد القائد كورنيليوس جاللوس الذي كان يعمل لحساب اكتافيوس ثم هزم انطونيوس مرة اخرى في نيقوبولس بظاهر الاسكندرية امام قوات اكتافيوس في عام ٣٠ ق٠م وبذلك اسدل الستار على مُلْك البطالمة بعد اغسطس عام ٣٠ ق٠م وانتحار كل من انطونيوس وكليوباترة ٠ وبدأ عصر جديد هو الحكم الروماني في مصر وقد جاء هذا الحكم متهاديا وعلى مهـل وتغيرت فيه جميع الاوضاع والاهداف بطريقة جوهرية ٠ فالسياسة البطلمية التوسعية ألقى بها في مهب الريح ٠بل وضرب بها عرض الحائط ولم يعد هناك مجال على الاطلاق لأي تدخل من جانب مصر في معترك السياسة الاوربية ولافي دائرة الحضارة الاوربية واصبح محكوما على مصر ان تنأى بجانبها ٠بعيدة عن هذه الدائرة الممتازة٠ وكان القصد الوحيد الذي كان اكتافيوس يهدف الى تحقيقه والذي عمل خلفاؤه من بعده على النهج على منواله ٠ هو العمل على استغلال موارد البلاد باعتبار ان مصر مصدر ايراد ضخم وتمثل خيراتها مادة دسمة او بالأحرى على حد قولهم اعتبار مصـر كالبقرة المحلوب التي لاينبغي ان يجف لبنها ابدا لصالح روما ٠

## ثبت بأهم الاحداث والتواريخ فى مصر البطلمية وفى جاراتها

نظرا لتداخل الاحداث وارتباط ماكان يجرى فى مصر البطلمية بما كان يقع فى البلدان المجاورة التى تخلفت عن امبراطورية الاسكندر بعد تقسيمها بين نفر من القواد ونظرا للصعوبات التى تواجه الباحث فى هذا التيه فقد آثرنا أن نشفع هذا البحث بقوائم بها اهم الاحداث على الصعيد المصرى وفى العالم المحيط بمصر فى تلك الحقبة من نبذ مقتضبة لربط الاحداث وعمل تصور شامل .

٣٢٣ ، ١٣ يونية ق.م. مات الاسكندر الاكبر .

برديكاس هو الخليفة على هذه الامبراطورية والممثل الرسمى عن فيليب الثالث الملقب اريدايوس ( ٣٢٣ ق.م — ٣١٧/٣١٦ ق.م ) وعن الابن المولود وهو الاسكندر الرابع بعد وفاة الاسكندر ( ٣٢٣ — ٣١٠/٣٠٩ ق.م. )

بطلميوس يصبح الوالى على مصر ويحمل لقب ساتراب اى مرزبان وله سياسة معلومة ومرسومة اتبعها طوال فترة ولايته وعرفت هذه بالسياسة الستراببية ( Satrapenpolitik ) .

فى هذه الفترة تخلص من كليومنيس ( Cleomenes ) من اهل نقراطيس وكان الاسكندر قد عينه ليشرف على مالية البلاد المصرية ولكنه استغل نفوذه واخذ يتاجر فى الغلات وفى اقوات الناس فحكم عليه بطلميوس بالاعدام . مقتل برديكاس فى اثناء هجومه على مصر لتأديب بطلميوس الذى كان قد خرج عليه وعصا امره .

أنتيباتر يعين بدلا من برديكاس نائبا عن هذا الملك المريض

| | |
|---|---|
| ٣٢٠ — ٣١٨ ق٠م | بطلميوس يغزو سوريا الخالية ( سهل البقاع — لبنان ) |
| ٣١٩ ق٠م | تعيين بوليبرخون نائبا ومشلا عن هذا الملك بعد موت انتيباتر ٣١٩ ق٠م بطلميوس ، انتيجونس ، كساندر ، ليسيماخوس وآخرون يعصون امر بوليبرخون ويشقون عصا الطاعة عليه باعتباره وصيا ٠ |
| ٣١٧ ق٠م | ام الاسكندرية اوليمبيا ستدبر مقتل فيليب اريدايوس الاسكندر الرابع يعتبر ملك العالم الاوحد وبالتالى ملك مصر ٠ |
| ٣١٠ ق٠م | مقتل الاسكندر الرابع واغتياله بواسطة كاسندر احد خلفاء الاسكندر |
| ٣١٥ ق٠م٠ | بطلميوس يغزو قبرص |
| ٣١٥ — ٣١١ ق٠م٠ | نشوب حرب شعواء يشترك فيها نفر من خلفاء الاسكندر من بينهم بطلميوس ٠ |
| ٣١٣ ق٠م | بطلميوس يقمع ثورة نشبت فى برقة |
| ٣١٠ — ٣٠٩ ق٠م | الاسكندر الرابع وامه الفارسية " روكسانا " يقتلان وينتويان بناء على اوامر صادرة من كاسندر |
| ٣١٠ — ٣٠٨ ق٠م | بطلميوس الاول يحاول عبثا احياء حلف كورنثة واعادة هذا الحلف الى سيرته الاولى ٠ |
| ٣٠٩ ق٠م٠ | موت اوفيلاس حاكم برقة |
| ٣٠٨ ق٠م | مولد بطلميوس الثانى فى جزيرة قوص ـ عودة برقة الى بطلميوس |
| ٣٠٧ ق٠م | ديمتريوس المحاصر يغزو اثينا وعندئذ يفر حاكمها ديمتريوس الملقب بالفاليرى ( نسبة الى مرفأ فاليروم احد مرافىء اثينا ) ويلجأ الى بلاط بطلميوس الاول وهذا الفاركان |

فيلسوفا ومشرعا ، وبان اثره فى كثير من القوانين والتشريعات التى صدرت فى مصر اذ ذاك واصبح سم د يمتريوس الفاليرى ملحوظا فى السياسـة البطلمية فى هذا العهد الاول وكان يحظـى بعطف كبير من قبل الملك بطلميوس الاول .

٣٠٦ ق.م تحطيم الاسطول المصرى بواسطة د يمتريوس المحاصر فى مرفأ سالاميس بجزيرة قبرص . اعلن كل مـن انتيجونس الاعور و د يمتريوس نفسه ملكا .

٣٠٤ ق.م بطلميوس الاول يعلن نفسه ملكا اقتداءا بما فعلـه كل من سلوقوس وليسيماخوس وكاسندر فى بلادهم

٣٠٠ ق.م تأسيس مدينة انطاكية على نهر العاصى (اورنتيس) فى الشام

٣٠٠ — ٢٩٨ ق.م يتزوج ليسيماخوس من ارسينوى ابنة بطلميوس الاول

٢٩٨ ق.م يقوم ماجاس ( الاخ غير الشقيق لبطلميوس باسترداد برقة لحساب بطلميوس.

٢٩٧ ق.م فرار د يمتريوس الفاليرى الى بلاط بطلميوس الاول

٢٩٦ ق.م استيلاء بطلميوس على قبرص

٢٩٢ ق.م موت الكاتب الساخر ميناندر فى اثينا وكانت سمعتـه ورواياته المسرحية محببة فى مصر وعرفت منها مسرحية " الفظ " المتداوى على نفسه ( Dysklos ) والمرأة المحترقة ( Fmpimpramene ) والحليقة ( Epikeiromene ) وغيرها .

٢٨٧ ق٠م ابتداء عبادة الاله سيرابيس في مصر — وكان لهذه العبادة شأن عظيم في تدعيم سياسة الحكم في مصر البطلمية وكان لها اهمية في توثيق الروابط وجمع شمل اليونان والمصريين في صعيد واحد فهم يتعبدون لاله واحد هو الذى انشأه بطلميوس الاول وبنى له معابد كثيرة في جميع ارجاء مصر ويرجع اصله الى Osiris + apis ومعابده هى السرابيومات ( Serepeum-Serapea ) في الاسكندرية وفى حواضر الاقاليم بجميع انحاء مصر وفى قراها ، تعد بالعشرات وانتشرت عبادته في الخارج في البلدان التابعة لمصر ٠

٢٨٦ ق٠م بطلميوس الاول يحتل مدينة صور ومدينة صيدا

٢٨٥ ق٠م بطلميوس الثانى يصبح شريكا مع ابيه في الملك فى الفترة ما بين مارس وابريل من هذا العام ثم يتقاعد بطلميوس الاول ويتنازل نهائيا لصالح ابنه ثم بطلميوس الصاعقة — كيراونوس ( Ceraunus ) وهو اخ غير شقيق لبطلميوس الثانى وكان الابن الاكبر لبطلميوس الاول ينسحب ويذهب الى بلاط ليسيماخوس فى تراقيا ٠

عقد معاهدة بين بطلميوس الثانى واحد ملوك الهند وقيام ليسيماخوس بغزو بايونيا ( رومانيا حاليا ) وبالاستيلاء على تساليا فى بلاد اليونان

٢٨٤ ق٠م تتويج بطلميوس الثانى فرعونا على مصر فى يوم ٢٦ من شهر يونية

٢٨٣ ق٠م موت بطلميوس الاول
يقوم بطلميوس الثانى بتنظيم عبادة الملك الحاكـــم ruler- cult على النسق البطلمى والنسق الفرعونى
يودع بطلميوس الثانى الفيلسوف ديمتريوس الفاليرى السجن وقيل إنه هو الذى امر باعدامه

٢٨٠ ق٠م نشأة الاعياد البطلمية وهى عيد يسمى (Ptolemaia) او (Pentaeteris) ويحتفى به كل خمس سنوات ولهذه الاعياد والمهرجانات ابعد ها مما كانـــت تشهده مدينة الاسكندرية بين حين آخر ٠ اتمام بناء فنار فاروس على جزيرة فاروس قرابة هذا العام فكان احد عجائب الدنيا وييسر الملاحة البحرية بارشاد السفن والملاحين عند الرسو فى ميناءى الاسكندرية وهما الشرقية والغربية ( Eunostus )

٢٨٠ — ٢٧٩ ق٠م تنشب حرب بين بطلميوس الثانى وانطيوخوس الاول يعاد مد او تطهير القناة الواقعة بين النيل قرب السويس — هيرونبوليس ( Heronpolis ) والبحر الاحمر ( بحر القلزم ) ( Erythrian ) وهذه القناة ترجع الى عهد الفراعنة وكانت قد سدت فقام بطلميوس الثانى بتطهيرها ٠

٢٧٩ ق.م عودة ارسينوى ارملة ليسيماخوس ملك تراقيا الى موطنها في مصر لدى اخيها الذى يتزوجها بعد ذلك بقليل (٢٧٨ ـ ٢٧٤ ق.م) اسوة بزواج الاله اوزوريس من اخته ايزيس فكان هذا التصرف من جانب بطلميوس الثاني لفتة كريمة لم تغب على فطانة المصريين واعتبرت اشارة من الملك بعزمه على التقرب من عقائد المصريين وكانت حركة سياسية بارعة ، قصد بها في اغلب الظن توثيق الصلات بين الاسرة المالكة وبين المصريين .

طلق بطلميوس الثاني زوجته الاولى وكان اسمها كذلك ارسينوى وهى ابنة الملك ليسيماخوس ملك تراقيا ثم نفاها الى قفط وعقد زواجه على ارسينوى الثانية فى الفترة مابين ٢٧٨ ـ ٢٧٤ ق.م

٢٧٤ ـ ٢٧١ ق.م تنشب الحرب السورية الاولى بين بطلميوس الثانى وانطيوخوس الاول ، يبعث بطلميوس الثانى بقواته يقودها قواد من قبله اما هو فقد آثر ان يقبع فى مصر يدبر شئون حكومته البيروقراطية ويتصرف على مجريات الامور فيها .

٢٧٤ ق.م ماجاس حاكم برقة وهو اخ غير شقيق لبطلميوس ، يتحالف مع عدو مصر انطيوخوس الاول ، من قبيل الكيد لمصر . بطلميوس الثانى يحتل بضع نقاط على السواحل الغربية لآسيا الصغرى ويتخذ منها مواطىء اقدام للتوسع فى الداخل .

٢٧٣ ق.م ايفاد بعثة مصرية من قبل بطليموس الثانى الى روما لاعلان الصداقة ( Amicitia ) الـتى تربط مصر بروما . وكانت هذه حركة بارعة تنم عن بعد النظر فى السياسة المصرية التى اثرت اتخاذ موقف محايد وانطوت على عدم تقديم العون والمساعدة لمجارة افريقية تقع فى الغرب من مصر هى قرطاجة ( تونس حاليا ) وهى فى حالة حرب مع دولة فتية هى روما وتعرف هذه بالحرب البرامية الاولى ( ٢٦٤ — ٢٤٢ ق.م) وانتهت بهزيمة قرطاجة ويعتبر اتخاذ بطليموس الثانى لهذا الموقف المحايد فى مترك سياسة عالمية كهذه عملا سياسيا بارعا .

٢٦١ ق.م اتمام الصلح بين بطليموس الثانى وانتيجونس جوماهاس مع موت انطيوخوس الاول فى الاول او الثانى من شهر يونية من هذا العام وخلفه ابنه انطيوخوس الثانى الملقب بالاله ( Theos )

٢٦٠ — ٢٥٣ ق.م نشوب الحرب السورية الثانية ووقوف مصر ضد كل من مقدونيا وسوريا فى عهد ملكها انطيوخوس الثانى .

٢٥٣ ق.م اتمام الصلح بين بطليموس الثانى وانطيوخوس الثانى على ان تصبح افسوس وميليطة بآسيا الصغرى مدينتين ماوقيتين .

٢٥٢ ق.م برنيقة ابنة بطليموس الثانى تتزوج من انطيوخوس الثانى بعد ان يطلق زوجته الاولى لاوديكى ( Laodice) ويذهب الملك بطليموس الثانى لوداع ابنته حتى الحدود الشرقية لمصر ثم تصحبها بعثة شرف يراسها ابوللونيوس وزير مالية بطليموس الثانى حتى تصل الى سوريا وتزف الى ملكها هناك .

٢٤٦ ق.م موت بطلميوس الثانى فى شهر يناير وموت انطيوخوس الثانى فى الربيع من نفس العام فى افسوس . سلوقوس الثانى يخلف انطيوخوس الثانى ويوافق على ان تقوم امه " لاوديكى " بقتل غريمتها برنيقة . بطلميوس الثالث يخلف بطلميوس الثانى ويسارع لنجدة اخته دون جدوى ويعلن الحرب على سلوقوس الثانى ويتقدم الى مملكة بابل ويحرز انتصارات باهرة ويثبت اقدامه فى بعض المدائن الواقعة على ساحل تراقيا وفى سلوقيا فى البيرة بفلسطين وفى اجزاء كبيرة من الاقاليم المطلة على ساحل آسيا الصغرى . وقبل اتمام هذا البرنامج العريض عقد زواجه على برنيقه من برقة وكانت هدية زواجها ضم برقة الى مصر . الشاعر البرقاوى المشهور " كاليماخوس " يدبج قصيدة عنوانها خصلة شعر برنيقة (Lock of Berenice) وكانت هذه الملكة قد قصت هذه الخصلة من شعرها وقدمتها قربانا للالهه ايزيس بمعبدها بابى قير متوسلة اليها بأن تعيد لها زوجها سالما من حروبه فى آسيا .

٢٤٦ — ٢٢١ ق.م مدة حكم بطلميوس الثالث الملقب بفاعل الخير " يورجتيس " الاول

٢٤٦ — ٢٤١ ق.م الحرب السورية الثالثة تمتد اربع سنوات بين بطلميوس الثالث وسلوقوس الثانى

٢٤٥ ق.م فى اثناء هذه الحرب يضطر بطلميوس الثالث الى العودة الى مصر بسبب اشتعال ثورة وقيام حركة عصيانية لم تدم طويلا اذ اسرع باخمادها .

٢٤١ ق٠م اتمام الصلح بين سلوقوس الثاني وبطلميوس الثالث وانتهاء الحرب السورية الثالثة

٢٣٧ ق٠م الكهنة المصريون يلتئم جمعهم بدعوة من الملك في مجمع ( Synodos ) يعقد بأبي قير ( Canopus ) ويصدرون قرارا مشهورا عرف بالاسم الآتي قرار كانوبوس (Canopus Décree ) اشادوا فيه بالملك بطلميوس يورجتيس الاول وبما اسداه للبلاد من خير وما قدمه من خدمات ومن عفو عن المسجونين وتنازل عن المتأخرات من الضرائب واصلحوا التقويم المصري وصدر القرار باللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقي ثم باللغة اليونانية ونقش على حجر بهذه الخطوط الثلاثة ٠

٢٢١ ق٠م وفاة بطلميوس الثالث بين الخامس والسادس عشر من شهر فبراير من ذلك العام

٢٢١ ق٠م تولية بطلميوس الرابع الملقب فيلوباتور ( في ٢١ فبراير تقريبا )

٢٢١ ـ ٢١٧ ق٠م نشوب الحرب السورية الرابعة بين انطيوخوس الثالث وبطلميوس الرابع ٠

المؤرخ اليوناني المشهور بوليبيوس يعرض لبعض الاحداث التي وقعت في عهد هذا الملك ويشير الى سياسته الداخلية وارتمائه في احضان ثالوث مؤلف من ام عاهرة وبنتها اجاثوكليا التي كانت محظية الملك وأخوها اجاثوكليس الذي كان احد وزراء الملك " سوسيبيوس ( Sosibius )

وزير الحربية فى عهد هذا الملك هو صاحب الفضل الاكبر فى النصر الذى كسبته مصر فى معركة مشهورة وتمت على الحدود الشرقية فى رفح ٢١٧ ق٠م فى يوم ٢٢ يونية ٠

تأليف فيلق مصرى من المحاربين المصريين الذين كناهم هيرودوت باسم ( الماخيموى " اى المحاربين ) ورماهم بصفات فيها الازدراء والاحتقار لشأنهم ٠ ولكنهم لما تم تدريبهم على نظام الفيلق ابلوا بلاء حسنا وكسبوا النصر وثبتوا اقدام العرش البطالمى ٠

٢١٠ مولد بطالميوس الخامس ثم تعيينه بعد قليل شريكا فى الملك مع ابيه

٢٠٦ — ١٨٦ ق٠م انفصال الاقليم الطيبى ( Thebaid ) عن مصر بعد ان استقل به ملكان من بلاد النوبة ٠

٢٠٥ ق٠م موت بطالميوس الرابع ( ٢٨ نوفمبر او فى عام ٢٠٤ ق٠م ) اخفاء خبر هذا الحادث الاليم لفترة من الزمان حتى تم تلفيق وصية مزورة ٠ افتعلها الثالوث الماكر (اجاثوكليس واخته وامهما ) ٠

٢٠٥ أو ٢٠٤ حتى ١٨٠ ق٠م عهد الملك بطالميوس الخامس الملقب ابيفانيس " الظاهر "

٢٠٣ ق٠م٠ عقد معاهدة سرية بين فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث ضد بطالميوس الخامس والملوك الثلاثة من الشباب اليافع ٠

٢٠١ ـ ١٩٥ ق.م الحرب السورية الخامسة بين انطيوخوس الثالث وبطلميوس الخامس

١٩٧ ق.م تتويج بطلميوس الخامس فرعونا على مصر وتمام هذا التتويج فى ممفيس وليس فى الاسكندرية وهذا الاجراء له معناه ويعتبر لفتة من البطالمة للتقرب من مشاعر الشعب المصرى والكهنة المصريين واتخذ دليلا على بروز القومية المصرية ممثلة فى رجال الدين . كان على هذا الملك الشاب ان يشن حربا على الثوار فى الشمال والجنوب وذلك بالاضافة الى حربه ضد انطيوخوس الثالث

١٩٦ ق.م يشتهر هذا العام فى التاريخ البطلمى بأنه سطر فيه حجر مشهور فى التاريخ المصرى كله ذلك هو حجر رشيد الذى اشاد فيه الكهنة بالملك بطلميوس ابيفانيس وسطر بخطوط ثلاثة هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ويرجع الى هذا النقش الفضل فى التوصل الى فك طلاسم اللغة الهيروغليفية بمقارنة اسمين واردين فى النص اليونانى وهما بطلميوس وكليوباترة زوجة الملك ومقابلة حروفها على نفس الاسمين الواردين داخل اطار فى النص الهيروغليفى وبذلك امكن التوصل والتعرف على العديد من الحروف الهجائية فى اللغة الهيروغليفية .

١٩٥ ق.م ابرام الصلح بين انطيوخوس الثالث وبطلميوس الخامس وانتهاء الحرب السورية الخامسة .

١٩٤ ق.م عقد الزواج بين بطلميوس الخامس وبين كليوباترة الاولى ابنة انطيوخوس الثالث . وكان مهر هذه الزيجة الملكية

هو الموافقة على ان يؤول الايراد الناجم عن املاكه الجديدة فى فلسطين وجنوب سوريا ٥الى الملكة كليوباترة الاولى •

٢٠٢ — ١٨٩ ق•م نشوب حرب سورية بين روما وبين انطيوخوس الثالث

١٨٦ ق•م يخيم السلم فى الصعيد وتهدأ الخواطر فى ارجائه وتبدأ عمليات البناء والتشييد فى معبد ادفو وكانت المدينة تسمى بالاسم الآتى ( Apollonopolis magna)

١٨٤ — ١٨٣ ق•م مولد بطالميوس السادس فى سايس ( Sais ) ونهاية الاغتصاب المتفشى فى صعيد مصر•

١٨٠ ق•م موت بطالميوس الخامس

١٨٠ — ١٤٥ ق•م عهد الملك بطالميوس السادس الملقب فيلو ميتور اى "حبيب امه" وهو عهد مشحون بالاحداث وحالة عدم الاستقرار •

١٧٦ ق•م وفاة كليوباترة الاولى ام بطالميوس السادس والوصية عليه

١٧٥ — ١٦٤ ق•م انطيوخوس الرابع الملقب ابيفانيس يتولى الحكم فى سوريا خلال هذه الفترة ويحدث صدام بينه وبين مصر وتظهر اطماعه فى مصر بصورة سافرة•

١٧٥ — ١٧٤ ق•م عقد زواج بين بطالميوس السادس واخته كليوباترة الثانية وتمت هذه الزيجة فى الفترة مابين فبراير من عام ١٧٥ ومارس من عام ١٧٣ ق•م

١٧٣ ق•م روما توفد بعثة رومانية الى الاسكندرية ( لعلها من قبيل التقصى والاستطلاع) •

١٧٠ - ١٦٨ ق.م وقعت فى هذه الفترة الحرب السورية السادسة بين
انطايوخوس الرابع وبطلميوس السادس

١٧٠ ق.م بدأ هذا العام بغزوة قام بها انطيوخوس الرابع لمصر ،
اشترك بطلميوس السادس وزوجته كليوباترة الثانية
واخوها الاصغر بطلميوس الثامن ( VIII )
فى الحكم فى مصر .
اتساع رقعة املاك انطيوخوس الرابع وكانت هذه
تشمل الشام وما وراء الفرات حتى الهند ويدخل ضمن
ذلك وسط ايران وباكتريا وسمرقند والتركستان
وافغانستان وباكستان وفضلا عن ذلك كان له احلاف
فى آسيا الصغرى وفى مقدونيا

١٦٩ ق.م شن حملة ثانية على مصر من قبل انطيوخوس الرابع
وربما صحب ذلك اعلانه عن انه اصبح ملكا على مصر.
وربما كانت بعض نفقات هذه الحملة قد غطاها انطيوخوس
الرابع مما حصل عليه من اسلاب استولى عليها من معبد
بيت المقدس .
قيام شعب مدينة الاسكندرية بثورة اعلنوا فيها السخط
على انطيوخوس الرابع واعماله العدوانية .

١٦٨ ق.م قيام انطيوخوس الرابع بغزوة ثالثة على مصر ووصوله الى
الاسكندرية وتربعه على عرش البلاد والتحكم فى مصيرها
ومستقبلها بحق هذا الغزو والفتح - ولكن تأتى الرياح
بما لا تشتهى السفن وحرم هذا الملك من ان يجنى ثمرة
انتصاراته هذه نظرا لان روما انبرت له بشكل سافر وكانت

ان ذلك قد خرجت مظفرة من حرب بينها وبين ملك مقدونيا المسمى بوسيوس ( Perseus ) وهو خصم عنيد ولكنها استطاعت ان تنتصر عليه فى موقعة بيدنا ( Pydna ) سنة ١٦٨ ق٠م فى يوم مشهود هو ٢٢ يونية من ذلك العام • وعند ئــذ تقع حادثة مشهورة نوه عنها جميع المؤرخين وذكرها المؤرخ الرومانى " ليفى " فقال ان بعثة رومانيــة حضرت الى الاسكندرية على رأسها سفير رومانى يدعى جايوس بوبليوس ليناس ( G.PopiliusLaenas ) وواجه هذا السفير الملك السورى انطيوخوس الرابع وهو فى نشوة نصره ، وطالب اليه الرحيل من مصر على عجل ولم يشأ ان يمهله وقتا ليتصرف فيه الامر بل ان المبعوث الرومانى خط بعصاه كانت فى يده على الرمل بدائرة من حول الملك وشدد النكير عليه بأن يطلب منه الاجابة فى الحال وبطريقة حاسمة فاما الموافقة على الرحيل ومغادرة البلاد واما ان يختار الحرب تشنها روما عليه • ولكن الملك آثر اختيار الحل الاول واعلن موافقته على الرحيل وبذلك خلصت روما مصر من انياب الملك السورى واضطر ان يرحل عن مصر وعن قبرص وان يتخلى عنهما بطريقة فيها اذلال • وهكذا ساقت المقادير ظروفا قهرية جعلت من مصر ، بل والمملكة البطلمية كلها حليفا تابعا لروما واصبح منذ ذلك الحين العرش البطلمى مدينا لروما بهذه الحماية والرعاية فهى التى خلصته من الهزيمة وهى التى ازاحت عن البـــلاد

تلك الفئة التي لحقت بها من جراء الغزو السوري والتدخل في شئون البلاد • قيام الثورات في ارجاء الامبراطورية السلوقية نتيجة لحرمان البلاد من جني ثمار الانتصارات التي ذهبت عبثا •

١٦٨ ـ ١٦٤ ق•م على مدى اربع سنوات قامت ثورات جامحة في شتى انحاء البلاد كانت احداها ثورة تزعمها شخص يحمل اسما مزدوجا هو ديونيسيوس بيتوسيرابيس (Dionysius Petosarapis) يجمع بين التسمية اليونانية والمصرية •

١٦٤ ق•م يقوم الاخ الاصغر بطلميوس الثامن بطرد اخيه الاكبر بطلميوس السادس من مصر •

١٦٣ ق•م يعود بطلميوس السادس الى عرش مصر ويحكم وحده على كل من مصر وقبرص مؤيدا ومدعما بالسلاح الروماني •

أما بطلميوس الثامن فقد تم الاعتراف به كملك بطلمي على برقة

١٦٢ ق•م يقوم بطلميوس الثامن بزيارة لروما ويتسلم قبرص ولكنه يضطر لاقماع ثورة وعصيان نشب في برقة

العلاقات بين روما وبطلميوس السادس تسوء وتتوتر بعد ان كان الفتور يخيم عليها ولا يعرف السبب ولعل السر في ذلك ان روما كانت تعضد اخاه الاصغر بطلميوس الثامن وتنصره عليه ومن هنا بدأ الامتعاض والنفور من جانب بطلميوس السادس؟

| | |
|---|---|
| ١٥٥ ق٠م | بطلميوس الثامن يعلن عن وصية كان قد أبرمها منذ عام ١٦٢ / ١٦١ واتخذ فيها من روما الوريثة لملكه ٠ وكان قصده بذلك حماية نفسه من محاولات الاغتيال والمؤامرات التي كان يظن ان اخاه بطلميوس السادس يريد برهما ضده ٠ ولذا اتخذ من هذا الخوف ذريعة لتبرير تلك الوصية المذرية التي إن دلت على شيء ٠فانما تدل على مدى التخاذل والضعف والتفريط في حقوق الوطن من قبل بطلميوس الثامن ٠ |
| ١٥٤ ق٠م | بطلميوس الثامن يهاجم قبرص ولكنه يرتد على اعقابه بعد أن صده اخوه الاكبر بطلميوس السادس ٠ |
| ١٤٧ ق٠م | بطلميوس السابع الملقب Neos Philopator وهو ابن بطلميوس السادس فيلوميتور ٠يصبح شريكا مع ابيه في الملك ٠ |
| ١٤٦ ق٠م | بطلميوس يقلب ظهر المجن ويتنكر لحلفائه من اجل تمكينه من السيطرة على سوريا بطريقة افضل فيشن حربا يحرز فيها النصر ويخر عدوه صريعا في المعركة في شهر يوليو من عام ١٤٥ ق٠ م ولكن الجراح التي اصيب بها فيلوميتور في المعركة كانت قاتلة فمات بعد فترة قصيرة في عام ١٤٥ ق٠م٠ وتولى الحكم لفترة لا تعدو بضعة اشهر ابنه بطلميوس السابع الملقب نيوس فيلوباتور ولكنه نحي في اواخر اغسطس واوائل سبتمبر عن الملك بواسطة بطلميوس الثامن الذى اعلن بعد ذلك عن عقد مهادنة تسود بين مصر وقبرص ٠ |
| ١٤٥ ـ ١١٦ ق٠م | فترة حكم بطلميوس الثامن الملقب يورجتيس الثاني ، سلوكه |

في حكم مصر ومعاملته للسكندريين والقسوة في تصرفاته ازاء العلماء والادباء في اكاديمية الاسكندرية ـ كل هذا جلب عليه السخط فأسبغ عليه السكندريون لقب الشرير بدلا من لقب كان يدعيه وهو لا يستحقه وهو لقب فاعل الخير .

١٤٥ ـ ١٤٤ ق.م استهل الملك حكمه بنفي نفر من العلماء المشهورين وترحيلهم من الاسكندرية وكان من بين هؤلاء العالم الفيلولوجي في فقه اللغة وهو " أريستارخوس " ( Aristarchus ) ذو الشهرة اللامعة

١٤٤ ق.م اتمام تسوية بين بطلميوس الثامن وبين كليوباترة الثانية ارملة اخيه الاكبر وكان الرومان هم الوسطاء في عمل هذه التسوية وبمقتضاها تزوج بطلميوس الثامن من كليوباترة الثانية أمر بطلميوس الثامن بقتل بطلميوس السابع الملقب نيوس فيلوباتور وهو ابن اخيه بطلميوس السادس حتى يزيح هذا الابن من طريقه ويؤمن عرشه من هذه الناحية .

١٤٤ ـ ١٤٣ ق.م مولد ابن لبطلميوس الثامن من كليوباترة الثانية ملقب بالممفيتى

١٤٢ ق.م زواج بطلميوس الثامن من كليوباترة الثالثة وهى ابنة بطلميوس السادس من كليوباترة الثانية اى انها ابنة زوجة بطلميوس الثامن وبذلك اصبح زوجا للام ولابنتها على حد سواء .

| | |
|---|---|
| ١٤٠ — ١٣٩ ق٠م، | كليوباترة الثانية تحرض على اعلان العصيان ضد هذا الملك |
| ١٣٢ — ١٣١ ق٠م | العصيان يعم مصر العليا والوسطى |
| ١٣١ ق٠م | كليوباترة الثانية تكره بطلميوس الثامن وزوجته كليوباترة الثالثة على الفرار من مصر الى قبرص ٠ بطلميوس الثامن يقتل ابنه الملقب بالممفيتى من زوجته كليوباترة الثانية امعانا فى الانتقام — بطلميوس الثامن يتحصن فى ممفيس واغلب مصر العليا |
| ١٣٠ ق٠م | يسترد بطلميوس الثامن الاقليم الطيبى واجزاء اخرى من مصر |
| ١٢٩ — ١٢٨ ق٠م | كليوباترة الثانية تهرب الى ديمتريوس الثانى ملك سوريا وتحمل معها كنوزها املا فى ان يقدم لها ديمتريوس الثانى هذا العون والمساعدة وقد همّ بالفعل بغزو مصر ولكنه اضطر الى التوقف عن الزحف على البلاد عند الفرما عندما سمع ان بعض البلدان فى سوريا اعلنت الثورة عليه ٠ |
| ١٢٨ ق٠م | واجه بطلميوس الثامن هذا الخطر المحدق به وهو الغزو الآسيوى بالنفخ مدعى لعرش سوريا يسمى الاسكندر الثانى زابيناس ( Zabinas ) وهو ابن بالتبنى لانطوخيوس السابع وقد نصب هذا الابن بالفعل فى انطاكيا بفضل ما قدمته مصر من عون ومساعدة له |
| ١٢٧ ق٠م | استطاع بطلميوس الثامن ان يستولى على الاسكندرية بعد غيبة طويلة امتدت منذ ١٣١ ق٠م عندما طرد منها |

١٢٥ ق٠م بطلميوس الثامن يقرر التوقف عن تقديم العون للاسكندر الثانى

١٢٤ ق٠م كليوباترة الثانية تعود الى مصر ويتم الصلح بينها وبين بطلميوس الثامن وكليوباترة الثالثة٠

١٢٣ ـ ١٢٢ ق٠م يعود الشقاق من جديد بين الطرفين

١١٨ ق٠م تجرى تسوية مشهورة ( Philanthropia ) بين بطلميوس الثامن وكليوباترة الثانية وجاءت بنود هذه التسوية واردة فى وثيقة بردية مشهورة ومنشورة فى مجموعة بردى " تيبتونس رقم (٥) وكثيرا ما يعرض لها المؤرخون للتعرف على مدى ما قدمه كل طرف للآخر من حقوق وما اعترف به من اجراءات كان كل طرف قد اتخذها لصالح اعوانه ومؤيديه٠

يموت فى هذا العام ( ١١٨ق٠م٠ ) المؤرخ اليونانى العظيم بوليبيوس وقد نيّف على الثانية بعد الثمانين من عمره

١١٧ أو ١١٦ ق٠م اكتشاف طريق بحرى مباشر بين مصر والهند بفضل استخدام الرياح الموسمية وصاحب هذا الكشف هو ( Eudoxus ) وشاركه فى هذا الكشف العظيم هيبالوس ( Hippalus )

١١٦ ق٠م وفاة بطلميوس الثامن فى ٢٨ يونية وبذلك تصبح زوجته الثانية وهى كليوباترة الثالثة هى الحاكمة الحقيقية لمصر ٥ وتختفى اية اشارة الى كليوباترة الثانية بعد ٢٧ نوفمبر من عام ١١٦ ق٠م٠

وصية بطلميوس الثامن لابوبه بها وتصبح في مهب الريح •

بطلميوس التاسع يتولى العرش بفضل المساعدة التي لقيها من امه كليوباترة الثالثة وبطلميوس الملقب أبيون ( Apion ) يستولي على برقة بوصفه ملكا بطالميا بعد ذلك ببضع سنوات •

١١٥ ق٠م كليوباترة الثالثة تجبر بطلميوس التاسع الملقب لاثيروس ( Lathyrus ) كما يطلق كليوباترة الرابعة التي استطاعت بعد ذلك ان تدبر جيشا •غزت به سوريا وتزوجت من كيزيكينوس ( Cyzicenus )

١١٤ ـ ١١٣ ق٠م بطلميوس العاشر الملقب بالاسكندر يعين حاكما على قبرص •

الحرب الاهلية بين انطيوخوس الثامن وانطيوخوس التاسع كادت ان تكون السبب في تقويض اركان الحكم السلوقي في الشام •

١١٠ ـ ١٠٨ ق٠م بطلميوس التاسع جرت تنحيته عن العرش لفترة ثم حل محله اخوه بطلميوس العاشر لفترة اخرى خلال العامين ( ١٠٨ ـ ١٠٨ ) الى ان يتم التصالح بين بطلميوس التاسع وكليوباترة الثالثة •

١٠٧ ق٠م• بطلميوس العاشر يشترك في الحكم مع كليوباترة الثالثة

١٠٧ ـ ١٠١ ق٠م تواجه مصر فترة يسودها القلق والاضطراب بسبب هذين الاخوين بطلميوس التاسع وبطلميوس العاشر وتأليب امهما كليوباترة الثالثة احدهما ضد الآخر•

١٠١ ق٠م — تموت كليوباترة الثالثة وينفرد بالحكم فى مصر بطلميوس العاشر ٠

٩٦ ق٠م — يموت بطلميوس أبيون وتؤول برقة الى روما بناءً على وصيته

٨٨ ق٠م — يعود بطلميوس التاسع الى مصر عقب موت بطلميوس العاشر فى معركة بحرية كان قد خاضها على مقربة من ساحل ليكيا بآسيا الصغرى٠

ثورة عارمة تنشب فى الاقليم الطيبى ٠

٨٠ ق٠م — يموت بطلميوس التاسع ثم تخلفه ابنته برنيقة لفترة قصيرة بين مارس ويونية من هذا العام٠

بطلميوس الحادى عشر يعلن نفسه ملكا على مصر بعد ان يحصل على تأييد من الدكتاتور الرومانى سـلا ( Sulla ) ويتزوج بطلميوس الحادى عشر من برنيقة هذه فى يوليو ثم يقتلها بعد انقضاء تسعة عشر يوما من مشاركتها له فى الحكم ٠ ولكن السكندريين قتلوه جزاءً له على فعلته ٠

٨٠ق٠م — بطلميوس الثانى عشر الملقب اوليتيس او الزمار يتبوأ عرش مصر فى اواخر عام ٨٠ ق٠م

٧٩ ق٠م — الملك بطلميوس الثانى عشر يتزوج من كليوباترة تريفاينا ( Tryphaena ) ابنة بطلميوس التاسع ٠

٧٦ ق٠م — يتوج الملك بطلميوس الثانى عشر فى الاسكندرية ولبس فى ممفيس ٠

٧٥ق٠م — روما ترفض الاعتراف بالملك بطلميوس الثانى عشر لفترة ما

٧٤ ق٠م — برقة تصبح ولاية رومانية بمقتضى الوصية التى تركهـا بطلميوس أبيون ٠

| | |
|---|---|
| ٦٤ ق٠م | سوريا تصبح ولاية رومانية ٠ |
| ٦٣ ق٠م | الزعيم الروماني بومبي يستولي على بيت المقدس ضمن حملته على بلاد الشرق وتسوية اموره ٠ |
| ٥٩ق٠م | يوليوس قيصر وبومبي وكراسوس والثلاثة اركان الحكم الثلاثي الاول ، يعترفون ببطلميوس الثاني عشر ملكا على مصر في نظير رشوة ضخمة قدمها الملك المسمى يوليوس قيصر ٠ وهذه سبة في جبين السياســـة الرومانية ٠ |
| ٥٨ ق٠م | قبرص تصبح ولاية رومانية ٠ |
| ٥٨ ق٠م | تقوم ثورة في الاسكندرية ضد الملك المفرط في املاك مصر لانه لم يحرك ساكنا ازاء ضياع قبرص ٠ الملـــك يضطر الى ترك المدينة الثائرة ومغادرة البلاد الى روما ٠ |
| ٥٩ ـ ٥٧ ق٠م | حكم مشترك بين كليوباترة تريفانيا وبرنيقة يسود في مصر ٠ |
| ٥٧ ـ ٥٥ ق٠م | في خلال هذه السنوات انفردت برنيقة بالحكم في مصر ٠ |
| ٥٦ ـ ٥٥ق٠م | عودة بطلميوس الثاني عشر الى عرشه بفضل الزعماء الرومان وبومبي بالذات وبمعونة الجيش الروماني المرابط في سوريا تحت قيادة " اولوس جابينيوس" ( Aubus gabiniUs ) حاكم سوريا ٠ الملك بطلميوس الثاني عشر يقتل ابنته برنيقه ويقتل كذلك زوجها المسمى اركيلاوس( Archalaus ) |
| ٥١ ـ ق٠م | موت بطلميوس الثاني عشر |
| ٥١ ـ ق٠م | تحكم كليوباترة السابعة كبرى بناته ، مصر ، وفترة توليها الحكم حافلة بالاحداث الجسام وبالآمال العريضة وتخوض |

بمصر معارك سياسية وعسكرية عالمية وتثبت للعالم جدارة
وكفاية وأنها ند لعظماء الرجال . وهذه الفترة من
تاريخ مصر شهدت تطورات كثيرة فى الداخل والخارج
وتجددت فيها اطماع الاسرة البطلمية وتداخلت
السياسة المصرية مع السياسة الرومانية ورجالاتها
وكانت كليوباترة تلقى التوفيق والنجاح ولكن الظروف
العالمية كانت اقوى منها فباءت فى آخر المطاف
بخسران مبين .

٤٩ ق.م — نشب نزاع بين كليوباترة السابعة وبين اخيها وزوجها
بطلميوس الثالث عشر وكان يصغرها بسبع سنوات وكانت
هى نفسها فى سن مبكرة اى تبلغ السابعة عشرة وكان
الاثنان يحكمان بالاشتراك طول الفترة من ٥١ حتى
٤٩ ق.م .

٤٩ — ٤٨ ق.م — تنشب حرب فى الاسكندرية سميت فى التاريخ الرومانى
بالحرب السكندرية = Bellum Alexandrinum
ونسبت لمؤلف او مصنف رومانى يسمى " هرتيوس "
( Hirtius ) وصف فيها الاحداث والاستراتيجية
فى شوارع الاسكندرية ومبانيها . وقد خاض هذه الحرب الملك
فى هذه الحرب ويعرض لوصف مواقع الصغير زوج كليوباترة
دفاعا عن شرفه ضد يوليوس قيصر الذى كان قد حضر الى
الاسكندرية متعقبا غريمه بومبى بعد ان هزمه فى فرساليا
سنة ٤٨ ق.م . واتصل بكليوباترة وعاشرها معاشرة الازواج

٤٨ ـ ق٠م بطلميوس الثالث عشر يغرق فى النيل وتلحق به الهزيمة
على يد يوليوس قيصر ويقضى على الثورة وتنتهى تلك
الحرب التى اشعلها بطلميوس الثالث عشر ٠ يصبح
الاخ التالى وهو الاصغر ملكا وشريكا مع كليوباترة وزوجا
لها ٠

٤٧ ـ ق٠م يولد ابن لكليوباترة من يوليوس قيصر ويسمى هذا الابن
قيصر الصغير او بالاحرى قيصرون ( Caesarion )
وسوف نرى كيف يصبح هذا الابن بطلميوس الخامس عشر
وكيف يكون محور تفكير كليوباترة ومحط آمالها ٠
قبرص تعود الى مصر بتأييد من يوليوس قيصر بالطبع ٠

٤٦ ـ ق٠م تذهب كليوباترة الى روما بدعوة من يوليوس قيصر وتقيم
فى قصر منيف على ضفاف التيبر وتبقى فى روما حتى
وقعت الواقعة وهى اغتيال يوليوس قيصر فى يوم مشئوم
هو الخامس عشر من شهر مارس ( Ides ) سنة ٤٤
على يد بروتس وكاسيوس ونفر من الجمهوريين المتشددين
الذين ظنوا ان يوليوس قيصر له نوايا غير جمهورية وانه
بدأ ينحو نحو المذاهب الهيللينستية التى اسقتها له
كليوباترة ، فخشوا على الروح الجمهورية الصميمة من اطماعه
وتصرفاته فاغتالوه وهو يتأهب للخروج من مجلس السناتو
الى الشرق ببرنامج عسكرى ضخم ضد الفرس ٠ وكانت
كليوباترة وهى تقيم فى روما ، تعقد صالونا ادبيا ، يتردد
عليه شخصيات لامعة من بينها الخطيب والزعيم شيشرون ٠
وكانت كليوباترة تعيش فى روما معززة مكرمة ، بفضل ما أسبغه

عليها يوليوس قيصر من عطف ومحبة ولكن الالسن كانت
تلوك اسمها وتندد بهذه العلاقة الآثمة بينهما وبين
هذا الزعيم الروماني الكبير واخذت تتردد مختلف
الاقاويل عن خطط ومآرب ذات طابع ملكي او هيلليستي
وتتوجس خيفة من اطماع سياسية قيل أن الملكة كانت
تبثها في نفس هذا الزعيم الروماني • وروما الجمهورية
كانت تضيق بمثل هذه الافكار الملكية وتخشى على
مصيرها مما قد تخبئه الاقدار لها • ومن هنا نشأ التآمر
ووقعت الكارثة • وكان توارى هذا الزعيم الكبير على
هذا النحو الفجائي بمثابة نكبة كبري وكارثة حلت
بكليوباتره وما بنها من يوليوس قيصر وقلبت الاوضاع
رأسا على عقب•

٤٤ ق•م عادة كليوباترة الى مصر هاربه على حد قول شيشرون
( Fuga reginae ) وتنفست روما الصعداء
لخروج الملكة المصرية من صعيد روما • امرت كليوباتره
بقتل اخيها الاصغر وزوجها بطلميوس الرابع عشر ( بعد
السادس والعشرون من شهر يوليو وعندئذ اعلنت ان ابنها
قيصرون اصبح هو بطلميوس الخامس عشر والشريك لها في
الملك •

٤٢ ق•م تقع معركة بين الجمهوريين وبين كل من الكتافيوس
وانطونيوس اخذا بالثأر لدم يوليوس قيصر المهدر ويتم
فيها النصر علي الجمهوريين في
معركة فيليبي ( Philippi )

بشمال بلاد اليونان ٠

٤١ ق٠م يتم لقاء مهم بين انطونيوس وبين كليوباترة فى آسيا الصغرى فى بلدة طارسوس ( Tarsus )

ومن ذلك الحين يرتبط مستقبل كليوباترة بهذا الزعيم الرومانى الذى مالبث ان تحول الى محب متيم بكليوباترة وهى بدورها اعتبرته اداة منفذة لبرنامج سياسى كانت عاقدة العزم عليه وتنتويه ٠وفيه رفعة لشأن مصر واستعادة لامبراطوريتها المضاعة ٠

٣٧ — ٣٦ ق٠م تتسلم كليوباترة بعض اجزاء من لبنان وتسك عملة باسمها

٣٦ — ق٠م كليوباترة ملكة الملوك

٣٤ — ق٠م انطونيوس يسبغ هبات ويوزع الممالك على ابناء كليوباترة وبناتها منه وبذلك يثير ثائرة الرومان عليه وعلى الملكة المصرية ٠

٣١ ق٠م معركة اكتيوم فى المياه الغربية من بلاد اليونان ٠ انتصر فيها الغرب على الشرق بفرار انطونيوس وراء كلوباترة دون ان تنشب معركة فعلية وبذلك يحسم النزاع بين الشرق والغرب ويتقرر المصير٠

٣٠ — ق٠م استيلاء اكتافيوس على الاسكندرية [illegible] فى الثالث من اغسطس٠

وفى يوم ١٢ أغسطس من نفس هذا العام انتحرت كليوباترة بعد ان استولى عليها اليأس وبعد ان فقدت انطونيوس الذى كان قد انتحر قبلها ببضعة ايام ٠

وبذا اسدل الستار على صفحة كفاح مرير خاضته كليوباترة من اجل رفعة شأن مصر ولكنها لم توفق فضم اكتافيوس مصر الى حظيرة الحكم الرومانى وجعلها ولاية تابعة لسلطان الشعب الرومانى ٠

